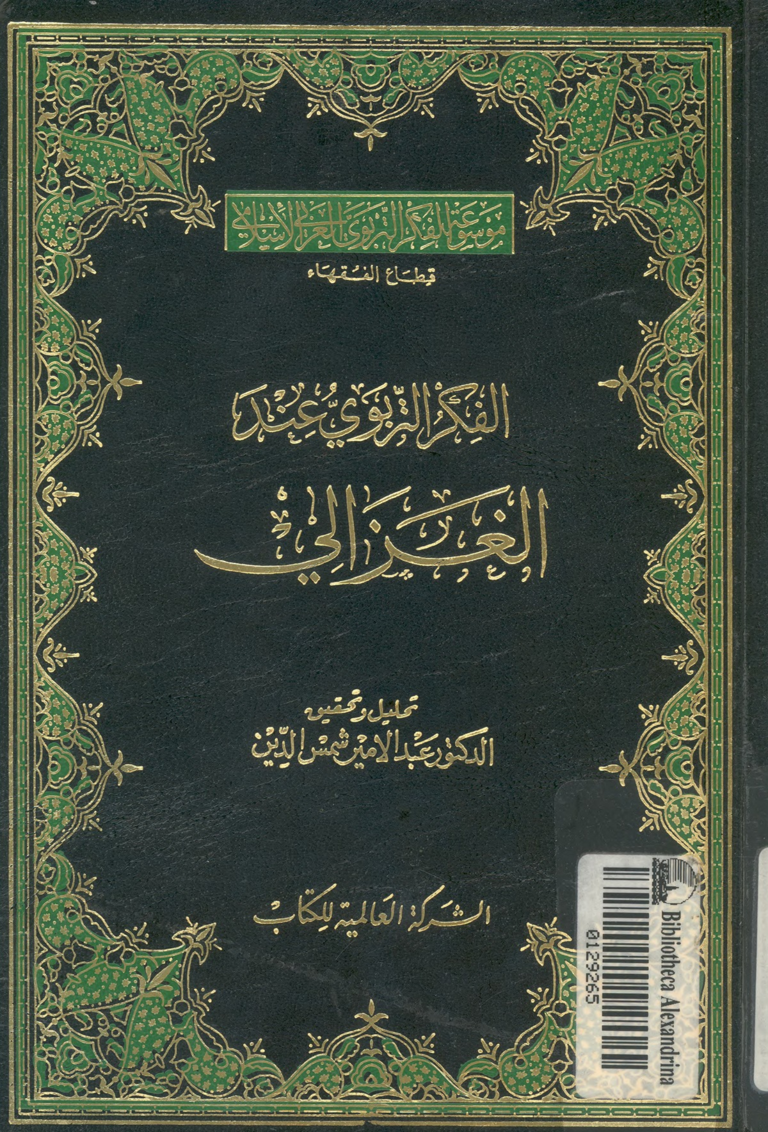

موسوعة الفكر التربوي العربي الإسلامي
قطاع الفقهاء
الفكر التربوي عند
الغزالي
تحليل وتحقيق
الدكتور عبد الأمير شمس الدين
الشركة العالمية للكتاب

العالمي — الشركة العالمية للكتاب

الدار الافريقية العربية

الشركة العالمية للكتاب — دار الكتا

مكتبة المدرسة — الدار الافريقية العربية

العالمي — الشركة العالمية للكتاب

الدار الافريقية العربية

الشركة العالمية للكتاب — دار الكتا

مكتبة المدرسة — الدار الافريقية العربية

العالمي — الشركة العالمية للكتاب

الدار الافريقية العربية

الشركة العالمية للكتاب — دار الكتا

مكتبة المدرسة — الدار الافريقية العربية

العالمي — الشركة العالمية للكتاب

الدار الافريقية العربية

الشركة العالمية للكتاب — دار الكت

مكتبة المدرسة — الدار الافريقية العربية

العالمي — الشركة العالمية للكتاب

الدار الافريقية العربية

الشركة العالمية للكتاب — دار الكت

مكتبة المدرسة — الدار الافريقية العربية

العالمي — الشركة العالمية للكتاب

الدار الافريقية العربية

الشركة العالمية للكتاب — دار الكت

مكتبة المدرسة — الدار الافريقية العربية

العالمي — الشركة العالمية للكتاب

الدار الافريقية العربية

الفكر التربوي عند

الغزالي

موسوعة التربية والتعليم الإسلامية

قطاع الفقهاء

الفكر التربوي عند الغزالي

دراسة وتحليل

الدكتور عبد الأمير ز. شمس الدين

الشركة العالمية للكتاب ش م ل

مكتبة المدرسة - دار الكتاب العالمي

القسم التربوي

الشركة العالمية للكتاب

د. عبد الأمير شمس الدين

دكتوراه دولة في فلسفة التربية

أستاذ في الجامعة اللبنانية

عبد الحميد فايد

أستاذ التربية وأصول التدريس

في جامعة بيروت العربية



الشركة العالمية للكتاب ش.م.ل.

طباعة - نشر - توزيع

مكتبة المدرسة

دار الكتاب العالمي

الدار الافريقية العربية

الادارة العامة

الصنائع - مقابل الاذاعة اللبنانية

هاتف ٢٤٩٠٥٥-٢٤٩٣٧٠ - ص.ب ٣١٧٦

تلكس LE ٢٢٨٦٥ - برقياً، كتالبان

بيروت - لبنان

المستودعات

هاتف ٣٥١٤٣٣



الطبعة الأولى ١٩٩٠



الغزالي

(بريشة جبران خليل جبران)



د. ت: دون تاريخ.

را: دون تاريخ.

را: راجع، انظر.

ج : جزء.

ص: صفحة.

ط: طبعة.

قا: قارنج

م. ع: المرجع عينه.

تقديم

الغزالي جَمَاعةٌ وجمَّاعة، ممثلٌ للفكر الذي وَحَّد بعد أن هَضَمَ واجترف. تجاوز سابقيه، وانتفع منهم، غطى على من أعطاه، وكسف من قَبْله.

والغزالي إمام فكري، ومجتهد كبير، ومُنَظِّر في السياسة والأفكاريات. . .

والغزالي فيلسوف، وإن بدا للبعض أنه غير ذلك بل حتى وإن بدا أنه هاجم الفلسفة التي لعله أحبها من أعماقه. . .

والغزالي أكبر علماء الكلام في عصره، وبقي من الكبار في ذلك الميدان. . .

والغزالي فقيه. وأكبر فقهاء عصره، وسيبقى من الكبار في ميدان الفقه. . .

ونقول الأمر عينه عن الغزالي القمة في مجالات التشريع، والمناظرة، والفتوى.

وهو أديب، وقد لا يَنْدَهش كثيرون إن عرفوا أيضاً ـ وإننا واثقون ـ أن الغزالي عالم في مجال علوم عصره العملية وليس فقط الدينية والنظرية.

أما عن الغزالي الصوفي. فذلك معروف. لقد درسوه من هذه الزاوية وأكثروا. . .

والغزالي موسوعة. لكن كموسوعة يكتبها متخصصون.

والغزالي صاحب مذهب تربوي. . وهذا الغزالي المربي. يقدم نظريته لتربية الأولاد، والكبار والعلائق، والمعاملات. التربية هنا جَمَّة الاتساع، متعددة الميادين. إنها هادفة لبناء الإنسان الصالح، والمجتمع الصالح، والأمة التي رآها صالحة.

تربويات الغزالي تناولت كل النشاطات، وكل الأعمار. فهي مستمرة وشاملة. وهي علم حال أي العلم المستمر والمطلوب أبداً والمواكب دوماً لكل حال يكونها الإنسان.

الغزالي التربوي هو موضوعنا هنا. والموضوع غزير. لكن النصوص التي نقدم تبقى تشدُّ القارىء إليها، وتتملق الفكر والنظريات التربوية المعاصرة. . .

الغزالي وحدةً، بحث عن الحقيقة. ودلّ على أن الطريق لبلوغ الغاية تبدأ من الطفولة. وسوف نعثر على الغزالي في نظرياته المتعلقة بعلم نفس الولد، وبالأحوال التي تهمّ المتعلم والمعلّم. . .

ع ز شمس الدين

الكتاب الأول

التحليـــل

الفصل الأول

الغزالي في حياته وعطاءاته

٤٥٠ ـ ٥٠٥ هـ

١٠٥٦ ـ ١١١١ م

١ ـ حياته، سيرته في خطوط عريضة.

٢ ـ عطاءاته الفكرية.

٣ ـ كتبه المقطوع بصحة نسبها إليه.

٤ ـ كتب أخرى.

١ ـ حياته، سيرته في خطوط عريضة:

القيمة الكبرى التي حظي بها الغزالي، جعلت الكاتبين عنه يَكثُرون. ولا جديد في الكتابة عن حياته وسيرته، فقد تناقلها المؤلفون دون إضافات أو تعديلات. إلا أنَّ السبكي في طبقات الشافعية[1] يبدو وكأنه كان أهمّ من كتب فأكثر وأطال. والسبكي شديد الإعجاب بالغزالي، فكتب يقول:

«الإمام الجليل أبو حامد الغزالي، حجة الإسلام، ومحجة الدين التي يُتَوصَّل بها إلى دار السلام. جامع أشتات العلوم. والمبرّز في المنقول منها والمفهوم. جَرَت الأئمة قبله شأوا، ولم تقع منه بالغاية، ولا وقف عند مطلب وراءه مطلب لأصحاب النهاية والبداية...»[2].

ويتابع السبكي:

«... كان رضي الله عنه ضرغاماً، إلا أن الأسود تتضاءل بين يديه وتتوارى. وبدراً تماماً إلا أن هداه يشرق نهاراً...»[3].

تلك هي عيّنة من القيمة الكبرى التي أُعطيت للغزالي. فما هي الآن سيرته في خطوط كبرى؟ نلجأ في ذلك إلى ابن خلكان، فنأخذ عنه بالحَرْف بعض المقاطع[4].

---

(١) راجع: السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج ٤، ط ٢، بيروت، دار المعرفة، ص، ١٠١ ـ ١٨٢.
(٢) م. ع.، ص ١٠١ ـ ١٠٢.
(٣) م. ع، ص ١٠٢.
(٤) ابن خلكان، الرقم ٥٨٨ (نشره احسان عباس بيروت، دار الثقافة).

أ ـ الغزالي تلميذ الجويني:

أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي، الملقب حجة الإسلام، زين الدين الطوسي الفقيه الشافعي... اشتغل في مبدأ أمره بطوس على أحمد الراذكاني. ثم قَدِمَ نيسابور واختلف إلى دروس إمام الحرَمْين أبي المعالي الجُويني. وجَدَّ في الاشتغال حتى تخرج في مدة قريبة، وصار من الأعيان المشار إليهم في زمن أستاذه، وصَنَّفَ في ذلك الوقت، وكان استاذه يتبجح به ويثني عليه.

خرج من نيسابور إلى العسكر، ولقي الوزير نظام المُلْك، فأكرمه وعَظَّمه وبالغ في الإقبال عليه... وكان بحضرة الوزير جماعة من الأفاضل، فجرى بينهم الجدال والمناظرة في عدة مجالس فظهر عليهم الغزالي واشتهر اسمه وسارت بذكره الركبان.

ب ـ في المدرسة النظامية:

فَوَّض إليه الوزير التدريس في المدرسة النظامية بمدينة بغداد، فجاءها وباشر إلقاء الدروس بها، وذلك في جمادى الأول سنة أربع وثمانين وأربعمائة... وأُعجب به أهل العراق، وارتفعت عندهم منزلته. ثم ترك جميع ما كان عليه في ذي القعدة سنة ثمان وثمانين وأربعمائة، وسلك طريق الزهد والانقطاع. وقصد الحج وناب عنه أخوه أحمد في التدريس. ولما رجع توجّه إلى الشام، فأقام بمدينة دمشق مدة يذاكر الدروس في زاوية الجامع في الجانب الغربي منه، وانتقل منها إلى بيت المقدس. واجتهد في العبادة، وزيارة المشاهد والمواضع المعظَّمة. ثم قصد مصر، وأقام بالاسكندرية مدة. ويقال إنه قصد منها الركوب في البحر إلى بلاد المغرب عازماً الاجتماع بالأمير يوسف بن تاشفين صاحب مراكش... فيما هو كذلك بَلَغَه نعي يوسف بن تاشفين المذكور، فصرف عزمه عن تلك الناحية.

جـ ـ العودة:

ثم عاد إلى وطنه طوس. واشتغل بنفسه، وصنف الكتب المفيدة في شتى

الفنون. ثم أُلْزِمَ بالعودة إلى نيسابور، والتدريس بالمدرسة النظامية. فأجاب إلى ذلك بعد تكرار المعاودات. ثم ترك ذلك وعاد إلى بيته في وطنه الأصلي، واتخذ خانقاها للصوفية ومدرسة للمشتغلين بالعلم في جواره، ووزع أوقاته على وظائف الخير: من ختم القرآن، ومجالسة أهل القلوب، والقعود للتدريس، إلى أن انتقل إلى ربه عام ٥٠٥ هـ /١١١١ م.

د ـ شعره:

حَلَّتْ عَقاربُ صدغه في خَدِّه قمراً فجلَّ بها عن التشبيهِ
ولقد عهدناهُ يَحلُّ ببرجها فمن العجائب كيف حلَّت فيه

هذه جولة سريعة في حياة فقيهنا الفيلسوف أبو حامد الغزالي. الذي لم يترك فناً أو نشاطاً إلا وترك به أثراً أو مصنفاً... أو رأياً[1].

٢ ـ عطاءاته الفكرية الكثيرة:

الغزالي بحر. كَتَب، وأكثر، واجتهد، وجاهد. والكتب التي وضعها يختلف الباحثون حول عددها وصحة نسبها إليه... ويعتبر كتاب عبد الرحمن بدوي[2] أشهر وأصدق عمل لاحقَ مؤلفات الغزالي الصحيحة والمنسوبة. ونهتم هنا بإيراد أسماء الكتب المقطوع بصحة نسبها إلى الغزالي، مرتبة حسب تأليفها[3].

٣ ـ كتب الغزالي المقطوع بصحة نسَبها إليه:

فيما يلي اللائحة التي نستطيع القول إنها شاملة. ولعلها ستطول بفعل

---

(١) في الشعر، يذكر السمعاني في كتابه «الذيل» وأيضاً العماد الأصبهاني في كتابه «الخريدة»، وابن خلكان في كتابه وفيَّات الأعيان، جـ٤ ص، ٢١٨، بعض الأبيات للإمام الغزالي.

(٢) را: عبد الرحمن بدوي، مؤلفات الغزالي، القاهرة، ١٩٦١.

(٣) تبقى لائحة بدوي أكمل لائحة. تجاوزت أعمال السابقين. وما يورده السبكي نافع، لكنه لا يفي...

جهود الباحثين في فكر الغزالي والمخطوطات الكثيرة المنسوبة إليه[1]:

١ ـ التعليقة في فروع المذهب.
٢ ـ المنحول في الأصول.
٣ ـ البسيط في الفروع.
٤ ـ الوسيط.
٥ ـ الوجيز.
٦ ـ خلاصة المختصر ونقاوة المعتصر.
٧ ـ المنتَحَل في علم الجدل.
٨ ـ مآخذ الخِلاف.
٩ ـ لُباب النظر.
١٠ ـ تحصين المآخذ في علم الخلاف.
١١ ـ كتاب المبادىء والغايات.
١٢ ـ كتاب شفاء الغليل في القياس والتعليل.
١٣ ـ فتاوى الغزالي.
١٤ ـ فتوى.
١٥ ـ غاية الغَور في دراية الدور.
١٦ ـ مقاصد الفلاسفة.
١٧ ـ تهافُت الفلاسفة.
١٨ ـ مِعْيار العلم في فن المنطق.
١٩ ـ معيار المعقول.
٢٠ ـ مِحَكُّ النظر في المنطق.
٢١ ـ ميزان العمل.
٢٢ ـ كتاب المستظهري في الرد على الباطنية.
٢٣ ـ كتاب حُجة الحق.
٢٤ ـ قواصم الباطنية.

---

(١) را: بدوي، م. ع.، ص ١ ـ ٢٣٨.

٢٥ ـ الاقتصاد في الاعتقاد.

٢٦ ـ الرسالة القُدْسية في قواعد العقائد.

٢٧ ـ المعارف العقلية ولباب الحكمة الإلهية.

٢٨ ـ إحياء علوم الدين.

٢٩ ـ كتاب في مسألة كل مجتهد مصيب.

٣٠ ـ جواب للغزالي عن دعوة مؤيد الملك له لمعاودة التدريس بالنظامية في بغداد.

٣١ ـ جواب مفصَّل الخلاف.

٣٢ ـ جواب المسائل الأربع التي سألها الباطنية بهمدان من الشيخ الأجل أبي حامد محمد بن محمد الغزالي.

٣٣ ـ المقصد الأسْنَى شرح أسماء الله الحُسْنى[١].

٣٤ ـ رسالة في رجوع أسماء الله إلى ذات واحدة على رأي المعتزلة والفلاسفة.

٣٥ ـ بداية الهداية.

٣٦ ـ كتاب الوجيز في الفقه.

٣٧ ـ جواهر القرآن.

٣٨ ـ كتاب الأرْبعين في أصُول الدين.

٣٩ ـ كتاب المضنون به على غير أهله.

٤٠ ـ المضنون به على أهله.

٤١ ـ كتاب الدرج المرقوم بالجداول.

٤٢ ـ القسطاس المستقيم.

٤٣ ـ فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة.

٤٤ ـ القانون الكلي في التأويل.

٤٥ ـ كيمياي سعادت (فارسي).

٤٦ ـ أيها الولد.

---

(١) في ابن خلكان: المقصد الأقصى في شرح..

٤٧ ـ نصيحة الملوك.
٤٨ ـ زاد آخرت (فارسي).
٤٩ ـ رسالة إلى أبي الفتح أحمد بن سلامة الدِّمي بالموصل.
٥٠ ـ الرسالة اللدنية.
٥١ ـ رسالة إلى بعض أهل عصره.
٥٢ ـ مشكاة الأنوار.
٥٣ ـ تفسير ياقوت التأويل.
٥٤ ـ الكشف والتبيين في غرور الخلق أجمعين.
٥٥ ـ تلبيس إبليس.
٥٦ ـ المنقذ من الضلال والمفصح عن الأحوال.
٥٧ ـ كتب في السحر والخواص والكيمياء.
٥٨ ـ غور الدور في المسألة السريجية.
٥٩ ـ تهذيب الأصول.
٦٠ ـ كتاب حقيقة القولَيْن.
٦١ ـ كتاب أساس القياس.
٦٢ ـ كتاب حقيقة القرآن.
٦٣ ـ المُستصفى من علم الأصول.
٦٤ ـ الإملاء على مشكل «الإحياء».
٦٥ ـ الاستدراج.
٦٦ ـ الدرة الفاخرة في كشف علوم الآخرة.
٦٧ ـ سر العالميْن وكشف ما في الدارين.
٦٨ ـ أسرار معاملات الدين.
٦٩ ـ جواب مسائل سئل عنها في نصوص أشكلت على السائل.

٤ ـ كُتُب أخرى والغزالي:

إلا أن الباحثين يرون أن هناك كتباً أخرى نسبت للغزالي ومن المرجح أنها

ليست له، وهي كتب السحر والطلسمات والعلوم المستورة[1]. وهناك كتب يدوز الشك في صحة نسبها للغزالي[2]. كذلك فقد أُخِذت أقسام من كتب أبي حامد وأُفْرِدَت كتباً مستقلة[3]. ولا ننسى الكتب المنحولة[4].

---

(١) م. ع. ص ٢٧٧ ـ ٣٠٢.
(٢) م. ع. ص ٢٣٩ ـ ٢٧٦.
(٣) م. ع. ص ٣٠٣ ـ ٣٥٢.
(٤) م. ع. ص ٣٥٣ ـ ٣٨٨.

الفصل الثاني

نظرية الغزالي التربوية

الغزالي والقطاع التربوي الفقهي .

١ - في العلم وفضله .

٢ - أقسام العلوم .

٣ - آداب المتعلم .

٤ - آداب المعلم .

٥ - طرائق التعليم او المنهجية التربوية.

٦ - خلاصة وحكم : تجاوز الغزالي لمن سبقه وأثره في من تلاه . . .

مدخل

الغزالي والقطاع التربوي الفقهي

اهتم الإمام أبو حامد الغزالي بكل علوم عصره.. ولقد تمثّل كل المعارف. فكتب في شتى ميادينها، وسعى لأن يكون الأقدر والأكثر تمثيلاً للفكر الإسلامي. وفي الدراسات الحديثة نجد الباحثين العرب يهتمون كثيراً وكثيراً جداً بالغزالي، فيكتبون عنه بالعربية وبلغات أجنبية[1]. كما أن التربية، التي أولاها أبو حامد عناية ملحوظة، نالت أيضاً نصيبها من الدرس التحليلي والمقارن[2].

في رسالة «أيها الولد»[3] يجد الباحث ما يكشف عن القطاع التربوي والتعليمي في فكر الغزالي الخصب. تدور تلك الرسالة، في معظمها، حول بعض الأسئلة التي تطرح على الغزالي من قبل أحد طلابه الذين ضاقوا بالتحصيل الشامل والعالي للعلم دون أن يجدوا فيه ضالتهم. وهكذا تدرس الرسالة المذكورة بعض النواحي التربوية فقط دون التطرق إلى نواح أخرى من صميم العملية التعليمية مثل: آداب المعلم والمتعلم، المنهج التعليمي، أقسام العلوم، وغيرها من المواضيع التي نجدها في التراث التربوي العربي الإسلامي..

---

(١) را: عن الغزالي باللغة الفرنسية دراسات الدكتور فريد جبر، وهي:

Farid Jabre, La notion de la "Marifa" chez Ghazali, Beyrouth, Edition des lettres Orientales, 1958, id., la notion de certitude chez Ghazali dans ses origines psychologiques et historiques, Paris, 1958. ID., essai sur le lexique de hazali, Beyrouth, publication de l'université libanaise, 1970...

Watt, in EI(1) PP 1062 - 1066; Talbi in EI(2), PP. 849 - 855...

(٢) را: فتحية حسن سلمان، مذاهب في التربية - بحث في المذهب التربوي عند الغزالي، القاهرة، مكتبة نهضة مصر، ط ٢، ١٩٦٤.

(٣) وهي رسالة موجهة إلى أحدهم. مترجمة إلى لغات أجنبية كثيرة بإشراف الأونيسكو. انظر النص، ص، ٢٠٥ - ٢٢٤، من هذا الكتاب.

إلا أن الأفكار التربوية للإمام أبي حامد تجدها موزعة في كتب عديدة له، وخاصة في كتاب «احياء علوم الدين». يضم هذا الكتاب مجمل فكر الغزالي، بما فيه القطاع «التربوي والتعليمي». وهناك مصادر أخرى بالطبع، للغزالي في هذا المجال مثل: «الرسالة اللدنية». و «ميزان العمل»[1].. لكن هذه المصادر لا تخرج أو لا تزيد عن ما هو في «إحياء علوم الدين»: لذا سيكون هذا الأثر، مع رسالة «أيها الولد»، مصدرنا للوقوف على آراء الإمام الغزالي في تربية وتعليم أبناء المسلمين الصغار منهم، والكبار، والصوفي بشكل خاص. أما نظرات أبي حامد في القطاع الآدابي أو في التعاملية المثالية فموجودة مبعثرة في كتب عديدة، لكن الملخص المكثف لذلك الميدان موجود في رسالة «الأدب في الدين»[2].

ومنهجنا الذي درجنا عليه في دراسة آثار المفكرين - في القطاع التربوي، يستحسن أن نتبعه هو نفسه مع الإمام أبي حامد. وهكذا سندرس آراءه أدناه، وعلى التوالي:

١ - في العلم وفضله.
٢ - في أقسام العلوم والتدرج بها.
٣ - علم الحال والتربية الفقهية.
٤ - في آداب المتعلم وشروطه.
٥ - في آداب المعلم وشروطه.
٦ - في المنهجية التعليمية والتربوية[3].
٧ - خلاصة ومحاكمة.

* * *

---

(١) را: الغزالي، ميزان العمل، تحقيق سليمان دنيا، القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٠، وقد أعاد نشره ماجد فخري، في: الفكر العربي الأخلاقي، ج ٢، ص ١٥٥ - ٢٣١. انظر النص، ١٨١ - ٢٢٢ من هذا الكتاب.

(٢) انظر النص، ص ٢٢٥ - ٢٤٨ من هذا الكتاب.

(٣) كان يجب الاهتمام بقطاع المناظرة والفتوى الذي هو ميدان تربوي في الفهم للتربويات والتعليم والتأديب والإفادة، وهو ما سنخصص له بحثاً خاصاً نظراً لأهميته التربوية.

أولاً ـ في العلم وفضله

نرى الغزالي قد صَدَّر كتابه الإحياء بكتاب العلم، نظراً لأهمية العلم في مذهبه، ولأن العلم محور الحياتَيْن الدنيا والآخرة. فنجده يقسم العلم إلى قسمين هما: علم المعاملة وعلم المكاشفة:

الأول: **علم المعاملة**، هو «ما يطلب منه مع الكشف العمل به».

والثاني: **علم المكاشفة**: «ما يطلب منه كشف المعلوم فقط»[1]. ثم يؤكد الغزالي أن العلم الذي يتصدر الاحياء هو «علم المعاملة» فقط. لأن «علم المكاشفة» لا رخصة في إيداعه الكتب بالرغم من أنه الغاية القصوى للطالبين والقاصدين والصدّيقين، ويكون التكلم به بالإيحاء والرموز لأن أفهام الخلق قاصرة عن فهمه.

وعلم المعاملة لكونه الطريق إلى الخلاص فهو يختص إما بأعمال الجوارح (العلم الظاهر)، أو بأعمال القلوب وهو (العلم الباطن). ونتابع مع أبي حامد تقسيم العلوم فيقدم لنا علم الجوارح (الظاهر): هو إما عبادة أو عادة. وعلم القلوب (الباطن): هو إما محمود أو مذموم.

وعلم المعاملة عند الغزالي في كتابه «احياء علوم الدين» سيكون هو موضوع دراستنا في لفكر الغزالي التربوي. لأنه يقوم على التربّي عليه، والتعلّم له والعمل به. بعكس العلم الآخر (المكاشفة) الذي لا يمكن إيداعه الكتب، ويكون بالإيحاء والرموز وهو للعلم به وليس للعمل.

وفضل العلم، برأي الغزالي، فوق كل وصف وتقدير. ومع ذلك فإن أبا حامد يقدم الأدلة التي تسند هذا الرأي. من النقل والعقل.

---

(١) الإحياء، القاهرة، كتاب الشعب، دار الشعب، ج ١، ص ٥.

أولاً: الأدلة النقلية.

في اظهاره لفضل العلم يلجأ الغزالي إلى مصادر كثيرة تَتَسَلْسَلُ وفق الأهمية: القرآن، ثم الحديث والأخبار والآثار القديمة.. وذِكْرُ فضائل العلم لا ينفصل، طبعاً عن فضائل العلم والعلماء.

أ ـ في فضل العلم من النقل:

يتناول الغزالي العلم والعلماء، التعلم والتعليم. فيذكر فضائل وشرف كل حالة مستشهداً كما ذكرنا بالآيات القرآنية، ومنتقلاً إلى الأحاديث النبوية، ثم إلى الأخبار، والآثار المروية عن الصحابة وغيرهم من المرسلين والصديقين..[1].

ولا نريد أن ندخل في تفاصيل ما استحضره الغزالي من الأدلة النقلية التي يذكرها في فضل العلم والتعلم والتعليم: فمثلاً، أن الله استشهد العلماء على وحدانيته. كما جعلهم في أعلى درجات المؤمنين، وهم في مصاف الملائكة كما أنهم ورثة الأنبياء..

وبالإضافة إلى الآيات الكثيرة التي يستشهد بها الغزالي حول ذلك الموضوع، فإنه يلجأ أيضاً إلى الكثير من الأحاديث والأخبار والآثار التي تضفي على العلم والعلماء، والتعليم الكثير من المآثر والمناقب. فهناك مثلاً مرويات وأخبار، تجعل العلم خيراً من العبادة نفسها، ومن المال أيضاً الذي لا تستقيم الحياة إلا به. فبالعلم وحده يرتفع المرء إلى مصاف الأنبياء والملائكة. ولا قيمة للأعمال إذا كانت بدونه: فهو غذاء للقلب، وكالطعام للجسد. إن العلماء حكّام على الملوك والسلاطين. كما أن التعليم أفضل الحسنات وأزكاها وطلبه جهاد، والمعلم والمتعلم شريكان في الخير.[2].

---

(١) قارن فضل العلم وشرفه ودوره عند ابن جماعة، زين الدين العاملي، الزرنوخي، العلموي، الطوسي. في موسوعتنا؛ التربية والتعليم الإسلامية.

(٢) الإحياء، كتاب العلم، جـ ١.

ولا مجال هنا لإيراد ما ذكره الغزالي في ذلك الباب. فقد جَمَع وأكثر من الجمع، والحقيقة أن ما قدمه لنا حول فضائل العلم وفضلِ المعلم والمتعلم هو أوسع ما نجده في الفكر العربي الإسلامي. فالشواهد التي يعرضها ستبقى النبع والمصدر لكل من خاض في هذا الميدان، ولم تفته عبارة أو حكمة أو شاهد مقروء أو منقول إلا وقدمه لنا سانداً رأيه مقدماً العلم على كل ما عداه. إلى أن يقول: «العلم خشية، وطلبُه عبادة، ومُدَارَسَتُهُ تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صَدَقَة، وبذله لأهله قُرْبة»[1].

ب - **في فضل العلم من العقل**: رأينا وسوف نرى أدناه أن معظم المفكرين عندنا قَدَّموا لرسائلهم التربوية والتعليمية بذكر فضائل العلم وشرفه بأدلة نقلية. والقليل منهم من لجأ إلى العقل في ذلك المضمار[2].

مبعث فضيلة العلم:

لما كانت الأمور عند الغزالي لا تعدو أن تكون إما علم أو عمل، أو حال. كان عليه أن يعالج «الفضيلة» لفظاً ومعنى. فما هي الفضيلة؟ **لفظاً**: هي مشتقة من الفضل، والفضل هو الزيادة في شيء على آخر، عندما يشترك الاثنان في أمر واحد. أحدهما يزيد عن الآخر بشيء أي يفضل عنه أو يفضله به، وهو ضد النقص[3]. ومن حيث **المعنى** فإن الغزالي يرى أن خلق الله يشتركون في بعض الصفات، ويفضل بعضهم البعض الآخر بما يمتاز به هذا على ذاك، ويتدرج ذلك (من الجماد إلى الملائكة) ليصل إلى البشر الذين يشتركون في خواص معينة ويتفاوتون في خواص أخرى. ومنهم «الذين أوتوا العلم» وهؤلاء يفضلون

---

(١) انظر النص، في فضيلة العلم، ص، ٧٩ - ٨٤. فضيلة التعلم، ص، ٨٧ - ٨٩. فضيلة التعليم، ص، ٩٠ - وما بعدها.

(٢) قا. على سبيل المثال، الأدلة العقلية لفضائل العلم عند زين الدين بن أحمد.

(٣) انظر الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ج ٤ ط ٢، مصر، ١٩٥٤، ص ٣١.

على الآخرين لكونهم حصَّلوا فضيلة جعلتهم يمتـازون بها، ويفضلون من لم يؤتوها إذ بواسطتها يستطيعون أن يعرفوا الله ويصفوا كماله. وبهذه الفضيلة حصل الشرف للملائكة والأنبياء. فـأصبح العلم فضيلة بـذاته، أَضْفت على حـاملها الكمال والتفضيل على من افتقر إليها من أقرانه. وبالفعل تم التوصل إلى هذه المفاضلة[1].

ثالثاً: مبعث نفاسة العلم وأهميته:

بالعقل أيضاً يرى الغزالي أن الأشياء النفيسة تُطلب لثلاثة أسباب: إما لغيرها: مثل المال، وهو ليس شريفاً. وإما لذاتها: وهي وسيلة لتحقيق أفضل الأشياء كالعلم. وهذا أشرف من الأول. وأما للاثنين معاً: مثل سلامة البـدن للتخلص من الآلام، ولاستمرار الحياة. إن العلم، وهو الذي يُطلب لذاته، به يتحقق أفضل الأشياء. ومن هنا تنجم أهميته ونفاسته في الدنيا والآخرة. فمن أجل الآخرة نجد أن العلم هو أصلُ الأمور كما ذكرنا. وبما أن فضائل الأشياء تُعرف من ثمراتها، فلا شك أن ثمرة العلم الـذي ينشده الغـزالي تُفْضي إلى معرفة الله والقرب منه، وبالتالي الالتحاق بالمـلائكة، وورثـة الأنبياء. ويضفي العلم على صاحبه في المجال الدنيوي العز والوقار والتقـدير والنفـوذ، فحتى «أغنياء الترك واجلاف العرب كانوا يوقّرون شيوخهم وكبارهم لأنهم أعلم منهم بعلوم مستفادة من التجربة»[2].

وهناك أدلة أخرى يستنبطها الغزالي بـالعقل للبـرهنة على فضـائل العلم وحامله تتعلق بأمور الدنيا مباشـرة أو تعود إلى السيـاسة التي وظيفتهـا التأليف والاجتماع والتعاون على أمور الدنيا وأسباب المعاش. والسياسة عنده نوع من الصناعات وهي أشرفها على الإطلاق، لأن صاحبها أرفع من أصحاب الصناعات الأخرى الأصلية منها أو المهيئة أو المتممة[3]. والعلماء هم الأولى بتلك الصناعة

---

(١) للوقوف على هذا الدليل مفصلاً انظر: النص.

(٢) النص.

(٣) يقسم الغزالي الصناعات إلى ثلاثة أقسام: ١ ـ أصلية كالمأكل، والملبس، والمسكـن =

(السياسة) بعد الملائكة والأنبياء، لكونهم يهدون الناس إلى الأخلاق الحميدة، ويبعدونهم عن الصفات الذميمة، ويرشدونهم إلى ما فيه خيرهم في الدنيا والآخرة معاً.

والخلاصة، يرى الإمام الغزالي في العلم أساساً لكل ما عداه. فالعلم دائماً يقف في الأمام، والعمل تابع. والأمر كذلك في الحالات الثلاث: العلم والعمل والحال. فالعلم ضروري لها: فبالنسبة للآخرة به يُعرف الله ويطاع، وبه يُعبد ويوحَّد، ويمجَّد كما يُعرف الحلال والحرام. أما بالنسبة للدنيا فهو حياة القلوب من العمى، ونور الأبصار من الظلمة، وقوة الأبدانْ من الضعف والسقم.

هذا هو علم المعاملة الذي ذكرناه هنا على عجالة وألمحنا إلى فضله وشرفه وماهيته ووظيفته. إنه يفوق العبادة فضلاً، ويضاهي الملائكة شرفاً، وبه تورث الأنبياء.

لكن العلم عند الغزالي ليس هدفاً بذاته. إنه لتحقيق ما هو أفضل، لأن الخلاص ليس به وحده. ويكون طلبه للعمل به. «لأن بالعمل وحده يكمن خلاص الإنسان، وهو الزاد الوحيد في طريق الخلاص، وكلما كان الزاد أكبر كان الخلاص أضمن»[1]. ولذا كان على الإنسان أن يطلب العلم ليس للدنيا بل للآخرة، لأن الأعمال لا تكون صالحة ومستحقة لرضا الله وغفرانه إلا به، فهو أصلها وأساسها[2]. من هذه الوظيفة المستنبطة بالعقل يستمد العلم فضله ونفاسته وأهميته.

* * *

ثانياً ـ أقسام العلوم والتدرج في تعلمها[3]:

في ما تقدم ذكره رأينا فضائل العلم والعلماء والتعلم والتعليم عن طريق

= والسياسة للتأليف والاجتماع. ٢ ـ مهيئة للأولى كالحدادة. ٣ ـ متممة للأصول كالطحن للخبز، والخياطة للحياكة.

(١) انظر رسالة أيها الولد، ص، ٢٠٥ ـ ٢٢٤.

(٢) النص.

(٣) انظر الرسم البياني ص، ٣٨.

النقل والعقل، وهل هذا ينطبق على أي علم كان؟ إن العلم الذي يقصده الغزالي هو علم المعاملة، بعد أن وجد في علم المكاشفة غاية قَلَّ أن تُدرَك.

ونظراً لتداخل العلم والعمل عند الغزالي. تجدنا منساقين لأن نتحدث في أقسام العلوم ما هو فرض عين منها، وما هو فرض كفاية، وكيف ومتى يمكن الجمع بينهما أو يقوم أحدهما مكان الآخر؟ إن العلم «فرض على كل مسلم». فما هو هذا الفرض؟ هل هو علم الفقه، الذي يعرف به الحلال والحرام والعبادات وغيرها، كما رأى الفقهاء؟ أم علم الكتاب والحديث والسنة الذي يؤدي إلى العلوم كلها كما رأى المحدِّثون؟ أم علم الكلام الذي به يُدْرَك التوحيد ويُعلَم به ذات الله، كما وجد بعض الصوفية؟ أم هو غير ذلك كله مما قالت به بعض الفرق بعد أن تعددت الآراء وتعارضت حول هذا الموضوع[1].

وإذا استعرضنا الآثار التي تركها الفكر العربي الإسلامي، وخاصة في مجال التربية والتعليم، فإننا سنقف على مدى الاختلاف في وجهات النظر بين القطاعات المختلفة (فقهاء - فلاسفة - علماء - صوفيون) بالرغم من شبه الإجماع على تقسيم العلوم إلى قسمين: ما هو فرض عين، وما هو فرض كفاية[2].

ولا شك في أن الغزالي يقع داخل اطار تلك النظرة والتقسيم. فالعلوم عنده أيضاً منها ما هو فرض عين، ومنها ما هو فرض كفاية.

أ - العلوم التي هي فرض عين: علم المعاملة هو فرض عين يجب على كل راشد تعلمه، ولا يسقط عن أي فرد كما يقرر الغزالي، ما هو هذا العلم؟ وما هو موضوعه؟ وما هي أقسامه؟ وكيف يتدرج بها الراشد؟ أسئلة سنحاول الإجابة عنها في استعراضنا لآراء حجة الإسلام في هذا الموضوع. يشمل العلم الذي هو فرض عين عند الغزالي، أمور المعاملات الثلاثة: الاعتقاد والفعل والترك.

---

(١) يذكر الغزالي أن الناس افترقوا حول هذا الموضوع إلى أكثر من فرقة.

(٢) انظر: ابن خلدون، الطوسي، الزرنوجي، زين الدين العاملي، ابن جماعة، وغيرهم ممن أدرجنا آراءهم التربوية والتعليمية في موسوعتنا في التربية والتعليم الإسلامية.

إن أول ما يجب أن يتعلمه الإنسان العاقل هو الشهادتان: «أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله». «فإذا بلغ الرجل العاقل بالاحتلام أو السن ضحوة نهار مثلاً، فأول واجب عليه تعلّم كلمتي الشهادة وفهم معناهما»[1]. في هذه المرحلة لا يكون التعلم بالنظر والبحث وتحري الأدلة، بل يُكتفَى بالتصديق والاعتقاد دون ريب أو تشكيك. ويكون التعلم هنا بالتقليد والسماع، من غير بحث ولا برهان. ويستشهد الغزالي بذلك على اكتفاء النبي ﷺ بتصديق رسالته من جانب اجلاف العرب والإقرار برسالته من غير دليل. هذا الاعتقاد كافٍ في حد ذاته. فمن يموت بعد هذا الاعتقاد مباشرة سيموت مؤمناً، ولا يُطلب فوق الاعتقاد أعمال أخرى.

ب ـ **موقع العلم من العمل في الفعل**: إذا استمرت الحياة، سيتعرض المرء إلى عوارض وحالات تتطلب منه تدرجاً في تعلم ما يستجد ويطرأ بمرور الوقت والزمن، **سواء في الفعل أو الترك أو الاعتقاد. ففي الفعل مثلاً**: أن حلول الظُّهر يتطلب تعلم الطهارة والصلاة، وفي شهر رمضان يتوجب عليه الصيام، كما سيأتي وقت للحج عليه تعلم شروطه، وكذلك فإن جمع المال يطلب منا معرفة الزكاة وتأديتها.

ويقرر الغزالي في حال تعرض المرء في بعض الحالات للتعلم والعمل في آن واحد، ولا يمكنه القيام بهما معاً، عليه أن يتعلم أولاً. . . إذْ ان العلم هو أصل للعمل، وأساس له، كما أنه شرط له بعد وجوبه.

وهكذا يكون تعلم سائر الأفعال التي هي فرض عين.

أما في الترك: ويكون هذا بحسب ما يستجد على المرء من أحوال وأمور. ويختلف باختلاف الأشخاص، فليس على الأبكم مثلاً تعلم ما يحرَّم من الكلام، ولا على الأطرش سماع ما لا يجوز من الألفاظ، وكذا الأعمى. وهذا النوع من التعلم بالإضافة لكونه واجباً فهو أيضاً مرتبط بما يستجد ويطرأ من أحوال. انه يرتبط بحالة الشخص المتعلم ذاته أي بما يحتاجه ومالا يحتاجه، ما

---

(١) النص.

يقـدر عليه ومـا لا يقدر. وهكـذا يربط حجـة الإسلام واجب التعلم بـواجب التعليم، «فمـا وَجَب تعليمه، وجب تعلُّمـه»[1]. ويصحّ فيـه العكس؛ فما لا يوجب تعلُّمه لا يتوجب تعليمه.

إن ذلك العلم الذي يقدمه الغزالي قابل للتعلم، ولا حاجة هنا لمناهج وطرائق إذ يكفي فيه الاعتقاد كما سبق. إلا أن هناك خواطر قد تزلزله. وتكون متأتية من الـطبع أو بتـأثير الآخـرين. وفي الحالتين، إذا تعـرض المرء لهـذه الخواطر، كالتشكيك بالشهادة أو بأن كلام الله قديم أو غيرها، يتوجب عليه أن يتعلم ما يزيل هذا الشك من قلبه وذهنه. كما أن المرء قد يتعرض أيضاً لأن يعاشر قوماً يكثر فيهم الجدال والتناطق بالبدع، أو شيوع الربا. من واجبه أن يتعلم ما يصون دينه وفكره وقلبه من الضلال والبدع. ذاك هو إذن «العلم الذي هو فرض عين». ومعناه العلم بكيفية العمل الواجب. فمن عَلِمَ العمل الواجب ووقت وجوبه فقد علِم العلم الذي هو فرض عين»[2].

ويتدرج الغزالي صعوداً من البسيط إلى المعقد في هذا النوع من العلم (الفعل والترك والاعتقـاد)، إلى أن يصل إلى مـا هو في مـوقع التّمـاس بين ما هـو فرض عين من العلم وما هو فرض كفاية، وهو ما يقع عادة عليه الخلاف عند الفقهاء والمفكرين. نجده يتدرج بالعلوم ابتداء بما هو فرض عين كالإعتقادات التي لا تتطلب العلم أحياناً، إلى العمل الذي يتطلب العلم المسبق ليكون العمل بمقتضى العلم، ثم إلى الحال التي يحياها الإنسان، وهي حالة العلم والعمل معاً. حيث خلاص الإنسان بترك ما يجب تركه، والقيام بما يتوجب عليه القيام به.

ج ـ **العلوم التي هي فرض كفاية**: هي العلوم التي إذا تعلمها البعض سَقَطَ واجب تعلمها عن البعض الآخر، «ولا يُستغنى عنها في قوام أمور الدنيـا»[3].

---

(١) النص من الأحياء.

(٢) المرجع السابق.

(٣) المرجع السابق.

ويقسّمها الغزالي إلى قسمين: العلوم الشرعية وهي العلوم المستفادة من الأنبياء، ولا يرشد العقل إليها كما هو الأمر في الحساب، ولا تستفاد من التجربة كالطب، ولا تؤخذ من السماع كاللغة. والعلوم غير الشرعية ويقسمها إلى ثلاثة أقسام: محمودة، ومذمومة ومباحة.

وفي هذا التقسيم للعلوم يكون الإمام الغزالي من حيث الغايات القصوى قد فرّق بين نوعين من العلم: فإما للدنيا وإما للدين. وفي الحالة الأولى تكون خيبة الظن، وفي الثانية الحق والخلاص[1]. وباختصار ما هي العلوم التي تتبع كل منهما؟

أ - العلوم الشرعية: لتبقى هذه العلوم محمودة جميعها. يضع لها الغزالي: أصولاً، وفروعاً، ومقدمات، ومتممات. فمن أصولها: الكتاب والسنة والإجماع وآثار الصحابة. ثم هناك الفروع: وهي التي تستخرج من الأصول المذكورة بواسطة العقل، فمنها ما يتعلق بأمور الدنيا، كالفقه والمتكفل به الفقهاء. وهم من علماء الدنيا[2]، أو ما يتعلق بأمور الآخرة، كعلم أحوال القلب ومعرفة أخلاقه المحمودة والمذمومة، أي معرفة ما هو مقبول عند الله وما هو مذموم.

وهناك المقدمات: وهي العلوم التي تكون آلات لغيرها. كاللغة وما يتفرع عنها من العلوم الأخرى كالصرف والنحو والبيان والخط[3]. وهذا النوع من العلوم ليس من العلوم الشرعية، لكن لا بد منه لأنه كالآلة لغيره من علوم القرآن والحديث وغيرها...

تبقى المتممات: وهذا النوع يتعلق بقراءات القرآن، ومخارج الحروف، والمعنى والتفسير. وهو العلم الذي يسميه البعض «أصول الفقه». ويندرج تحت

---

(١) ايها الولد، النص.

(٢) النص من الأحياء.

(٣) يرى الغزالي أنه لو كان بالإمكان حفظ جميع العلوم بدون كتابة لاستغني عن التعلم والتعليم.

هذا النوع: العلم «بالرجال»، وأخبارهم وأنسابهم، وعدالة الرواة وأحوالهم، وذلك من أجل الوقوف على مدى صحة الروايات والأحاديث[1].

ب ـ **العلوم التي ليست شرعية**: معظمها مرتبط بمصالح أمور الدنيا ويقسمها الإمام الغزالي إلى ما يقع موقع فرض الكفاية، وهي العلوم التي لا يستغنى عنها في قوام أمور الدنيا. كالحساب والطب. فالحساب ضروري في قسمة المواريث والوصايا، والطب في حفظ الأبدان. ويقول عن هذه العلوم: «فلو خلا البلد ممن يقوم بها أُحرج أهل البلد، وإذا قام بها واحد كفى وسقط الفرض عن الآخرين»[2]. ويندرج تحت هذا العنوان أصول الصناعات، مثل الحياكة، والسياسة، والخياطة، والحجامة. . . . وقد أدرجها الغزالي مع العلوم التي هي فرض كفاية لأنه «لو خلا البلد من الحجّام تسارع الهلاك إليهم، وخرجوا بتعريض أنفسهم للهلاك».

أما ما يعد تحصيله فضيلة فهو التعمق في هذه العلوم التي ذكرناها مثل: دقائق الطب وحقائقه «وغيرها مما يستغنى عنه، ولكن يفيد زيادة قوة في القدر المحتاج إليه»[3].

جـ ـ **علوم مذمومة**: نظر الغزالي، كغيره من المفكرين والفقهاء، إلى السحر والطلسمات والتلبيسات والشعوذة على أنها علوم مذمومة، ولا تأتي بخير لا إلى صاحبها ولا إلى الجماعة.

د ـ **علومٌ مباحٌ العمل بها**: وهي الأخبار والتواريخ والأشعار «التي لا سخْف فيها»[4]، وما يجري مجرى هذه العلوم. فلم يجد هنا أبو حامد ما يمنع تعلمها. إلا أنه، من جهة مقابلة، لم يجد ما يدعو لتعلمها لأنها لا تؤدي وظيفة نافعة لا للدنيا ولا للدين.

---

(١) انظر النص.

(٢) المرجع السابق.

(٣) المرجع السابق، ج ١، ص ٣٠.

(٤) يقبل الغزالي بالشعر أو، على الأدق، بنوع معين من الشعر، ولقد استشهد هو نفسه، بالأشعار في بعض آرائه.

ونرى عند الغزالي تقسيماً آخر للعلوم، تأخذ الفلسفة وعلومها وضعاً خاصاً داخل ذلك التقسيم. إذْ تشمل الفلسفة على:

١ ـ **الحساب والهندسة**: هي من العلوم المباحة بشرط أن لا تتعدى الحد الذي تتحول به إلى علوم مذمومة أو عندما يخرج بها إلى البدع. لذا يرى الغزالي «أن يصان الضعيف عنهما لا لعينهما كما يصان الصبي عن شاطىء النهر خيفة عليه من الوقوع في النهر»[١].

٢ ـ **المنطق**: هو الذي يبحث عن وجه الدليل وشروطه، ووجه الحد وشروطه...

٣ ـ **الالهيات**: ويدخل في علم الكلام الذي يتعلق بالبحث عن الله وصفاته.

٤ ـ **الطبيعيات**: يرى أن بعضها مخالف للشرع والدين، ويعتبره جهلاً وليس بعلم، ولا يجوز ادراجه في أقسام العلوم. وأما ما يبحث في الأجسام وخواصها فهو شبيه بعمل الأطباء، مع الاختلاف في كون عمل الطبيب يُحتاج إليه، «أما علومهم في الطبيعيات فلا حاجة إليها»[٢].

أما علم الكلام، الذي يتضمن بعض العلوم الفلسفية كالمنطق والإلهيات، فإن رأي الغزالي فيه معروف وملخص في «المنقذ من الضلال»[٣]. ويرى الغزالي أن قوام الدين أصبح يحتاج إلى ذلك النوع من العلوم حيث «صار من جملة الصناعات الواجبة على الكفاية حراسة لقلوب العوام عن التخيلات المبتدعة»[٤]. وبهذا يكون موقع التكلم من الدين موقع الحارس له، والمحافظ على إيمان الآخرين. وكي يبقى المتكلم في صفوف المؤمنين فإن عليه أن يسلك طريق

---

(١) النص،
(٢) انظر: المنقذ، نشره فريد جبر، بيروت، ط ٢، ١٩٦٩، ص ١٨ ـ ٢٧.
(٣) المرجع السابق ص ١٦ ـ ١٧.
(٤) المرجع السابق.

الآخرة: «والمتكلم إذا تجرد للمناظرة والمدافعة. ولم يسلك طريق الآخرة، ولم يشتغل بتعهد القلب وصلاحه، لم يكن من جملة علماء الدين أصلاً، وليس عند المتكلم من الدين إلا العقيدة التي يشاركه فيها سائر العوام»[1].

كانت غاية الإمام الغزالي، في هذا المضمار، منصبَّة على تنقية النفس وتطهيرها أولاً. فوجد في العلوم التي هي فرض عين خير معين على هذا ومساعداً على ترك الإثم ظاهراً وباطناً. فالأعمال دائماً يجب أن تقرن بالعلم، حيث بهما يكمن الخلاص، لأن «العلم بلا عمل جنون، والعمل بلا علم لا يكون»[2]. ومن أراد طريق الجنة عليه بالعمل الموصل إليها. وكل ما قد يحصّله المرء من العلم ليس فيه الخلاص إلا بالعمل الصالح».

عندما يبلغ المتعلم حالة الاعتقاد والفعل والترك، يسمح له الغزالي بالعمل لتحصيل ما هو فرض كفاية. وهذا التحصيل ليس بالأمر السهل. ولذا يشير عليه بالتدريج المتأن والحذر به. «فاشتغل بفروض الكفايات وراعِ التدريج فيها: فابتدىء بكتاب الله. ثم بسنة رسوله، ثم بعلم التفسير وسائر علوم القرآن.. ثم اشتغل بالفروع وهو علم المذهب من علم الفقه دون الخلاف. ثم بأصول الفقه، وهكذا إلى بقية العلوم على ما يتسع به الوقت ويساعد عليه العمر».

رأيه في المناظرة (علم الخلاف) والوعظ والإفتاء:

لا ينصح الغزالي طالب العلم بالمناظرة «لأن فوائدها قليلة وآفاتها كثيرة» إنه ينصح بالإشتغال بأصول الفقه دون الخلاف هنا نجد أبا حامد يدرس التطور التاريخي الذي أوصل الناس إلى المناظرة. فيرى ان الخلفاء الراشدين كانوا متفقهين في الدين، ويفتون ويناظرون بأنفسهم أصحاب البدع، وكان الفقهاء في عهدهم منصرفين إلى العلم والدين عن صفاء قلب وعزيمة صادقة. ولما جاء إلى مراكز القيادة «من لا علم لهم ولا استقلال لهم بعلم الفتاوى والأحكام، فقد

---

(١) المرجع السابق.
(٢) ايها الولد، ص ١٧.

اضطر هؤلاء إلى طلب الفقهاء لـلاستعانـة بهم واستصحابهم خـاصة لأشغـال منصب القضاء. . ».

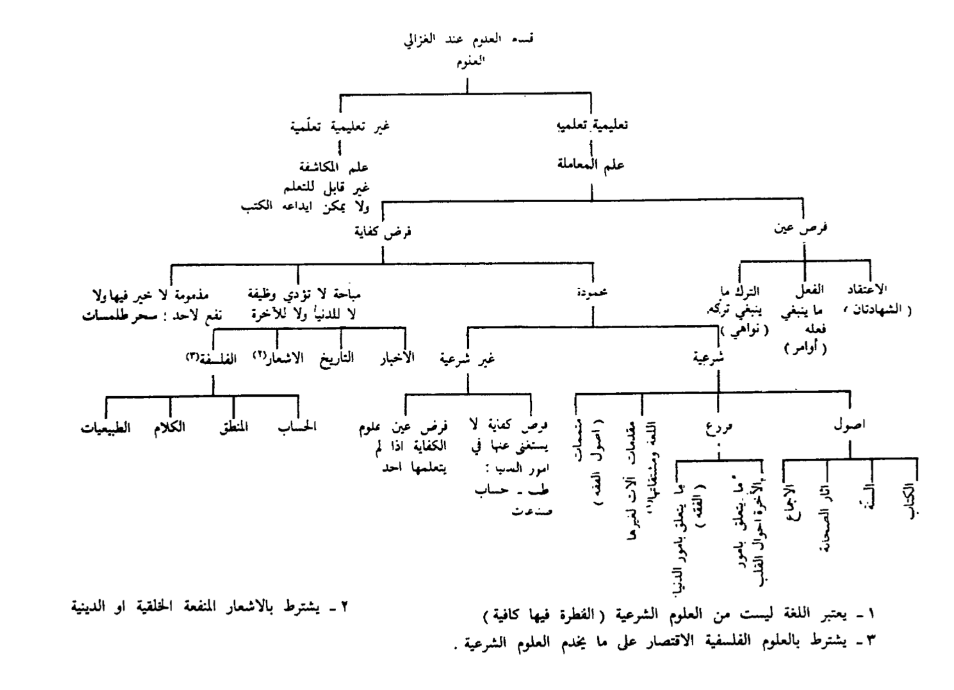
ثم ظهر من مال إلى سماع المناظرات والمجادلات العقائدية، والحجج فيها للدفاع عن أمر والهجوم على آخر. «فأكبَّ الناس على علم الكلام، فأكثروا فيه التصانيف، ورتبوا فيها طرق المجادلات واستخرجوا فنون المناقضـات في المقالات، وزعموا أن غرضهم الذّب عن دين الله، والنضال في السنَّة وقمـع المبتـدعة». ويـرى الغزالي أن هـذا ممـا أدى إلى التعصب الفـاحش وتفشي الخصومات «المفضية إلى اهراق الدماء وتخريب البلاد». فترك الناس المناظرة في الفقه، وأقبلوا على المسائل الخلافية بين الأئمة «زاعمين أن غرضهم استنباط دقائق الأمور وتقرير علل المذهب، وتمهيد أصول الفتاوى، ورتبـوا فيه أنـواع التصنيفات والمجادلات»[1]. بسبب تلك الحالة والأطوار التي مر فيها علماء الفقه والكلام ينصح الغزالي بعدم الإقبال عليهما. إن هدف أصحابهـا لم يكن لله والآخرة، بل كان هدفهم الدنيا والتقرب من الولاة والسـلاطين. ثم يذكـر لنا الغزالي ثمانية شروط، إذا افتقر المناظر إلى أحدها ضاع أجره، وأشرف على الهلاك نظراً لما يترتب عليها من مزالق ومخاطر. إنها لا تخلو من آفات. وليس الغزالي هو الوحيد الذي يرى أن المناظرة إذا افتقرت إلى شروط تقيدها تصبح منبعاً ومصدراً لجميع الأخلاق الـذميمة التي يسميهـا «المهلكات». فـإذا كان القصد منها الغلبة، وإظهار الفضل والشرف والمباهاة واستمالة وجـوه الناس، فإنها ستكون «منبعاً لجميع الأخلاق المـذمومـة»: كالحسـد والتكبر والحقـد، والغيبة، وتزكية النفس والتجسس، والفرح بمصائب الناس، والنفاق والاستكبار والرياء، ولذلك فإن المناظرة لا بد أن تخضع لشروط[2] هي:

١ ـ إنها من الكفايات لا يجوز الاشتغال بها إلا بعد الفراغ من الأعيان، ومن «يعمل خلاف ذلك فهو كاذب».

---

(١) نفس المرجع.

(٢) نكتفي هنا بتلخيصها ولنا عودة إلى تفاصيلها.



١ - يعتبر اللغة ليست من العلوم الشرعية (الفطرة فيها كافية)

٢ - يشترط بالاشعار المنفعة الخلقية او الدينية

٣ - يشترط بالعلوم الفلسفية الاقتصار على ما يخدم العلوم الشرعية .

٢ ـ أن لا يكون في حينها فرض كفاية أهم منها، ليكون العمل بالمناظرة آخر ما يفكر فيه المرء.

٣ ـ أن يكون المناظر مجتهداً قادراً على اتخاذ الموقف الداعم للحق، ولا يحتاج إلى من يرجّح رأيه.

٤ ـ عدم المناظرة إلا في المسائل الواقعة أو قريبة الوقوع، أي التي لا يمكن تأجيلها أو السكوت عنها.

٥ ـ أن تكون المناظرة في الخلوة لأن الخلوة أجمع للفهم، وأحرص بصفاء الذهن والفكر ودرك الحق، إذ أن في حضور الخلق ما يحرك دواعي الرياء.

٦ ـ أن يكون المناظر في طلب البحث كناشد ضالة، لا فرق عنده أن تظهَر على يديه أو يدي من يعاونه.

٧ ـ أن لا يمنع مُعينه من النظر والانتقال من دليل إلى دليل.

٨ ـ أن يناظر من يتوقع الاستفادة منه، أي ممن هو مشتغل بالعلم[1].

* * *

ثالثاً: الغزالي ـ علم الحال والتربية الفقهية

نذكّر هنا بأن موضوع العلوم؛ تعليمها وتعلّمها كان من المواضيع التي كثر حوله الجدل. واختلفت إزاءه الآراء والمواقف. ولعل هذا الموضوع ذاته كان على رأس المواضيع التي أدت إلى الفصل بين قطاعي الفكر الإسلامي الواحد إلى ما هو فقهي وما هو فلسفي.

---

(١) للتفصيل، انظر الأحياء، ج ١ ص ٧٢ ـ ٧٥. وستحوي موسوعتنا التربوية على جزء خاص بآداب البحث والمناظرة والفتوى والاستفتاء. ذلك أننا اعتبرنا تلك الآدابية كقطاع مهم من التربية العربية الإسلامية.

وإن كان المفكرون المسلمون قد اتفقوا على «أن العلم فرض على كل مسلم» لقد اختلفوا حول هذا العلم الذي هو فَرْض. وأثيرت حوله أسئلة وطرحت علامات استفهام، وجاءت الإجابات مختلفة، ومتفاوتة، ومتعارضة.

ـ ما هو العلم الذي هو فرض؟

ـ هل أي علم هو فرض عين؟ وما هو فرض عين وما هو فرض كفاية.

ـ متى يكون علم من العلوم فرض كفاية، ومتى يكون فرض عين؟

وغيرها من الأسئلة، التي أخذت بالتزايد والتصاعد كلما نمت العلوم واتسعت، وتعددت مجالاتها وتنوعت، وتفرعت أقسامها وتشعبت.

فكان للعلماء والمفكرين موقف، وللفقهاء والمتصوفة موقف، وللفلاسفة آخر. ولكنه كان لأصحاب الرأي والعقل موقف، ولأصحاب النقل والنص آخر.

والسؤال الذي يطرح نفسه في إطار التربية والتعليم هو:

ماذا يجب أن يقدَّم إلى فكر الناشىء أو المتعلم؟ وبمعنى آخر ما هي المواد التعليمية لتكون غذاءً صالحاً لذلك العقل المهيأ بالطبيعة والفطرة لتقبل كل علم[1]. . . لكي يحقق هذا العقل ماهيته وللإنسان كماله وإنسانيته؟

وجد الفقهاء في العلوم الدينية خير وسيلة لتحقيق أغراض الإنسان سواء الدينية منها والدنيوية. لقد وجدوا في هذا النوع من العلوم ما يوفر للعقل الإنساني ما يحيا به وينمو محققاً ماهيته كما يحقق للإنسان الأغراض السامية التي وُجد من أجلها.

وإن التقى جميع الفقهاء التربويين حول كون العلم الشرعي هو الغذاء الصالح والكافي للفكر، فإننا نجدهم قد اختلفوا على الأقل حول تصنيف هذه العلوم ودرجة تحصيلها وماهيتها بالإضافة لوظيفتها الدينية والدنيوية.

فما كان على الفقهاء إلا أن يتفقوا على تقسيمها إلى مجموعتين:

---

(١) هكذا كانت نظرة المفكرين المسلمين ـ فقهاء وفلاسفة ـ إلى العقل الإنساني.

ـ ما هو فرض عين؛ أي ما يتوجب طلبه لذاته ولا تقوم أمور الدين إلا به.

وما هو فرض كفاية[1]، ٱلّذي إذا قام به البعض سقط عن البعض الآخر؛ فهو علم مطلوب لغيره. وبالرغم من هذا التقسيم المتفق عليه من جميع الفقهاء تقريباً نجدهم قد اختلفوا حول العلوم التي يشملها كل قسم.

ولما كان الفكر الفقهي قد تمثل وتجلى بالغزالي إمام الفقهاء؛ حيث حدّد معالم كل منهما وأجاب على ما هو مطروح على الفكر الإسلامي. إذ رد الإمام الغزالي على السؤال الرئيسي المطروح عليه: ما العلم الذي هو «واجب على كلّ مسلم ومسلمة»...؟ فكان «علم الحال» اصطلاحاً أوجده الغزالي ورَدده بعده معظم الفقهاء إن لم نقل جميعهم[2].

علم الحال اصطلاح أدخله الفكر التربوي الفقهي على العملية التعليمية في مجال التنشئة، فكان له أبعاد تعليمية وتربوية[3]، ربما تكون هذه التَسمية مشتقة من «الحال» التي عاشها الإمام الغزالي بعد خروجه من الشك؛ أي حالة العلم والعمل حيث لم يستطع أن يتصورهما فقيهنا منفصلين، علم بلا عمل، أو عمل بدون علم.

فما هو علم الحال؟ يجيب الغزالي:

ليقوم المصلي بأداء فريضة الصلاة يتوجب عليه ـ على مختلف أحواله وظروفه ـ العلم بما يقيمها وما يبطلها، ويقال الأمر عينه بصدد جميع الفروض كالحج والزكاة والصوم وغيرها. وهو ما دعاه الغزالي «علم المعاملة» الذي يمتد ويتسع ليشمل: **الاعتقاد، والفعل، والترك.**

---

(١) البعض أعطى لهذا النوع من العلوم أهمية تفوق أحياناً علوم فرض العين، لما يترتب على حاملها من مسؤولية تتجاوز ذواتهم بينما فروض العين مسؤوليتها لا تتعدى ذات صاحبها.

(٢) هذا المفهوم لعلوم (فرض العين) ردده مع الغزالي كل من الفقهاء المربين: **الطوسي**، الزرنوجي، العلموي، ابن جماعة...

(٣) إذ اعتبره الفقهاء المربون منهجاً تعليمياً وتربوياً للناشئة.

وبتعبير آخر إن الإنسان بحكم الزمن المتغيّر والظروف المتقلبة ينتقل من حال إلى حال، ولكل حال ما يتوجب عليها من الأمور الدينية والحياتية؛ إما «فعل» وإما «ترك» قائمان على قاعدة إيمانية اعتقادية.

بهذا الموقف المتحد والموحد، تتحقق سعادة الإنسان في الدارين؛ حسن الحال في الدنيا وحسن المآل في الآخرة.

وبالرغم من الأخذ بهذا المفهوم «لعلم الحال» من قِبَل معظم الفقهاء كما سبق ذكره، فهناك تفاوت فى الدرجة، فنجد منهم من أدخل على «علم الحال» علوماً اعتبرها الغزالي من فروض الكفاية أو من النافلة، فأدخلوا مثلاً ضمن العلوم الشرعية:

اللغة والفقه وأصوله، وعلم الكلام والمنطق، والحساب، وغيرها من العلوم التي وجدوا فيها ضرورة لقيام أمور الدين؛ في الوقت الذي كان الغزالي قد اعتبرها خارج دائرة العلوم الشرعية، واعتبرها من علوم الدنيا التي فيها مضيعة العمر، كما فيها خيبة الظن[1].

وبالفعل، فقد حصل تطور في ذلك الميدان؛ فالعلوم التي اعتبرت لفترة غير شرعية، ولكنها ضرورية لقيام أمور الدنيا (الطب أو علم الأبدان، والحساب، والصناعة وغيرها). تطورت النظرة إليها فأصبحت من ضمن علوم الكفايات مما ترتب عليه وضع حدود لكل علم كي لا يخرج عن وظيفته الدينية ويبقى في إطار الشرع، فما كان من الغزالي إلا أن ينبرى ليضع لكل علم من هذه العلوم، **مقدمات ومتممات**، أصول وفروع كما أنه حدّد لها المقادير: **اختصار واقتصار واقتصاد**[2] وبكلمة؛ كان الدين والشرع عند الفقهاء المربين مقياس شرعية العلوم أو لا شرعيتها[3].

---

(١) انظر الرسم البياني ص (٣٨).

(٢) انظر، التفصيل، صفحة، ٥٣ ـ ٥٧.

(٣) علم النجوم والحساب مثلاً مطلوبان في الحدود التي تخدم الإنسان في دينه.

من هنا يمكن القول: إن المناهج «المقررات» التعليمية لدى الفقهاء يمكن تقسيمها مرحلتين:

ـ مرحلة ما قبل الغزالي، واقتصرت على تعليم وتعلّم ما هو «فرض عين» أي تعليم القرآن وعلومه وأحياناً الكتابة. إنها المرحلة الإلزامية لكل مسلم، وهو ما يقتضيه الشرع والعقل معاً.

عندما أخذت العلوم بالتوسع والتعدد في عهد الغزالي وما بعده، واتسعت دائرتها إلى ما هو علوم دينية ودنيوية شرعية وغير شرعية، جاء الغزالي مستبقا المزالق والمخاطر المحدقة بكل طالب علم أو عالم، بل بكل مسلم ليضع الحدود والمعايير، مرشداً العالم والمتعلّم إلى المستوى أو المقدار الذي يجيزه الشرع ويوجبه وتفرضه حاله وتسمح به مقدرته واستعداداته. ولا يسعنا إلا أن نشير هنا إلى أن العلوم الدنيوية بقيت في دائرة الحظر التي يجب أن لا تخلو من الحذر واليقظة والقيود والشروط[1].

وخلاصة القول إن علم «الحال» اسم آخر للتربية الفقهية، وهو العلم الذي يهدف إلى تحقيق حسن المآل أولاً وآخراً، كون حسن المآل له الأولوية العظمى والتي لم تناقش عند جميع الفقهاء المربين حيث كان حسن المآل هدفا أسمى وغاية قصوى تجلى في توحد العمل بالعلم؛ حيث تقتصر أعمال المرء واهتماماته على ما يحقق هذه الغاية القصوى.

مما ترتب عليه الدعوات إلى العلماء والمتعلمين على السواء منهم الفقهاء المربين، إلى عدم السعي وراء الرغبات الجسدية والدنيوية والاكتفاء بالضروري من المأكل والمشرب والملبس والمسكن، أي بالقدر الذي يحفظ قوام الجسد ليؤدي وظيفته تجاه الروح، والعمل للتزود بأكبر قدر ينفع في الآخرة، فكلّما كان الزاد أكبر كانت الآخرة أضمن، ولما دان حسن المآل المرتجى بالأعمال ولا

---

(١) للاستيضاح، انظر، الرسم البياني، صفحة ٣٨.

عمل بلا علم صار العلم والتعلّم والتعليم في التربية الفقهية ضرورات مطلقة لا شيء أشرف من الاشتغال بها، فهي أفضل الأعمال، والسعي إليها أفضل سعي، وبها تتحقق الغايات القصوى للإنسان.

رابعاً ـ آداب المتعلم وشروطه

طالب العلم، الذي يحدثنا عن الغزالي، ليس هو ذلك الطفل الذي لا يعي ولا يدرك، ويقع على الأهل والمعلم اختيار الطريق له وتقديم ما ينفعه[1]. إذ أن هذه المرحلة مسبوقة عند الغزالي بمرحلة اطلق عَليها مرحلة سياسة أو رياضة الصبيان. إنه الطالب البالغ الراشد، والذي أصبح مسؤولا عن بعض الواجبات الدينية التي تقع عليه موقع فرض العين. الطالب هو الإنسان الذي أصبح قادراً على اختيار الطريق، ومُدْرِكاً لما هو محمود، ووجب عليه السعيُ لذلك والجد في طلبه، كما أنه ذاك الذي يعي ما هو مذموم ليتركه ويطهر منه نفسه.. من هنا سنجد أن آداب المتعلم ووظائفه كما يراها الغزالي، تتناسب مع هذه النظرة للطالب وللعلم أيضاً الذي يفترض فيه العمل والنظر في آن فما هي الآن، تلك الآداب والشروط التي يشترطها في المتعلّم؟ إنها عشرة:

١ ـ تقديم طهارة النفس على رذائل الأخلاق ومذموم الصفات:

«بما أن العلم هو عبادة القلب وصلاة السر وقربة الباطن إلى الله»[2]، فعلى طالب العلم أن يطهّر نفسه من جميع ما يشوب قلبه ويعيق باطنه من القربى إلى خالقه. وإذا كانت الصلاة تفترض طهارة الجوارح ونظافتها، فإن العلم الذي «به تعمر القلوب» يلزمه تطهير هذه القلوب لتكون مستعدة لتقبّل ما تعمر به، ولأن العلم كما يراه الغزالي نور يقذفه الله في القلب بواسطة الملائكة، فإنه يوجب طهارة القلب لكي تقبل الملائكة الدخولَ إليه والتعامل معه.

---

(١) سنرى فيما بعد رياضة (تدريس، تعليم، سياسة) الصبيان عند الغزالي. انظر النص، ص ١٦١ ـ ١٧٣.

(٢) الاحياء.

٢ ـ التقليل ما أمكن من الاشتغال بالدنيا:

على المتعلم أن يعاني ويكابد ويجاهد، بل ويطلب منه «الابتعاد عن الأهل والوطن» لأن العلائقَ شاغلةٌ للقلب والنفس. وإذا انشغل القلب والنفس بغير العلم ضاع الجهد. ولم يتحقق الهدف. وإذن يكون على المتعلم أن «يعطي العلم كله، ليعطيه العلم بعضه».

٣ ـ أن لا يتكبّر على العلم ولا يتآمر على المعلم:

هنا يتحدد موقع المتعلم بالنسبة للعلم وللمعلم على السواء. يفترض الغزالي أن طالب العلم مريض وعليه «أن يلقي زمام أمره كليّة في كل تفصيل ويذعن لنصيحة المعلم الذي هو في موقع الطبيب المشفق الحاذق»[1]. كما ينبغي أن يكون على درجة من التواضع والأدب مع معلمه ليكون له الثواب والشرف في خدمته، ويلح الغزالي على أن الاستفادة المتوخاة من المعلم لا تتحقق إلا إذا تحقق الاحترام والتقدير للمعلم. وفي احترام المعلم يكون طالب العلم احترم نفسه بالذات وخدمها لأنه هو الذي يطلب الاهتداء إلى طريق الخلاص والهروب من الهلاك، ولا يتحقق له ذلك إلا بالعمل القائم على العلم والتعلم. وهنا يذكرنا الغزالي بقصة موسى والخضر[2]. فعندما أراد موسى أن يرافق الخضر ليتعلم منه اشترط عليه الخضر الطاعة والتسليم ودون الإكثار من الأسئلة. وهذا الشرط من جانب المعلم كان من قبل الحرص على ذهن المتعلم، وحتى لا تتشتت أفكاره.

---

(١) الاحياء، ج ١.

(٢) سار موسى مع الخضر الذي هو «العبد الصالح» بحسب ما ورد في سورة الكهف من القرآن الكريم علْمُ الخضر لدنيّ، أما علم موسى فبشري وأرضي ودون مستوى العلم الذي من لَدُن الله. وهكذا ثقب الخضر سفينة نقلته وموسى مما هدد حياتهما ثم قتل طفلاً، ثم بنى جداراً في مدينة رفض أهلها إطعامه هو ورفيقه. وفي الحالات الثلاث كان موسى يحتج، فيرد عليه الخضر «العبد الصالح» مُذكراً إياه بالشرط وبدونية المعرفة البشرية نسبة للمعرفة اللدنية. وأخيراً يشرح الخضر لموسى مغزى كل من الأعمال المذكورة. راجع ذلك في: القرآن، (سورة الكهف): الآيات ٦٠ ـ ٨٢.

٤ ـ على المبتدىء أن لا يخوض أو يصغي إلى اختلاف الناس:

لأن اختلاف الآراء وتناقضها إذا تعرض لها سماع المبتدىء وفكره، تؤدي به إلى الظن والتشكيك وعدم الثقة في المعلم. وفي ذلك «ما يُدهش عقله ويحير ذهنه، ويُفتر رأيه، ويؤيّسه عن الإدراك والاطلاع»(١). من أجل هذا يطلب الغزالي من المتعلم أن يسير منذ البداية بخطى ثابتة ووئيدة ليكون تعلمه أسرع، وجهده أقل هذا من ناحية، وخوفاً على إيمانه من الضعف والتخاذل من ناحية أخرى..

٥ ـ أن لا يدع طالب العلم فناً من العلوم المحمودة ولا نوعاً من أنواعها إلا وينظر فيه:

والسبب هنا هو أن العلوم «متعاونة وبعضها مرتبط ببعض». يتوجب على الطالب إذن أن يحصّل من كل علم طرفاً ومن كل فن لوناً، وحتى لا يكون جاهلاً تماماً في أي منها. وإذا أُعطي الطالب من العمر مدداً يستمر ويتابع التبحر بما يراه مفيداً منها لدينه وبما فيه خلاصه. «لأن العلوم جميعها إما سالكة إلى الله أو معينة على السلوك.. ولها منازل مرتبة في القرب والبعد عن المقصود.. لكل واحد رتبة، وله بحسب درجته أجر في الآخرة»(٢).

٦ ـ أن لا يخوض في فن دفعة واحدة ويراعي الترتيب، ويبتدىء بالأهم:

نظراً لأن العمر لا يتسع لجميع العلوم، لذا على طالب العلم أن يأخذ من كل علم أحسنه أو كما يسميها الإمام «شمّة» ومن ثم ينصرف كلياً إلى العلم الذي «هو أشرف العلوم وهو علم الآخرة.. لأن على الجملة أشرف العلوم وغايتها معرفة الله عز وجل. وهذا العلم بحر لا يدرك غوره.. وأقصى درجات

---

(١) الأحياء، انظر النص، ١٨٧.
(٢) الاحياء.

البشر في تحصيل هذا العلم هم الأنبياء ويتلوهم الأولياء[1].

٧ - أن لا يخوض في فن حتى يستوفي الفن الذي قبله:

يرى الغزالي «أن العلوم مرتبة ترتيباً ضرورياً وبعضها طريق إلى بعض» والطالب إذا راعى هذا الترتيب فإنه يصل إلى المقصود ويحقق الهدف. كما يشير على المتعلم أن لا يحكم على نجاح علم أو فساده من خلال العاملين به أو المشتغلين به، وإنما «ينبغي أن يعرف الشيء في نفسه، بصرف النظر عمن يشتغل به سواء أخطأ أو أصاب».

٨ - أن يعرف السبب الذي به يُدرك أشرف العلوم:

يساعد الغزالي المتعلم في اختيار المقاييس التي بموجبها تعرف أشرف العلوم. وذلك عن طريقين: أولاً ثمرة العلم، وثانيها: قوة الدليل ووثاقه، ولو أخذنا مثلاً علم الدين وعلم الطب، فلا شك أن علم الدين أشرف عند الغزالي لأنه يتناول الآخرة الباقية، أما علم الطب فإنه يتناول الدنيا الفانية والآخرة أولى وأشرف.

٩ - أن يكون قصد المتعلم في الحال تحلية باطنه وتجميله بالفضيلة:

طالما أن الهدف من التعلم هو ابتغاء حسن المآل، فإن ذلك لا يتحقق إلا بتطهير النفس والتحلي بالفضائل والأخلاق الحميدة، فيكون على الطالب قبل كل شيء الاهتمام بباطنه الذي هو أساس العمل وأصله. وذلك بأن يكون غرضه من التعلم حسن المآل بالآخرة، لا هدفاً دنيوياً كتحصيل المال أو الجاه.

ويستدرك الغزالي فينبّه طالب العلم إلى أن لا يستخلص من الثناء على علوم الآخرة، أن بعض العلوم يجب أن لا تُطلب. يجب عدم اغفال «علم الفتاوى والنحو واللغة وغير ذلك مما أوردناه، ولا تفهمن من غلونا في الثناء على

---

(١) المرجع السابق.

علم الآخرة تهجين هذه العلوم[1]. ان المتكلفين بالعلوم، كالمتكلفين بـالثغور والمرابطين بها والمجاهدين في سبيل الله، لكـل من هؤلاء دوره ووظيفته في الذود عن الدين والأهل. فكذلك هي أيضاً العلوم، علوم الـدنيا منهـا أو علوم الآخرة، لكل دورة ووظيفته التي يؤديها من أجل تحقيق حسن المآل.

١٠ ـ أن يعلم نسبة العلوم إلى المقصد:

على طالب العلم أن يدرك مقصده وهدفه[2]، ومن ثمة يختار العلم الذي هو الطريق إلى هذا المقصد. إذا كان مقصده الآخرة فلها علومها التي ذكرت. وإذا كانت غايته الدنيا فإن لهذه أيضاً علومها الخاصة بها.
والخلاصة يجب على طالب العلم أن يعرف مقصده ويختار العلم الذي يؤدي إلى هذا المقصد «كما يؤثر الرفيع القريب على البعيد، والمهم على غيره، ومعنى المهم ما يهمك، ولا يهمك إلا شأنك في الدنيا والآخرة»[3]. ويجب أن يكون المهم دوماً وأبداً هو ما يبقى إلى أبد الآبدين..

وهكذا نجد الغزالي في الشروط والآداب التي وضعها للمتعلم، لم يخرج عن الخط العام الذي نجده في التراث التربوي السابق عليه. وإذا اعتبرنا هذه من آداب المتعلم في درسه ومع نفسه، فإن هناك آداباً أخرى يجب أن يتحلى بها طالب العلم مع أستاذه ومع نفسه: كالاحترام الظاهر والباطن لأستاذه ويكون ذلك بالابتعاد عن مجادلته ومحاجته، ويتفرغ فكراً وقلباً لأستـاذه متى كان في حضرته. ويعمل الطالب كل ما يأمر به المعلم قدر الوسع والطاقة. وعليه أن يقتنع في الداخل بما اقتنع به في الظاهر، وإلا كان نفاقاً. كما عليه أن يُحرز نفسه من معاشرة أصحاب السوء.

خامساً ـ آداب المعلم وشروطه

يُقدِّم الإمام لهذا الموضوع بالمقارنة بين صاحب المال وصاحب العلم،

(١) النص، ص، ١٩٩.
(٢) نذكّر أن الغزالي يخاطب هنا الطالب (التلميذ في المراحل الدراسية المتقدمة).
(٣) النص، ص، ١٨٢.

إنهما مُكْتَسبان لأهداف، وليسا مطلوبين لذاتهما، يكون المال بالنسبة لصاحبه آما للاستفادة فيكون مكتسباً، أو للإدخار فيغني عن السؤال، أو للإنفاق على النفس للانتفاع به، أو للبذل ليكون فاضلاً وسخياً. وصاحب العلم بالنسبة لعلمه لا بد أن يكون كحال صاحب المال بالنسبة لماله وأعظم. ذلك أن «من عَلِمَ وعَمِلَ وعَلَّمَ فهو الذي يدعى عظيماً في ملكوت السماء»[1].

ويرى الغزالي أن العمل في التعليم هو أعظم من هذا وذاك نظراً للمسؤولية التي تترتب على المعلم. ولذا يضع للمعلم آداباً وشروطاً متلائمة مع تلك المسؤولية: ويذكر لنا من هذه الآداب والواجبات التي هي كالوظائف:

١ ـ الشفقة على المتعلمين:

يُعتبر المعلّم أكثر فضلاً على الولد من الوالد، فالوالد سبب الوجود في الحياة الزائلة، أما المعلم فسبب للوجود في الحياة الباقية الدائمة[2]. ولهذا فإن للمعلم مكانة أرفع من مكانة الأب وأعظم. وبالتالي يجب على المعلم أن ينظر إلى طلابه بالعطف والحنان والشفقة، ويهيىء لهم ما يوفر تلك الحياة الدائمة التي تضمن حسن المآل. أما إذا أشغل المعلم الطلاب بأمور الدنيا، فلا يكون عمله من الشفقة بشيء، وإنما العكس فهو اهلاك وهلاك[3].

٢ ـ أن يكون تعليمهم بدون مقابل:

وذلك اقتداء بصاحب الشرع الذي أخذ على عاتقه إهداء البشر إلى ما فيه خيرهم وخلاصهم، لا أجراً ولا جزاء ولا شكوراً، بل لوجه الله تعالى. فعلى المعلم إذن أن يقوم بالتعليم تفضيلاً وسخاء على من يحتاج أو يطلب، دون أن

---

(١) رسالة أيها الولد، النص، ص ٢٠٥ ـ ٢٢٤.
(٢) مقولة تربوية معروفة في الحضارات القديمة. شائعة في التربويات الإسلامية. شدد عليها اخوان الصفاء بشكل بارز.
(٣) عن اداب المعلم ووظائفه، انظر: النص، ص ١٧٤ ـ ١٨٠.

يتوقع أي مقابل لهذا العطاء. وإذا توقع مكافأة فلا يكون عمله لوجه الله. وهذه فكرة تربوية نجدها عند شتى الفقهاء، وكما تطال هذه المقولة المجال الديني تطال أيضاً العلوم الأخرى.

٣ ـ أن لا يدخّر في نصح المتعلم شيئاً:

يتطلب الموقف أعلاه من المعلم اسداء النصح والإرشاد للمتعلم كلما اقتضت الحاجة، ويتجلى ذلك باختيار العلم المناسب للطالب وبمنعه من التنصيب للمراكز غير المهيأ لها، وإرشاده عند الانحراف عن الأهداف التي من أجلها يطلب العلم، وهو وجه الله والقربى منه.

وهكذا يتوجب على المعلم أن يكون نصوحاً ومرشداً لتلميذه الذي يفترض به الغزالي أحياناً الانحراف أو السير في الطريق الذي لا يحقق الهدف الأسمى من العلم.

ولا يخفى على الغزالي أن بعض البواعث للتعلم مثل حب المال أو الجاه في الدنيا هي غير محمودة. هنا يوصي المعلّم بأن لا يُسقط هذه البواعث عند طالب العلم لأنها تبقى المحرك أو الحافز لاكتساب العلم وطلبه. «قد يتعظ بما يعطي منه، وكما أن الشهوة سبب لبقاء النسل، فأيضاً حب الجاه قد يكون سبباً لإحياء العلوم»[1].

٤ ـ زَجْرُ المتعلم عن سوء الخلق بطريق التعريض ما أمكن:

هنا نجده يقف موقفاً تربوياً ينم عن معرفة بنفسية المتعلم وبما يجب اتباعه معه من أساليب ملائمة في المعاملة بغية التجاوب مع ارشادات المعلم وتوجيهاته. وهكذا ينادي أبو حامد بطرق تعليمية صالحة مثل: التعريض وليس التصريح، الرحمة وليس التوبيخ «لأن التصريح يهتك حجاب الهيبة ويورث

(١) الاحياء، ج ١، ص ٩٥.

الجرأة على الهجوم بالخلاف، ويهيج على الإصرار»[1]. واتباع هذه الطرق هي عند الغزالي، «من دقائق صناعة التعليم».

٥ ـ أنْ لا يُفرض على الطالب اتجاه المعلم وميله:

رأى الغزالي أن من عادة بعض معلمي الفقه تقبيح علم اللغة أو العكس، وأن بعض علماء الكلام ينفّرون من علماء الفقه. وهكذا فإن كل عالم ينظر إلى علمه على أنه الأفضل والمحقق للخلاص والهدف الأسمى. هذه المواقف المنحازة لا يجيزها الغزالي للمعلم، كما أن هذا من «شأن العجائز ولا نظر للعقل فيه.. وهذه أخلاق مذمومة للمعلمين يجب أن تجتنب»[2].

ـ أنْ يتعامل مع المتعلم على قدر فهمه:

وهذا موقف تعليمي آخر يتوقف عنده الغزالي حتى لا «ينفِّر المتعلم ويخبط عليه عقله» ويكون ذلك اقتداء بالنبي واستناداً إلى القول: «كِلْ لكل عبد بمعيار عقله، وزن له بميزان فهمه حتى تسلم منه وينتفع منك». إذ ليس الهدف كثرة التعلم والسير به بسرعة، إنما هو الاستيعاب وكي لا يكون الانتقال من فن إلى فن، أو من موضوع إلى موضوع، إلا بعد فهم وإتقان لما سبقه.

٧ ـ التعاملُ مع المتعلّم بجلاء ووضوح:

إذا لم يتوفر شرط الإقناع والوضوح في العلوم التي تعطى للمتعلم، وإذا لم تقدّم على أنها كاملة ومحققة لهدفها، فسيكون فيها ما «يفتر رغبة المتعلم في الجلي، ويشوش عليه قلبه، ويوهم بالبخل به عنه» لأن الطالب نفسه ينظر إلى فهمه وعقله بأنه مكتمل وقادر على استيعاب كل ما يُلقى إليه أو يعرض عليه: «فما من أحد إلا وهو راض عن الله سبحانه في كمال عقله، وأشدهم حماقة

---

(١) م.ع. ج ١، ص ٩٥.

(٢) م. ع. ج ١، ٩٥. انظر النصوص المثبتة في هذا الكتاب، قسم، العلم وفضله ص، ٨٣ ـ ١٠٤.

وأخفهم عقلاً هو أفرحهم بكمال عقله»[1].

٨ ـ أنْ يكون المعلّم عاملاً بعلمه:

انتبه إلى هذا الشرط التربوي معظم إن لم نقل جميع من تناولوا الأمور التربوية والتعليمية قالوا به: فمن البديهي أن يكون المعلم قدوة، ومن الطبيعي أن يقلد المتعلم المعلم. ومن ناحية أخرى ففي حال منع الطلاب من أشياء وقيام المعلم بها يقول هؤلاء: «لولا أنه أطيب الأشياء وألذها لما كان يستأثر به». «ومثال المعلم المرشد من المسترشدين مثل النقش في الطين والظل من العود، فكيف ينقش الطين بما لا نقش فيه، ومتى استوى الظل والعود أعوج؟»[2].

والمعلم عند الغزالي أيضاً هو المخوَّل بإزالة الأخلاق السيئة واستبدالها بأخلاق حميدة ليضع المتعلم على طريق الخلاص المؤدية إلى الله سبحانه[3]، وهو ينظر للمعلمين وللعلماء على أنهم خلفاء للأنبياء يرشدون البشر ويهدونهم إلى ما فيه خيرهم في الآخرة، وهناك بالإضافة لما ذكره في «احياء علوم الدين» من آداب وشرائط وعلاقة مع المتعلم، هناك شروط أخرى مذكورة في رسالة «أيها الولد» فعلى المعلم أن يتحلى بالصبر والشكر والتوكل والقناعة والطمأنينة والحلم والتواضع. والوقار والسكوت[4] ليكون نوراً من أنوار النبي ﷺ ليقتدى به. وهؤلاء قلة ووجودهم نادر وأعز من الكبريت الأحمر[5]. لذا نراه يغبط كل طالب حظي بمعلم توفرت فيه هذه الآداب والشروط ويحثه على احترامه: «ومن ساعدته السعادة فوجد شيخاً كما ذكرنا وقبله الشيخ، ينبغي أن يحترمه ظاهراً وباطناً»[6].

---

(١) الاحياء، ج ١، ص ٩٧.
(٢) م. ع. ص ٩٨.
(٣) أيها الولد، ص ٢٠٥ ـ ٢٢٤.
(٤) قا: الزرنوجي، الطوسي، القابسي، زين الدين بن أحمد العاملي، الخ.
(٥) الغزالي، أيها الولد.
(٦) أيها الولد.

سادساً ـ المنهجية التعليمية والتربوية

أولاً: سنحاول في الحديث عن المنهجية التعليمية والتربوية أن نفصل بين قسميها: المناهج والمقررات الدراسية من جهة، والطريقة والأسلوب التربوي من جهة أخرى، كما سنتناول موضوع التربية الدينية على حدة.

عند استعراضنا لتقسيم العلوم عند الغزالي، وجدناه قد خَلُص إلى قسمين أساسيين من العلوم هما: ما هو فرض عين، وما هو فرض كفاية. هنا يتدرج بهما المتعلم حسب الأولوية والأفضلية، مبتدئاً بما هو فرض عين أي تعلم ما يحتاجه حسب الحال التي بها، لينتقل من ثمة إلى العلوم التي هي عبارة عن آلات لغيرها أي علوم الكفاية. وهكذا فإن هذا التقسيم يهدف إلى عدم شغل الطالب بما لا مصلحة به، ليكون جهده منصباً كله على العلوم التي تخدم دينه وآخرته حيث بها خلاصه وحسن مآله... إنها المرحلة الإلزامية التي لا غنى لمسلم عنها.

وسبق الإلماح إلى أن الغزالي يرى أن علوم المعاملة متمم بعضها البعض، وأن كل علم يخدم الآخر من قريب أو بعيد. لهذا نجده يضع لطالب العلم منهجاً للتحصيل، ليكون أبداً العمل الصالح الذي يخدم الآخرة هدفاً. ولما كان كل علم يرتبط بغيره أو يخدم علماً آخر. لذلك يوصي الغزالي بالتدرج في تحصيل العلوم. فيكون على الطالب أن يبدأ بما هو فرض عين، أي «العلم بكيفية العمل الواجب» والذي يلخصه بقوله: «فمتى علم العلم الواجب ووقت وجوبه فقد علم العلم الذي هو فرض عين، وطهر نفسه وأصبحت قادرة على ترك ظاهر الإثم وباطنه وصار ذلك ديدنا لها وعادة متيسرة. ثم يقول للطالب «فاشتغل بفروض الكفايات وراع التدرج فيها» كيف يكون ذلك التدرج؟

أ ـ البدء بتعلم القرآن: تعلم القرآن، وعن طريقه يتم تعلم العلوم القرآنية الأخرى مثل: «التفسير والقراءات والناسخ والمنسوخ والمفصول والموصول، والمحكم والمتشابه». لأنه كان يرى كما ذكرنا أن العلم والعمل صنوان لا يفترقان، ولم يستطع كاتبنا أن يتصور علماً بدون عمل، أو عملاً بدون

علم. والقرآن، هو خير علم يفضي إلى العمل الذي هو الزاد الوحيد للآخرة.

ب - **تعلم السُّنَّة**: والسنة من العلوم الشرعية المستفادة من الأنبياء ولا يرشد العقل إليها، كما يرشد إلى الحساب والطب، ولا السماع مثلما هو الأمر في اللغة. هنا يفترض حجة الإسلام أن المبتدىء قادر على تحصيل العلميْن المذكورين (القرآن، ثم السنة) دون أن يحتاج إلى تفكر أو تجربة أو تلقين. وهذان العلمان هما الأساس والمنبع للأعمال المقبولة من الله والتي تؤدي إلى القربى منه.

ج - **الإشتغال بالفروع**: يجيز الغزالي الاشتغال بالفروع لمذهب معين دون النظر في الخلاف. وذلك ليكون عمل الطالب مطابقاً لعلمه.

د - **ثم بأصول الفقه**: رأينا أن الغزالي نظر للفقه إلى أنه من علوم الدنيا كالطب «لأن سلطته على الظواهر ولا تتعداه إلى الباطن»[1]. ويذكرنا الغزالي دائماً بالمحاذير والمزالق التي قد يؤدي إليها علم الفقه والكلام والمناظرة بهما.

وهكذا يتدرج الغزالي مع طالب العلم فيدعو أولاً إلى تعلم الأصول في العلوم الشرعية التي هي الكتاب والسنة وآثار الصحابة، ثم إلى تعلم الفروع وهي ما يُفهم من الأصول ليس حسب الألفاظ بل حسب المعاني وحسب ما يتسع به الفهم»[2]، ثم إلى علوم الدنيا مثل الفقه والطب واللغة ومتفرعاتها التي هي آلات وأدوات لغيرها.

وبما أن العلم كثير والعمر قصير فإن الغزالي يضع لطالب العلم حدوداً ومقادير عليه تحصيلها من كل علم أو من كل فن. وهكذا ينصح الطالب قائلاً: «لا تستغرق كامل عمرك في فن واحد منها طلباً للاستقصاء، فإن العلم كثير والعمر قصير»، «وهذه العلوم آلات ومقدمات وليست مطلوبة لعينها بل لغيرها»[3]. كما يرشده إلى المقدار الكافي من كل علم من هذه العلوم فما من

---

(١) الإحياء، ج ١، ص ٣٠.
(٢) م. ع.، ج ١، ص ٣٩.
(٣) الاحياء، ج ١، ص ٦٧.

علم «إلا وله اختصار واقتصاد واستقصاء». وعلى ذلك فإن الغزالي يقرر تعلم ما يلي:

١ - **من اللغة**: يوصي الطالب قائلاً: «فاختصر من شائع علم اللغة على ما تفهم من كلام العرب وتنطق به، ومن غريبه على غريب القرآن، وغريب الحديث. واقتصر من النحو على ما يتعلق بالكتاب والسنة.

٢ - **من التفسير**: ما بلغ ضعف القرآن في المقدار. وهنا يشير إلى تفسير النيسابوري الوجيز أو الوسيط.

٣ - **من الحديث**: الاقتصاد فيه على تحصيل ما في الصحيحين مسلم والبخاري.

٤ - **حفظ أسماء الرجال**: وهذا ما تحمله كتب مناقب بعض الرجال، فارجع إليها وعوّل على كتبهم.

٥ - **من الفقه**: في حالة الاختصار يكفي منه ما يحويه مختصر المزني، فأما الاقتصاد فيه «ما يبلغ ثلاثة أمثاله»، وأما الاستقصاء «ما أوردناه في الوسيط من المذهب وما وراء ذلك من المطولات».

٦ - **من الكلام**: الاقتصاد فيه بما يضمن للمرء حماية معتقداته[1]. أما الاقتصار فهو «ما يحتاجه المرء لمناظرة مبتدع ومعارضة بدعته بما يفسرها وينزعها من قلب العامّي»[2].

٧ - **الخلافيات**: يرى الغزالي أن هذا النوع من العلوم استحدثت في العصور المتأخرة، وما جاء فيها من تحريرات وتصنيفات، وهي بدع، ولم يعهد مثلها عند السلف. يحذّر طالب العلم منها بقوله: «إياك وأن تحوم حولها واجتنبها اجتناب السم القاتل فإنها الداءالعضال»[3].

---

(١) انظر الغزالي: قواعد العقائد، والاقتصاد في الاعتقاد.
(٢) الأحياء، ج ١، ص ٦٨، انظر أيضاً رأيه في علم الكلام، ج ١، ص ١٦٣ - ١٧١.
(٣) الاحياء، ج ١، ص ٦٩.

هذا هو المنهج الذي يضعه الغزالي للمتعلم، ويرشده إلى التدرج فيه مسنجماً فيه مع ما أراده من المتعلم من علم وعمل في آن واحد من ناحية، ومراعياً الشمول بالأخذ من كل فن «شمّة» وحسب الحاجة في حال «الاقتصار» من ناحية أخرى.

٨ ـ **التعلم المستمر**: وإذا اعطى الله في عمر المرء فسحة فإنه ينتقل إلى مرحلة جديدة تقتضيها حاله وهي مرحلة «الاقتصاد» في كل علم حسب الحاجة ليكون عوناً له في المرحلة الجديدة. وبعد ذلك، في المرحلة الأخيرة، ينتقل إلى المرحلة القصوى أي «الاستقصاء»، وهي درك أغوار العلم لمن وهبه الله العمر والقابلية. إنها حالة من التعلم المستمر والمتواصل لمن أمد الله في عمره ووهبه الاستعداد والإمكانية.

ثانياً: الأسلوب التربوي (التأديب):

وإن كنا قد استطعنا أن نعرض المنهج التعليمي عند الغزالي بمنأى عن طرقه التربوية، فإن هذا لا يعني أنهما مستقلان عن بعضهما. من الواضح أن المنهج والأسلوب عند المربين متجانسان ومتكاملان، وكل منهما يتمم الآخر. وسنجد عند الإمام الغزالي ما يؤكد ذلك من خلال عرضنا لطرقه التربوية والتأديبية.

قضية التأديب وزرع الأخلاق كأساس ومنطلق لكل تأديب وتربية:

تبدأ هذه المرحلة منذ الأيام الأولى للصبي. ويعطي الغزالي لهذه المرحلة من عمر الصبي أهميتها، فيوصي بأن «لا يستعمل في حضانته وإرضاعه إلا امرأة صالحة متدينة، تأكل الحلال»[1] لأن اللبن الحاصل من الحرام لا بركة فيه، وإذا نشأ الصبي عليه «انعجنت طينته» مع الخبث، مما يدعو للخوف عليه من أن يميل طبعه إلى الخبث. هنا نرى الغزالي ينطلق من مبادىء هي:

أن رياضة الصبيان من أهم الأمور وأوكدها، وأن الطفل يخرج إلى الحياة بقلب خال من كل نقش وصورة، وهو قابل لكل نقش، أي أن جوهره قابل للخير

---

(١) الاحياء، ج ٨، ص ١٤٦٨.

كما هو قابل للشر[1]. من هنا كان لزاماً على والديه أن يأخذاه بعنايتهما ورعايتهما منذ أيامه الأولى. وذلك حرصاً عليه من كل ما قد ينقش في قلبه من أخلاق مذمومة، وعادات مكروهة وسلوكيات مهلكة، ومن أجل صيانته من نار الدنيا والآخرة على السواء.

والآن كيف يتدرج الغزالي مع الصبي في صيانة أخلاقه من هجوم العادات القبيحة والأخلاق الذميمة، وكيف يوفر له النشأة التي تضمن له السعادة في الدنيا وتقيه من نار الآخرة. إنها تربية وقائية، ويكون ذلك على الوجه التالي:

حسن المراقبة: وهذا من أول أيامه مع المرضعة كما ذكرنا. وتستمر المراقبة حتى تبرز عنده «مخايل التمييز» ويتجلى ذلك بظهور أوائل الحياء «فإنه إذا كان يحتشم ويستحي ويترك بعض الأفعال فليس ذلك إلا لإشراق نور العقل عليه»[2]. يعني هذا، عند الغزالي، أن الصبي بدأ يميز بعض الأشياء ومخالفتها لبعضها البعض، وتغيرها، وهذا ما يدل على صفاء القلب والاعتدال في الأخلاق. فينصح الأهل عند ظهور هذه الحالة باستغلالها أي الاستعانة بها على «تأديبه بحيائه وتمييزه».

ب ـ الاستفادة من الصفات الطبيعية التي تظهر عليه وتأديبه بواسطتها:

يشير الإمام الغزالي إلى ظهور بعض الصفات منذ البداية على الصبي وعلى رأسها «شره الطعام». وهذه الصفة يتمنى الغزالي على المؤدب أن يوجهها الوجهة الطبيعية لها، وذلك بأن يعلمه آداب الطعام والسلوك السليم والاعتدال والتنظيم ويكون ذلك قولاً وفعلاً: فعلاً بالممارسة والتعود، وقولاً في تقبيح كثرة

---

(١) هنا نجد مفهوم الفطرة عند الغزالي كالتالي؛ فهو يقول، مثلاً:
(أ) كل آدمي فطر على الإيمان بالله، بل على معرفة الأشياء على ما هي عليه.
(ب) يجد الإنسان نفسه منذ الصبا مفطوراً عليها...
(ج) فكذلك كل مولود يولد معتدلاً صحيح الفطرة...، بالاعتياد والتعلم تكتسب الرذائل. هذه النصوص للغزالي مأخوذة عن: د. فريد جبر في معجم الغزالي، بيروت، منشورات الجامعة اللبنانية، ١٩٧٠، ص ٢٢٢ ـ ٢٢٣.

(٢) الإحياء، ج ٨، ص ١٤٦٨.

الأكل عنده بأن يشبّه كل من يكثر الأكل بالبهائم، وذم من يكثر الأكل، ومدح الصبي المتأدب القليل الأكل[1]. ويتبع الغزالي مع الصبي المنهج نفسه الذي قال به إزاء الطعام، إذ يوصي بالاعتدال في كل أمر أو حالة تظهر عنده كعدم التزين، وبمنعه عن الصبيان الذين تعودوا التنعم والرفاهية والمباهاة.

ج ـ **في الكتّاب**: يلاحق الغزالي الصبي في الكتّاب قبل بلوغ الحُلُم وقبل التكليف. حيث يتعلم القرآن والأحاديث والأخبار، وحكايات الأبرار «لينغرس في نفسه حب الصالحين». وفي الوقت نفسه يجب أن يُمنع عن حفظ الأشعار التي يذكر فيها الفسق. كما يُحفظ عن مخالطة من يزعمون انهم ظرفاء ويتصفون برقة الطباع «لأن هذا يغرس في قلوب الصبيان بذور الفساد»[2].

د ـ **الثواب والعقاب**: تشجيع الأفعال المحمودة التي تصدر عن الصبي بالتكريم ومجازاته بما يفرح به الصبي، ويُمدح بين الناس، وذلك لتدعيم وتثبيت تلك الأفعال لتصبح عادة وسلوكاً وديدناً. أما في حال المخالفة فإن الغزالي يقف أيضاً موقفاً تربوياً سليماً معبراً عن إدراك عميق لنفس الطفل وما تنطوي عليه: نراه يختار لكل مخالفة ما يتناسب مع أهميتها من عقوبة. فإذا كانت المخالفة لأول مرة يشير الغزالي على المؤدب بالتغافل عنه. وعدم هتك سره ومكاشفته، خاصة إذا ستر الصبي المخالفة واجتهد في إخفائها. ويجب اتباع هذا المبدأ كي لا يتشجع الصبي على الجسارة بالمخالفة، ويصبح غير مبال بالمكاشفة. وفي حال تكرار المخالفة «ينبغي أن يعاقب سراً ويعظَّم الأمر فيه، ويقال له إياك أن تعود لمثل هذا. . . ولا تكثر القول عليه بالعتاب في كل حين»[3]. وذلك كي لا يهون عليه سماع الملامة، وركوب القبائح، ويسقط وقع الكلام من قلبه. وكي تقوم هيبة الأب كرادع ومؤدب للولد، يطلب الغزالي من الأب أن يحافظ على هيبة كلامه مع ابنه، وأن لا يوبخه إلا أحياناً، كما أن على الأم أن تخوّفه من الأب وتزجره عن القبح.

---

(١) الإحياء، ج ٨، ص ١٤٦٩.

(٢) م. ع. ص ١٤٦٩.

(٣) الإحياء، ج ٨، ص ١٤٦٩.

هـ - تربية بعض القيم والمعايير[1]: ونذكر هنا بعض ما أشار إليه الغزالي من القيم والمعايير على سبيل المثال وليس الحصر، بما يطال التربية الجسدية والنفسية والخلقية: تعويده الخشونة في المفرش والملبس والمسكن، والمشي في النهار كي لا يتعود الكسل، والنوم فقط بالليل، تقبيح المفاخرة على الأقران والأصحاب، والتعود على العطاء وليس الأخذ. وينبغي تعليمه آداب المجالسة والمحادثة والكلام، وحسن الإستماع، والصبر على الألم. كما يجدر السماح له باللعب الجميل بعد الكتّاب، «لأن إرهاقه بالتعلم دائماً يميت قلبه، ويبطل ذكاءه وينغّص عليه العيش حتى يطلب الحيلة في الخلاص منه.». وعلينا أن نغرس فيه احترام الآخرين وتوقيرهم. وذاك كله بالطبع دون إغفال الأمور الدينية والتي هي المبدأ والفرض مثل: تعليم الطهارة والصلاة والصوم أحياناً، وبعض حدود الشرع التي يحتاجها، وردعه عن الأخلاق الذميمة والمحرمات كالسرقة والكذب والخيانة والغش.

ثالثاً: التربية الدينية وتعليم العقيدة:

يرى الغزالي أن العقيدة يجب أن تُقدَّم للصبي منذ نشوئه، ويكون تقديمها «بالحفظ والتلقين والاعتقاد والتصديق، وذلك ما يحصل للصبي بغير برهان»[2] لأنه كان يعتقد أن قلب الصبي بإرادة من الله مهيأ للإيمان من غير برهان أو حجج، وينمو معه هذا الإيمان ويتطور ليتكشّف له معناه في كبره شيئاً فشيئاً.

ولا شك أن التهيئة النفسية والخلقية التي تربى عليها «صبي الغزالي» في المرحلة التي ذكرنا ستكون عاملاً مساعداً ومهيئاً لتقبل الإيمان ولو بمجرد التقليد كما يرى الغزالي. بالرغم من اعترافه بضعف هذا النوع من الإيمان الذي «لا بد من تقويته وتثبيته». أما طرق التقوية والتثبيت التي يراها الغزالي فهي:

---

(١) الإحياء، ج ٨، ص ١٤٧٠ - ١٤٧١.

(٢) الإحياء، ج ١، ص ١٦١.

١ " - أوصى المربي بحفظ سماع الولد عن الجدال والكلام الذي لا طائل فيه «لأن ما يفسده الجدل أكثر مما يصلحه». لذا نجد في المنهج الذي وضعه للمتعلم تلاوة القرآن، والعمل بالتفسير والأحاديث، والشغل بالعبادات خير وسيلة لتقوية هذا الإيمان وتثبيته، ثم ان أدلة القرآن وحججه وشواهد الأحاديث وفوائدها، ونور العبادات ووظائفها خير معين على تثبيت العقيدة[1].

٢ " - وإذا كان التلقين الأولي والاتباع الفطري للعقيدة بمثابة البذرة الأولى، فإن ما يقدم لها من مُعينات وحماية وتثبيت، هو بمثابة التربية والرعاية لها، لكي تنمو وتثمر.

رأينا الغزالي يوصي بالشفقة والعطف على المتعلمين، وبالنظر إليهم على أنهم مرضى يحتاجون إلى طبيب، وباعتبار المعلم أباً روحياً لهم.

كما رأيناه أيضاً ينبِّه إلى أهمية وضرورة اشاعة المساواة في تعامل المربي مع طلابه. ودون أن نكرر هنا جميع الطرائق التي رآها ملائمة مع نفسية وعمر الصبي من ناحية وحاجاته واستعداداته من ناحية أخرى من أجل العملية التربوية، فإننا نكتفي بالتوقف عند بعض اللفتات التربوية التي ما تزال صائبة أو التي تعبّر عن فكر تربوي متأصل وبعد نظر:

١ - التأديب بالتلميح وليس بالتصريح وبغض النظر عن الأغلاط التافهة والتظاهر بعدم ملاحظتها: رأيناه يحرص كل الحرص على احترام شخصية المتعلم ويسمح للمعلم بالتغاضي عن الهفوات البسيطة[2]، فلا يهتك ستر الصبي أو يعنّفه أو يزجره أمام الآخرين، بل يحاول قدر الإمكان أن يكون ذلك بالتعريض والتلميح دون التصريح. ولا يخفى ما يترتب على كلا الأسلوبين من نتائج سلبية في الحالة الأولى وإيجابية في الحالة الثانية. إذ يرى أن للتعريض بالإضافة إلى دوره الإيجابي في العملية التربوية، دوراً تعليمياً أيضاً. «فإن التعريض يميل النفوس الفاضلة والأذهان الذكية إلى استنباط معانيه فيفيد فرح

---

(١) أيها الولد، ص ٢٠٥ - ٢٢٤.

(٢) يوصي المربي والمحلل النفساني المعاصر الفرد آدلر (Adler) بمثل ذلك. وهذا مبدأ تربوي أشار إليه كثرة من أسلافنا.

التفطن لمعناه رغبة في العلم به، ليعلم أن ذلك لا يغرب عن فطنته»[1]. بهذا يكون قد ترك للمتعلم فرصة للتفكير وإشغال الذهن من أجل الاستنباط والاستنتاج، فيجد لذة ومتعة في ذلك، فيعتاده ويصبح ديدناً له.

٢ - **التوسيع على المتعلم في طلب العلوم**: واجب المعلم أن لا يضيّق على المتعلّم مجالات التحصيل في شتى فنون العلم، بل بالعكس على المعلم أن يقدّم العون في طلب العلوم التي لا يتقنها هو: «المتكفل بعلم واحد ينبغي أن يوسّع على المتعلم طريق التعلم في غيره».

٣ - **مراعاة القدرات الفردية للمتعلم**: كان الغزالي يعرف حق المعرفة أن المتعلمين ليسوا متساوين في مقدراتهم الفكرية وفي قابليتهم للتعلم. فلكل متعلم قدر معين من الفهم، وعلى المعلم أن يعرف هذا المقدار ويسير بمقتضاه «فلا يلقي إليه ما لا يبلغه عقله فينفره أو يخبط عليه عقله»، كما أن على المعلم أن لا يشعر الطالب بأنه يخفي عليه شيئاً من الحقائق ويمنعها عنه، كي لا ينفّر رغبته ويشوش عليه قلبه.

٤ - **الحوافز والدوافع**: اسلوب الترغيب والترهيب من الأساليب الشائعة والمعتمدة في التراث. لكن هذه «العقوبات» المعنوية لم تمنع الأخذ بأساليب أخرى كالثواب والعقاب الماديين[2]، فالجميع تقريباً أوْصوا بالثواب والعقاب المعنويين دون الماديين لأثرهما العميق وفاعليتهما الإيجابية حرصاً منهم على البناء السليم لشخصية المتعلم.

طريقته في الوعظ والإرشاد:

وإذا كان الوعظ والإرشاد من الوسائل التربوية والتعليمية، فإن للغزالي رأيه الخاص بهما كما له أسلوبه وطريقته، ليتركا أثرهما في السامع ويحققا غرضهما. في هذا المجال نجده يوصي بالاحتزاز من خصلتين:

---

(١) الإحياء، ج ١، ص ٩٦.

(٢) قا: ابن سحنون والقابسي.

الأولى: التكلف في الكلام بالعبارات والإشارات والأشعار وغيرها، بل يطلب من المرشد والواعظ آن يتناول الموضوع مباشرة دون حاجة إلى الصياغة الكلامية والحذاقة اللفظية، كي لا يبعد المستمع بفكره عن الموضوع الأساسي، وعليه أن يلجأ إلى الترهيب عن طريق التذكير بما هم فيه من ضلالة وما هم مقدمون عليه من عذاب، «لتمس حرارة هذه النيران أهل المجلس وتجزعهم تلك المصائب، ليتداركوا العمر الماضي بقدر الطاقة، ويتحسروا على الأيام الخالية من غير طاعة الله»[1]. ويكون موقف الواعظ المرشد كالسيل الجارف القريب الوصول إلى كل من في المجلس، فما عليهم سوى المسارعة ليتدبر كل منهم أمره ونفسه، ويسلك طريق الخلاص بالتفكير السريع المنجي، وليس في هذا الموقف كما يرى الغزالي حاجة إلى التأنق والتصنع بالألفاظ والعبارات.

الثانية: أن لا تكون غايتك من المجلس أن تُظهر التعاطف والانفعال لما تقول أو لما تدعو إليه. فلست هذه غاية الواعظ. وإنما غايته هي دعوة الناس من الدنيا إلى الآخرة ومن المعصية إلى الطاعة، ومن الحرص إلى الزهد. في هذا الأسلوب المرغب المرهب، الملح والمباشر، يرى الغزالى خير طريقة لدعوة الناس إلى ما يريده الواعظ منهم ليبادروا فوراً إلى ما يدعوهم إليه، حيث منجاتهم وخلاصهم، دون ما حاجة أو فرصة للتأمل والتفكر[2].

* * *

سابعاً ـ خلاصة ومحاكمة

تظهر نقطة رئيسية في مذهب تكوين الإنسان عند الغزالي: أنه يجعل من التفكير والتأمل أساساً للمعرفة. «فقد ظهر أنه لا وصول إلى سعادة لقاء الله في الآخرة إلا بتحصيل محبته، والأنس به في الدنيا. ولا تحصل المحبة إلا

---

(١) ايها الولد، ص ٢٠٥ ـ ٤٢٤.

(٢) لا شك أن الغزالي هنا قد تنبه إلى أسلوب الخطابة في الجماهير حيث يلزم الإيحاء والانفعال أكثر من الإقناع والمناقشة أو المحاكمات العقلية.

بالمعرفة، ولا تحصل المعرفة إلا بدوام الفكر»[1]. فأهمية التفكير، وأولوية التأمل، دعامتان في التربية الغزالية: بالفكر يكون التبصر والفهم، وهو النور الذي يكشف المجهول، ومن جهة أخرى «أن الفكر مفتاح الأنوار ومبدأ الاستبصار، وهو شبكة العلوم ومصيدة المعارف والفهوم»[2].

ولا نغفل أيضاً الدعوة الغزالية للتعلم الموسوعي الذي لا يتوقف. ان مذهبه هو دعوة للتعلم الشمولي وعدم مضيعة العمر والوقت لأن «العلوم كثيرة والعمر قصير» ومذهبه يجعل العلم أصلاً للأمور جميعها، لهذا كانت دعوته المباشرة للإستمرار بالتحصيل دون توقف حتى آخر العمر. فإن تلك النظرية التربوية هي دعوة للتفكير من أجل التقرب من الله والأنس به، بالإضافة لاعتبارالفكر على أنه النور والشبكة والمصيدة.

يرتبط الفكر التربوي عند الغزالي ارتباطاً شديداً بالفقه. فقد رأى التربية قسماً من الدين، وعملاً من أعمال الدين، وهدفاً دينياً. كان النقل هو المحدد لآراء الغزالي، وكان تثبيت النقل هو أعلى أهداف التربية، أما غرس الدين في النفوس للفوز برضى الله، انها غاية ما يصبو إليه الغزالي من المتعلم، ومن المعلم، ومن الأهل ومن العلم عينه على السواء.

وبكلمة، ان الحفاظ على الإيمان وتثبيته في النفوس هو الغاية القصوى في العملية التربوية عند الغزالي.

وتظهر التربية عند الغزالي موجهة لا إلى الصبية فقط، بل إلى الإنسان العادي أيضاً في كل مراحل عمره، إلا أن من الواضح في تلك التربية كونها صوفية الطابع. ان قسماً كبيراً منها موجّه للمريد أو للسالك، والعبادات والأذكار والشعائر الدينية وسائل ضرورية للتزود للآخرة ولبناء النفس التي تعمل في الدنيا من أجل الآخرة.

هنا نستطيع أن نستخلص، مما سبق، أن التربية عند الغزالي برغماتية،

---

(١) الإحياء، ج ١٣، ص ٢٥٢٠.

(٢) الإحياء، ج ١٥، ص ٢٧٩٣.

ولكن برغماتية جون ديوي، لتعلم وعمل ما ينفع المرء في حياته ودنياه إنها برغماتية من نوع آخر، تعلم وعمل ما ينفع المرء ويخدم دينه وآخرته ليس إلا. إنها دعوة لاكتساب الآخرة أو موجهة للعالم الآخر أو عالم ما بعد الموت وعالم الأمر وما بعده أكثر مما هي مهتمة بأمور الدنيا وعالم الخلق[1]. إن الموت، كما يقول الغزالي، متربص بالإنسان في كل لحظة لينقله من دار الفناء إلى دار البقاء حيث لا ينفع المرء هناك إلا عمله الصالح. تربية لها منطلقاتها الدينية، وأغراضها الآخروية، ومنهجها الزهدي التصوفي.

ووفق تلك النظرة الشمولية والواضحة للتربية اختار الغزالي مقرراته الدراسية وطرقه وأساليبه ومنهجيته.

لقد كان هدف أبي حامد المحافظة على معتقدات العامة إزاء الفلسفة وعلى الإيمان ضد البدع، وعلى السنّة ضد الفرق المناوئة. لذا كانت تربيته سلفية.

وكانت تربيته تعتبر الفرد قاصراً عن اختيار ما يحقق خلاصه في الدنيا والآخرة، قدم للطالب ما قالته الأخبار والأحاديث وما تناقلته الأسماع والروايات.

وكانت تربيته تقوم على التلقين وعدم الانفتاح. إنها تقيد الفرد وتوجهه وتربطه بما قيل. إنها تربية محافظة ومرتبطة بالعقلية الخبرية[2].

---

(١) عالم الخلق وعالم الأمر عند الغزالي.

(٢) عن العقلية الخبرية عند الغزالي، راجع: بعض كتابات فريد جبر بالفرنسية. وقد رد كثيرون على تلك الكتابات بالرفض الموثق والمدعم.

الفصل الثالث

من النظر إلى التطبيق

١ ـ نظرة ملخصة على العلم والتعلم والتعليم عند الغزالي.

٢ ـ آراء الغزالي التربوية في كتاب «ميزان العمل».

٣ ـ الآدابية أو التعاملية الناجحة.

١ ـ نظرة ملخَّصة على العلم والتعلم والتعليم عند الغزالي في كتاب الاحياء:

من المعروف أن آراء الغزالي في التربية والتعليم وردت في «إحياء علوم الدين». ففي هذا السِّفْر خصص أبو حامد كتاباً خاصاً للعلم. حيث نلقى الموضوعات التي تمثل الدعائم أو البنى الأساسية لنظرية الغزالي في العملية التربوية ونقل الثقافة وتطوير العلم وبناء الإنسان وهي:

الباب الأول: في فضل العلم والتعليم والتعلم.

الباب الثاني: في فرض العين وفرض الكفاية من العلوم وبيان حد الفقه والكلام من علم الدين وبيان علم الآخرة وعلم الدنيا.

الباب الثالث: فيما تعده العامة من علوم الدين وليس منها، وفيه بيان جنس العلم المذموم وقدره.

الباب الرابع: في آفات المناظرة وسبب اشتغال الناس بالخلاف والجدل.

الباب الخامس: في آداب المعلم والمتعلم.

الباب السادس: في آفات العلم والعلماء والعلامات الفارقة بين علماء الدنيا والآخرة.

الباب السابع: في العقل وفضله وأقسامه وما جاء فيه من الأخبار[١].

٢ ـ آراء الغزالي التربوية في كتابه ميزان العمل:

في ميزان العمل يكرر الغزالي ما رأيناه في الفصل الثاني من آراء في

---

(١) انظر القسم الثاني، النصوص المختارة من إحياء علوم الدين.

فضل العلم، وأقسام العلوم، والطرائق ووظائف المعلم، وشروط التعلم...[1].
نورِد هنا ملحقاً سريعاً لما ورد في «ميزان العمل».

أ ـ **التعليم** عند الغزالي «أشرف الأعمال». ومن أشرف الأهداف هو الإرشاد إلى طريق التعلّم والتعليم.

والتعليم المقصود هنا ليس هو فقط التعليم النظري من أجل العلم في مجال التربية انه يطال أيضاً مجالات الصناعات بأنواعها من أجل العمل به.

وإفادة (تعليم) العلم أشرف السياسات بعد النبوة إذ القصد هو تهذيب النفوس.

ب ـ **أما شرف العلم والعقل** فمدرَك بضرورة العقل والشرع والحس. هنا يورد الغزالي أدلة مستندة إلى العقل والآيات والأحاديث. من هنا ينتقل أبو حامد إلى إظهار شرف العقل، ثم يقسم العقل إلى غريزي ومكتسب.

ج ـ **وظائف المتعلم**: تتلخص وظائف المتعلم في «عَشْر جمل» هي:

١ ـ أن يقدم طهارة النفس عن رديء الأخلاق..
٢ ـ أن يقلل علائقه بالأشغال الدنيوية.
٣ ـ أن لا يتكبر على العلم وأهله.
٤ ـ أن لا يهتم بالاختلافات قبل أن تترسخ أقدامه.
٥ ـ أن يهتم بكل أنواع العلوم.
٦ ـ أن يهتم بالتدرّج والتسلسل في الصعوبات.
٧ ـ أن يهتم بالعلم الأساسي الذي هو معرفة الله.
٨ ـ أن يقيم تراتباً بين العلوم.
٩ ـ أن يعرف أنواع العلوم بقول إجمالي.
١٠ ـ أن يكون القصد من التعلم كمال النفس وفضيلتها.

د ـ **وظائف المعلم**: تتلخص على الشكل التالي.

---

(١) انظر، الكتاب الثاني، النصوص المختارة من «ميزان العمل»

١ ـ الوظيفة الأولى هي معاملة المتعلم كابن للمعلم.
٢ ـ الوظيفة الثانية أن لا يطلب أجراً أو جزاء على «إفادة العلم».
٣ ـ نصح المتعلم وإرشاده.
٤ ـ النهي بالتعريض لا بالتصريح.
٥ ـ التدريج. عدم تقبيح أي علم أمام المتعلم.
٦ ـ التعليم بحسب القدرة على الفهم.
٧ ـ الوظيفة السابقة للمعلم بما سبق وتنصب على مراعاة ما يحتمل المتعلم فهمه.
٨ ـ أن يكون المعلم للعلم العملي (الشرعيات) عاملاً بما يعلّمه. أي أن لا يتناقض المعلم بسلوكه وأحواله مع ما يقوله للمتعلمين[١].

٣ ـ الشمولية والاستمرارية في تربية الغزالي

في رسالته «أدب الدين»[٢] يضع الإمام الغزالي آدابية شاملة ومتكاملة يستعين بها المعلم والمتعلم والأهل والمجتمع بأسره. أي كل من له دور وأثر من قريب أو بعيد في تربية الفرد وتنشئته.

وسنرى أن هذه «الآدابية» تمتد إلى جميع النشاطات الحياتية والمجالات المعروفة في مجتمع الغزالي وعصره. كما أنها تطال جميع الفئات ومختلف الأعمار.

إنها عبارة عن مجموعة قواعد سلوكية عامة ينبغي أن توظف في خدمة التربية الدينية التي سعى إليها الغزالي وهذه القواعد والآداب هي على التوالي:

---

(١) يظهر الغزالي في المجال التربوي، وفي غيره أيضاً، مكرراً نفسه. فهو يعيد أفكاره التي نسقها وعرضها في «إحياء علوم الدين» الذي حوى المؤالفة (Synthèse) التي صاغها أبو حامد.

(٢) انظر، النصوص في الكتاب الخامس.

١ ـ أدب المؤمن بين يدي الله تعالى:
٢ ـ آداب العالم.
٣ ـ آداب المتعلم مع العالم.
٤ ـ آداب المقرىء.
٥ ـ آداب القارىء.
٦ ـ آداب معلم الصبيان.
٧ ـ آداب المحدّث.
٨ ـ آداب طالب الحديث.
٩ ـ آدابُ الكاتب.
١٠ ـ آدابُ الواعظ.
١١ ـ آداب المستمع.
١٢ ـ آداب الناسك.
١٣ ـ آداب اعتزال الناس.
١٤ ـ آداب الصوفي.
١٥ ـ آداب الشريف.
١٦ ـ آداب النوم.
١٧ ـ آداب التهجد.
١٨ ـ آداب الخلاء.
١٩ ـ آداب الحمام.
٢٠ ـ آداب الوضوء.
٢١ ـ آداب دخول المسجد.
٢٢ ـ آداب الاعتكاف.
٢٣ ـ آداب الأذان.
٢٤ ـ آداب الإمام.
٢٥ ـ آداب الصلاة.
٢٦ ـ آداب القراءة.
٢٧ ـ آداب الدعاء.

٢٨ ـ آداب الجمعة.
٢٩ ـ آداب الخطيب.
٣٠ ـ آداب العيد.
٣١ ـ آداب الخسوف.
٣٢ ـ آداب الاستسقاء.
٣٣ ـ آداب المريض.
٣٤ ـ آداب المعزّي.
٣٥ ـ آداب المشي في الجنازة.
٣٦ ـ آداب المتصدق.
٣٧ ـ آداب السائل.
٣٨ ـ آداب الغني.
٣٩ ـ آداب الفقير.
٤٠ ـ آداب المُهدي.
٤١ ـ آداب المُهدى إليه.
٤٢ ـ آداب اصطناع المعروف.
٤٣ ـ آداب الصيام.
٤٤ ـ آداب الحج.
٤٥ ـ آداب الإحرام.
٤٦ ـ آداب دخول مكة والمدينة.
٤٧ ـ آداب التاجر.
٤٨ ـ آداب الصيرفي.
٤٩ ـ آداب الصائغ.
٥٠ ـ آداب الأكل.
٥١ ـ آداب الشُرب.
٥٢ ـ آداب الرجل إذا أراد النكاح.
٥٣ ـ آداب المرأة إذا خطبها الرجل.
٥٤ ـ آداب الجماع.

٥٥ ـ آداب الرجل مع الزوجة.
٥٦ ـ آداب المرأة مع زوجها.
٥٧ ـ آداب الرجل مع نفسه.
٥٨ ـ آداب المرأة في نفسها.
٥٩ ـ آداب الإستئذان.
٦٠ ـ آداب الجلوس على الطريق.
٦١ ـ آداب المعاشرة.
٦٢ ـ آداب الولد مع والديه.
٦٣ ـ آداب الوالد مع أولاده.
٦٤ ـ آداب الإخوان.
٦٥ ـ آداب الجار.
٦٦ ـ آداب السيد مع عبده.
٦٧ ـ آداب العبد مع سيده.
٦٨ ـ آداب السلطان مع الرعية.
٦٩ ـ آداب الرعية مع السلطان.
٧٠ ـ آداب القاضي.
٧١ ـ آداب الشاهد.
٧٢ ـ آداب الجهاد.
٧٣ ـ آداب الأسير.
٧٤ ـ آداب جامعة.

لعل من المفيد أن نشير هنا إلى أن مثل هذه الآدابية لما لها من شمولية من شأنها أن توحد القيم والمعايير داخل المجتمع، من خلال وحدة الثقافة والعادات والتقاليد؛ مع ما لهذا النهج التربوي والتأديبي المحدّد والمرسوم مسبقاً والملزم للجميع من سلبيات لما يضفيه على التربية عامة من جمود وعلى الأجيال من قيود وعلى الثقافة من حدود.

الكتاب الثاني

نصوص مختارة

القسم الأول: فصول من كتاب إحياء علوم الدين.

القسم الثاني: كتاب ميزان العمل.

القسم الثالث: رسالة أيها الولد.

القسم الرابع: رسالة الأدب في الدين.

القسم الأول

«نصوص من كتاب إحياء علوم الدين»

يشمل الأبواب التالية:

الفصل الأول: في فضل العلم والتعليم.

الفصل الثاني: في العلم المحمود والمذموم.

الفصل الثالث: فيما يعده العامة من العلوم المحمودة وليس منها.

الفصل الرابع: في آداب المتعلم والمعلم.

الفصـل الأول

في
فضل العلم والتعليم والتعلم
وشواهده من النقل والعقل

فضيلة العلم

شواهدها من القرآن قوله عز وجل: ﴿شَهِـدَ الله أَنَّهُ لَا إِلَـهَ إِلَّا هُوَ وَالمَـلائِكَةُ وأُولُـو العِلْمِ قَائِماً بِالقِسْطِ﴾. فـانظر كيفَ بـدأ سبحانـه وتعالى بنفسـه، وثنَّى بالملائكة، وثلَّث بأهل العلم. وناهيك بهذا شرفاً وفضلاً، وجلاءً ونبلاً، وقال الله تعالى ﴿يَرْفَعُ الله الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ والَّذِينَ أوتُوا العِلْم دَرَجَاتٍ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهمـا: «للعلماء درجـات فـوق المؤمنين بسبعمئـة درجـة، مـا بين الدرجتين مسيرة خمسمئة عام». وقال عز وجل ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ والَّـذِينَ لا يَعْلَمُـونَ. وقـال تعـالى: ﴿إِنَّمَـا يَخْشَى الله مِنْ عِبَـادِهِ العُلَمَـاءُ﴾. وقـال تعالى: ﴿قُلْ كَفَى بـالله شَهِيداً بيني وَبَيْنَكُمْ ومَنْ عِنْـدَهُ عِلْمُ الكِتابِ﴾. وقـال تعالى: ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الكِتابِ أَنَا آتيكَ بِهِ﴾ تنبيهاً على أنه اقتدر بقوة العلم. وقال عز وجل: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَاب الله خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالحاً﴾ بيَّن أن عظم قدر الآخرة يعلم بالعلم. وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاس وَمَا يَعْقِلُها إِلَّا العَالِمُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَـوْ رَدُّوهُ إِلى الرَّسُولِ وإِلى أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِين يَسْتَنْبِطُـونَهُ مِنْهُمْ﴾ ردّ حكمه في الواقع إلى استنباطهم، وألحق رتبتهم برتبة الأنبياء في كشف حكم الله.

وقيل في قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وريشاً﴾ يعني العلم ﴿وَرِيشَاً﴾ يعني اليقين ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى﴾ يعني الحياء.

وقال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَـاهُمْ بِكِتابٍ فَصَّلْنَـاهُ عَلَى عِلْمٍ﴾. وقال تعالى ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ﴾. وقال عز وجل: ﴿بَلْ هُـوَ آيَاتٌ بَيِّنَـاتٌ في صُ

الَّذينَ أُوتُوا العِلْمَ﴾. وقال تعالى: ﴿خَلَقَ الإنسَانَ عَلَّمَهُ البَيَانَ﴾ وإنما ذكر ذلك في معرض الامتنان.

(وأما الأخبار) فقال رسول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسلَّم [1] «مَنْ يُرِدِ الله بِهِ خَيْراً يُفَقِّهْهُ في الدينِ وَيُلْهِمْهُ رُشْدَهُ» وقال صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم[2] «العُلَمَاءُ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ». ومعلوم أنه لا رتبة فوق النبوة، ولا شرف فوق شرف الوراثة لتلك الرتبة. وقال صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم [3] «يَسْتَغْفِرُ للعَالِمِ مَا في السَّمَوَاتِ والأَرْضِ». وأيّ منصب يزيد على منصب من تشتغل ملائكة السموات والأرض بالاستغفار له، فهو مشغول بنفسه وهم مشغولون بالاستغفار له. وقال صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم[4] «إنَّ الحِكْمَةَ تَزيدُ الشَّريفَ شرفاً، وترْفَعُ المَمْلُوكَ حَتَّى يُدْرِكَ مَدَارِكَ المُلُوكِ» وقد نبه بهذا على ثمرته في الدنيا، ومعلوم أن الآخرة خير وأبقى.

وقال ﷺ[5] «خَصْلَتَانِ لاَ يَكُونَانِ في مُنَافِقٍ: حُسْنُ سَمْتٍ، وَفِقْهٌ في الدينِ». ولا تشكنَّ في الحديث لنفاق بعض فقهاء الزمان، فإنه ما أراد به الفقه الذي ظننته، وسيأتي معنى الفقه. وأدنى درجات الفقيه أن يعلم أن الآخرة خيْر من الدنيا، وهذه المعرفة إذا صدقت وغلبت عليه برىء بها من النفاق والرياء.

(١) حديث من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين ويلهمه رشده: متفق عليه من حديث معاوية دون قوله ويلهمه رشده. وهذه الزيادة عند الطبراني في الكبير.
(٢) حديث العلماء ورثة الأنبياء: أبو داود والترمذي وابن ماجة وابن حبان في صحيحه من حديث أبي الدرداء
(٣) حديث يستغفر للعالم ما في السموات وما في الأرض: هو بعض حديث أبي الدرداء المتقدم.
(٤) حديث الحكمة تزيد الشريف شرفاً ـ الحديث: أبو نعيم في الحلية وابن عبد البر في بيان العلم وعبد الغني الأزدي في آداب المحدث من حديث أنس بإسناد ضعيف.
(٥) حديث خصلتان لا تجتمعان في منافق ـ الحديث: الترمذي من حديث أبي هريرة وقال حديث غريب.

وقال صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم[1] «أَفْضَلُ النَّاسِ المُؤمِنُ العَالِمُ الَّذِي إن احتيجَ إلَيْه نَفَع، وإنْ اسْتُغْنِيَ عَنْهُ أَغْنَى نَفْسَهُ». وقال ﷺ [2] «الإِيمَانُ عُرْيَانٌ وَلِبَاسُهُ التَّقْوَى وَزِينَتُهُ الحَيَاءُ وَثَمَرَتُهُ العِلْمُ». وقال صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم[3] «أَقْـرَبُ النَّاسِ مِنْ درَجَةِ النُّبُوَّةِ أَهْلُ العِلْمِ والجِهاد، أما أهلُ ٱلْعِلْـمِ فَدَلُّوا النَّاسَ عَلَى مَا جاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ». وأمَّا أَهْلُ الجِهَادِ فَجاهَدُوا بِأَسْيَافِهِمْ على مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ»وقال ﷺ[4] «لَمَوْتُ قَبِيلَةٍ أيْسَرُ مِنْ مَوْتِ عَالِمٍ» وقال عليه الصلاة والسلام[5] النَّاسُ مَعَادنَ كَمعادِنِ الذَّهبِ والفِضةِ فَخِيارُهُمْ في الجاهلِيَّـة خِيَارُهُمْ في الإسـلامِ إذا فقهوا». وقال صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم[6] يُوزَنَ يَوْمَ القِيامَةِ مِدادُ العُلَمَاءِ بِدمِ[(3)]الشُّهَدَاءِ».

وقال صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم[7] «مَنْ حَفِظَ عَلَى أُمَّتِي أَرْبَعِينَ حَدِيثاً مِنَ السُّنَّةِ حَتَّى يؤَدِّيَهَا إلَيْهِمْ كُنْتُ لَهُ شَفيعَاً وشَهيداً يَـوْمَ القِيَامَـةِ». وقال صَلَّى الله عَلَيْـهِ وَسَلَّم[8] «مَنْ حَمَلَ مِنْ أُمَّتِي أَرْبَعِينَ حَديثاً لَقِيَ الله عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ القِيَامَةِ فَقِيهاً

---

(١) حديث أفضل الناس المؤمن العالم الحديث: البيهقي في شعب الإيمان موقوفاً على أبي الدرداء باسناد ضعيف ولم أره مرفوعاً.

(٢) حديث الإيمان عريان ـ الحديث: الحاكم في تاريخ نيسابور من حـديث أبي الدرداء بإسناد ضعيف.

(٣) حديث أقرب الناس من درجة النبوة أهل العلم والجهاد ـ الحديث: أبو نعيم في فضل العالم العفيف من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف.

(٤) حديث لموت قبيلة أيسر من موت عالم ـ الطبراني وابن عبد البر من حديث أبي الدرداء: وأصل الحديث عند أبي الدرداء.

(٥) حديث الناس معادن ـ الحديث: متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(٦) حديث يوزن يوم القيامة مداد العلماء ودماء الشهداء ـ ابن عبد البـر: من حديث أبي الدرداء بسند ضعيف.

(٧) حديث من حفظ على أمتي أربعين حديثاً من السُنَّة حتى يؤديها إليهم كنت له شفيعاً وشهيداً يوم القيامة ـ ابن عبد البر: في العلم من حديث ابن عمر، وضعفه. يعني حفظ.

(٨) حديث من حمل من أمتي أربعين حديثاً لقي الله يوم القيامة فقيهاً عالماً ـ ابن عبد البر: من حديث أنس، وضعَّفه. يعني حمَّل.

عَالِماً» وقال صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم[1]: «مَنْ تَفَقَّه في دين الله عزّ وجلَّ كَفَاهُ الله تَعَالَى مَا أَهَمَّهُ وَرَزَقَهُ من حيث لا يَحْتَسِبُ». وقال صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم[2] «أَوْحَى الله عَزَّ وَجَلَّ إلى إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلامُ: يَا إبْراهيمُ إنّي عَلِيمٌ أُحِبُّ كُلَّ عَلِيمٍ» وقال صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم[3] «الْعَالِمُ أَمِينُ اللهِ سُبْحانَهُ في الأَرْضِ».

وقال صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم[4] «صِنْفَانِ مِنْ أُمَّتي إذا صَلَحُوا صَلَحَ النَّاسُ، وإذا فَسَدُوا فَسَدَ النَّاسُ: الأَمَراءُ والْفُقَهَاءُ». وقال عليه السلام[5] «إذَا أَتَى عَلَيَّ يَوْمٌ لا أَزْدادُ فِيهِ عِلْماً يُقَرِّبُني إلى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فلا بُورِكَ لِي في طُلُوعِ شَمْسِ ذَلِكَ اليَوْمِ». وقال صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم في تفضيل العلم على العبادة والشهادة[6] «فَضْلُ العَالِمِ على العَابِدِ كَفَضْلي على أدْنَى رَجُلٍ مِنْ أصْحابي» فانظر كيف جعل العلم مقارناً لدرجة النبوة، وكيف حطّ رتبة العمل المجرد عن العلم، وإن كان العابد لا يخلو من علم بالعبادة التي يواظب عليها، ولولاه لم تكن عبادة.

وقال صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم[7] «فَضْلُ العَالِمِ عَلَى العَابِدِ كَفَضْلِ القَمَر لَيْلة

---

(١) حديث من تفقه في دين الله كفاه الله همه ـ الحديث: الخطيب، في التاريخ، من حديث عبد الله بن جزء الزبيدي بإسناد ضعيف.

(٢) حديث أوحى الله إلى إبراهيم يا إبراهيم إني عليم أحب كل عليم: ذكره ابن عبد البر تعليقاً، ولم أظفر له بإسناد.

(٣) حديث العالم أمين الله في الأرض؛ ابن عبد البر من حديث معاذ بسند ضعيف.

(٤) حديث صنفان من أمتي إذا صلحوا صلح الناس ـ الحديث: ابن عبد البر وأبو نعيم من حديث ابن عباس بسند ضعيف.

(٥) حديث إذا أتى علي يوم لا أزداد فيه علماً يقربني... الحديث: الطبراني الأوسط وأبو نعيم في الحلية وابن عبد البر في العلم من حديث عائشة بإسناد ضعيف.

(٦) حديث فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابي: الترمذي من حديث أبي أمامة وقال حسن صحيح.

(٧) حديث فضل العالم العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب: أبو داود والترمذي والنسائي وابن حبان، وهو قطعة من حديث أبي الدرداء المتقدم.

ٱلْبَدْر عَلَى سائِرِ الكَوَاكِب» وقال صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم[١] «يَشْفَعُ يَوْمَ ٱلْقِيَامةِ ثَلاثَةٌ: الأنْبياءُ ثُمَّ العُلَمَاءُ ثُمَّ الشُّهَدَاءُ» فأعظم بمرتبة هي تلو النبوة وفوق الشهادة مع ما ورد في فضل الشهادة. وقال ﷺ[٢] «ما عُبِدَ الله تَعَالَى بِشيءٍ أفْضَلَ مِنْ فقْهٍ في الدِّينِ، وَلَفَقيهٌ واحدٌ أَشَدُّ عَلَى الشَّيْطانِ مِنْ أَلْفِ عَابِدٍ، ولِكُلِّ شيءٍ عِمَادٌ وَعِمَادُ هَذا الدِّين الْفِقْهُ» وقال صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم[٣] «خَيْرُ دِينِكُمْ أَيْسَرُهُ، وَخَيْرُ العِبَادَةِ الفِقْهُ» وقال صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم[٤] «فضْلُ المُؤْمِن العَالِم على المؤمِن العابِد بسبْعينَ دَرَجَةٍ». وقال صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم[٥] «إنَّكُمْ أَصْبَحْتُمْ في زَمَن كَثير فُقَهَاؤُهُ قَلِيل قُرَّاؤُهُ وَخُطَبَاؤهُ قَلِيل سَائِلُوهُ كَثِير مَعْطُوهُ، العَمَل فِيهِ خَيْرٌ مِنَ الْعِلْمِ، وَسَيَأْتِي عَلَى النَّاس زَمَانٌ قَلِيلٌ فُقَهَاؤُهُ كَثيرٌ خُطَبَاؤُهُ قَلِيلٌ مُعْطُوهُ كَثِيرٌ سَائِلُوهُ، الْعِلْمُ فِيه خَيْرٌ مِنَ العَمَلِ». وقال صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم[٦] «بَيْنَ الْعَالِمِ والْعَابِدِ مائَة

(١) حديث يشفع يوم القيامة الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء: ابن ماجة من حديث عثمان بن عفان بإسناد ضعيف.

(٢) حديث ما عبد الله بشيء أفضل من فقه في دين... الحديث: الطبراني في الأوسط، وأبو بكر الأجري في كتاب فضل العلم. وأبو نعيم في رياضة المتعلمين من حديث أبي هريرة بإسناد ضعيف، وعند الترمذي وابن ماجة من حديث ابن عباس بسند ضعيف: فقيه أشد على الشيطان من ألف عابد.

(٣) حديث خير دينكم أيسره وأفضل العبادة الفقه ـ ابن عبد البر: من حديث أنس بسند ضعيف، والشطر الأول عند أحمد من حديث محجن بن الأدرع بإسناد جيد، والشطر الثاني عند الطبراني من حديث ابن عمر بسند ضعيف.

(٤) حديث فضل المؤمن العالم على المؤمن العابد سبعون درجة: ابن عدي من حديث أبي هريرة بإسناد ضعيف، ولأبي يعلى نحوه من حديث عبد البر بن عوف.

(٥) حديث إنكم أصبحتم في زمان كثير فقهاؤه... الطبراني من حديث حزام بن حكيم عن عمه. وقيل عن أبيه وإسناده ضعيف.

(٦) حديث بين العالم والعابد مائة درجة... الأصفهاني في الترغيب والترهيب من حديث ابن عمر عن أبيه وقال: سبعون درجة، بسند ضعيف. وكذا رواه صاحب مسند الفردوس من حديث أبي هريرة.

دَرَجَةٍ بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْن حُضْرُ الجَوَادِ المُضَمَّر سَبْعِينَ سَنَة». و «وقيل يا رسول الله[1] أيُّ الأعْمَالِ أَفْضَلُ؟ فقال: الْعِلْمُ بالله عَزَّ وَجَلَّ، فقيل: أَيُّ العِلْمِ تُرِيدُ؟ قال صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم: الْعِلْمُ بالله سُبْحانَهُ، فقيل له: نسأل عن العمل وتُجيب عن العلم؟ فقال صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمْ: إنَّ قَلِيلَ العَمَلِ يَنْفَعُ مَعَ العِلْمِ بالله، وإنَّ كَثِيرَ العَمَلِ لا يَنْفَعُ مَعَ الجهْلِ بِاللهِ». وقال صَلى الله عليه وسلَّم[2] يَبْعَثُ الله سُبْحَانَهُ العِبَادَ يَوْمَ القِيَامَةِ ثُمَّ يَبْعَثُ العُلَمَاءَ ثُمَّ يَقُولُ: يَا مَعْشَرَ العُلَمَاءِ إنْي لَمْ أَضَعْ عِلمِي فِيكُمْ إلاَّ لِعِلْمِي بِكُمْ، وَلَمْ أَضَعْ عِلْمِي فِيكُمْ لأعَذِّبَكُمْ، اذْهَبُوا فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ» نسأل الله حسن الخاتمة.

(وأما الآثار): فقد قال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه لكُمَيل: يا كميل العلم خير من المال، العلم يحرُسُك وأنت تحرس المال، والعلم حاكم والمال محكوم عليه، والمال تَنْقُصه النفقة والعلم يزكو بالإنفاق. وقال عليّ أيضاً رضي الله عنه: العالم أفضل من الصائم القائم المجاهد، وإذا مات العالم ثلم في الإسلام ثلمة لا يسدها إلا خلف منه. وقال رضي الله عنه نظماً:

ما الفخر إلا لأهل العلم انهم	على الهدى لمن استهدى أدلاء
وقدر كل امرىء ما كان يحسنه	والجاهلون لأهل العلم أعداء
ففز بعلم تعش حياً به أبدا	الناس موتى وأهل العلم أحياء

وقال أبو الأسود: ليس شيء أعزّ من العلم: الملوكُ حكام على الناس، والعلماء حكام على الملوك. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: خُيِّر سليمان بن داود عليهما السلام بين العلم والمال والملك، فاختار العلم، فأُعطِي المال والملك معه. وسئل ابن المبارك من الناسُ؟ فقال: العلماء، قيل: فمن الملوك؟ قال: الزهاد، قيل فمن السِّفْلة؟ قال: الذين يأكلون الدنيا بالدين. ولم يجعل

---

(١) حديث قيل له يا رسول الله أي الأعمال أفضل؟ فقال العلم بالله... الحديث: ابن عبد البر من حديث أنس بسند ضعيف.

(٢) حديث يبعث الله العباد يوم القيامة ثم يبعث العلماء... الحديث: الطبراني من حديث أبي موسى بسند ضعيف.

غير العالم من الناس لأن الخاصية التي يتميز بها الناس عن سائر البهائم هو العلم. فالإنسان إنسان بما هو شريف لأجله، وليس ذلك بقوة شخصه فإن الجمل أقوى منه، ولا بِعظَمه فإن الفِيل أعظم منه، ولا بشجاعته فإن السبع أشجع منه، ولا بأكله فإن الثور أوسع بطناً منه، ولا ليجامع فإن أخس العصافير أقوى على السفاد منه، بل لم يخلق إلا للعلم. وقال بعض العلماء: ليت شعري أيّ شيء أدركَ من فاته العلم، وأيّ شيء فاته مِن أدرك العلم!

وقال عليه الصلاة والسلام: مَنْ أُوتِيَ القُرْآنَ فَرَأى أَنَّ أَحَداً أُوتِيَ خَيْرَاً مِنْهُ فَقَدْ حَقَّرَ مَا عَظَّمَ الله تَعَالَى». وقال فتح الموصلي رحمه الله: أليس المريض إذا منع الطعام والشراب يموت؟ قالوا بلى، قال: كذلك القلب إذا منع عنْه الحكمة والعلم ثلاثة أيام يموت. ولقد صدق، فإن غذاء القلب العلم والحكمة وبهما حياته، كما أن غذاء الجسد الطعام، ومن فقد العلم فقلبه مريض، وموته لازم، لكنه لا يشعر به، إذ حب الدنيا وشغله بها أبطل إحساسه، كما أن غلبة الخوف قد تبطل ألم الجراح في الحال وإن كان واقعاً، فإذا حط الموت عنه أعباء الدنيا أحس بهلاكِه، وتحسر تحسراً عظيماً ثم لا ينفعه، وذلك كإحساس الآمن من خوفه، والمفيق من سكره، بما أصابه من الجراحات في حالة السكر أو الخوف، فنعوذ بالله من يوم كشف الغطاءِ، فإن الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا.

وقال الحسن رحمه الله: يوزن مداد العلماء بدم الشهداء فيرجح مداد العلماء بدم الشهداء. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: عليكم بالعلم قبل أن يُرفع، ورفعه موتُ رواته، فوالذي نفسي بيده ليودّن رجال قتلوا في سبيل الله شهداء أن يبعثهم الله علماء لما يرون من كرامتهم، فإن أحداً لم يولد عالماً وإنما العلم بالتعلم. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: تذاكرُ العلم بعض ليلة أحب إليّ من إحيائها. وكذلك عن أبي هريرة رضي الله عنه وأحمد بن حنبل رحمه الله. وقال الحسن في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً﴾: إن الحسنة في الدنيا هي العلم والعبادة، وفي الآخرة هي الجنة. وقيل لبعض الحكماء: أيّ الأشياء تقتنى؟ قال: الأشياء التي إذا غرقت سفينتك سبحت معك، يعني العلم، وقيل أراد بغرق السفينة هلاك بدنه بالموت. وقال

بعضهم: من اتخذ الحكمة لجاماً اتخذه الناس إماماً، ومن عُرف بالحكمة لاحظته العيون بالوقار.

وقال الشافعي رحمة الله عليه: من شرف العلم أن كل من نسب إليه ولو في شيء حقير فرح، ومن رفع عنه حزن. وقال عمر رضي الله عنه: يا أيها الناس عليكم بالعلم فإن الله سبحانه رداءً يحبه؛ فمن طلب باباً من العلم رداه الله عزَ وجل بردائه؛ فإن أذنب ذنباً استعتبه ثلاث مرات لئلا يسلبه رداءه ذلك وإن تطاول به ذلك الذنب حتى يموت. وقال الأحنف رحمه الله: كاد العلماء أن يكونوا أرباباً؛ وكلُّ عز لم يوطَّد بعلم فإلى ذل مصيره. وقال سالم بن أبى الجعد: اشتراني مولاي بثلثمائة درهم وأعتقني، فقلت بأي شيء أحترف؟ فاحترفت بالعلم، فما تمت لي سنة حتى أتاني أمير المدينة زائراً فلم آذن له.

وقال الزبير بن أبي بكر: كتب إليَّ أبي بالعراق: عليك بالعلم فإنك إن افتقرت كان لك مالاً؛ وإن استغنيت كان لك جمالاً. وحكي ذلك في وصايا لقمان لابنه؛ قال: يا بني جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك؛ فإن الله سبحانه يحيي القلوب بنور الحكمة كما يحيي الأرض بوابل السماء. وقال بعض الحكماء: إذا مات العالم بكاه الحوت في الماء والطير في الهواء، ويفقد وجهه ولا ينسى ذكره. وقال الزهري رحمه الله: العلم ذَكَر ولا يحبه إلا ذُكران الرجال.

فضيلة التعلم

(أما الآيات) فقوله تعالى: ﴿فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ وقوله عز وجل: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾.

(وأما الأخبار) فقوله صلى الله عليه وسلَّم[1]: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقاً يَطْلُبُ فِيهِ عِلْماً سَلَكَ الله بِهِ طَرِيقاً إلى الجَنَّةِ». وقال صلَّى الله عَليهِ وسلَّم[2]: «إنَّ المَلائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ العِلْمِ رِضاءً بِمَا يَصْنَعُ». وقال صلى الله عليه وسلم[3] «لأَنْ تَغْدُوَ فَتَتَعَلَّمَ بَاباً مِنَ العِلْمِ خَيْرٌ مِنْ أنْ تُصَلِّيَ مِئَةَ رَكْعَةٍ». وقال صلى الله عليه وسلم[4] «بَابٌ مِنَ العِلْمِ يَتَعَلَّمُهُ الرَّجُلُ خَيْرٌ لَهُ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا». وقال صلى الله عليه وسلم[5] «اطْلُبُوا العِلْمَ وَلَوْ بِالصِّين» وقال صلى الله عليه وسلم «طَلَبُ العِلْمِ فَرِيضَةٌ على كُلِّ مُسْلِمٍ» وقال عليه الصلاة والسلام[6]: العِلْم،

---

(١) حديث من سلك طريقاً يطلب فيه علماً ـ الحديث: مسلم من حديث أبي هريرة.

(٢) حديث إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع: أحمد وابن حبان والحاكم وصححه من حديث صفوان بن عسال.

(٣) حديث لأن تغدو فتتعلم بابا من العلم خير من أن تصلي مائة ركعة: ابن عبد البر من حديث أبي ذر وليس إسناده بذاك والحديث عند ابن ماجة بلفظ آخر.

(٤) حديث باب من العلم يتعلمه الرجل خير له من الدنيا: ابن حبان في روضة العقلاء وابن عبد البر موقوفاً على الحسن البصري ولم أره مرفوعاً إلا بلفظ خير له من مائة ركعة، رواه الطبراني في الأوسط بسند ضعيف من حديث أبي ذر.

(٥) حديث اطلبوا العلم ولو بالصين: ابن عدي والبيهقي في المدخل والشعب من حديث أنس قال البيهقي متنه مشهور وأسانيده ضعيفة.

(٦) حديث العلم خزائن مفاتيحها السؤال ـ الحديث: رواه أبو نعيم من حديث علي مرفوعاً بإسناد ضعيف.

خَزَائِنُ مَفَاتِيحُهَا السُّؤَال: أَلا فاسْأَلُوا فَإِنَّهُ يُؤْجَرُ فِيهِ أَرْبَعَةٌ: السَّائِلُ، وَالْعَالِمُ وَالْمُسْتَمِعُ، والمُحِبُّ لَهُمْ». وقال صلى الله عليه وسلم[1] «لا يَنْبَغِي لِلْجَاهِلِ أَنْ يَسْكُتَ عَلَى جَهْلِهِ وَلا لِلْعَالِمِ أَنْ يَسْكُتَ عَلَى عِلْمِهِ». وفي حديث أبي ذر رضي الله عنه[2] «حُضُورُ مَجْلِسِ عَالِمٍ أَفْضَلُ مِنْ صَلاةِ أَلْفِ رَكْعَةٍ، وَعِيَادَةِ أَلْفِ مَرِيضٍ، وَشُهُودِ أَلْفِ جَنَازَةٍ» فقيل يا رسول الله: وَمِن قراءَةِ القُرْآن؟ فقال صلَّى الله عليه وسلم: «وَهَلْ يَنْفَعُ الْقُرْآنُ إلاَّ بالْعِلْمِ؟» وقال عليه الصلاة والسلام[3]: «مَنْ جَاءَهُ الْمَوْتُ وَهُوَ يَطْلُبُ الْعِلْمَ لِيُحْيِيَ بِهِ الإِسْلامَ فَبَيْنَه وَبَيْنَ الأَنْبِيَاءِ فِي الجَنَّةِ دَرَجَةٌ وَاحِدَةٌ».

(وأما الآثار) فقال ابن عباس رضي الله عنهما: ذللتُ طالباً فعززتُ مطلوباً. وكذلك قال ابن أبي مليكة رحمه الله: ما رأيت مثل ابن عباس: إذا رأيته رأيت أحسن الناس وجهاً؛ وإذا تكلم فأعرب الناس لساناً؛ وإذا أفتى فأكثر الناس علماً. وقال ابن المبارك رحمه الله: عجبت لمن لم يطلب العلم كيف تدعوه نفسه إلى مكرمة! وقال بعض الحكماء: إني لا أرحم رجالاً كرحمتي لأحد رجلين: رجل يطلب العلم ولا يفهم؛ ورجل يفهم العلم ولا يطلبه. وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: لأن أتعلم مسألة أحب إليّ من قيام ليلة. وقال أيضاً: العالم والمتعلم شريكان في الخير؛ وسائر الناس همج لا خير فيهم. وقال أيضاً: كن عالماً أو متعلماً أو مستمعاً، ولا تكن الرابع فتهلك.

---

(١) حديث لا ينبغي للجاهل أن يسكت على جهله: الطبراني في الأوسط وابن مردويه في التفسير وابن السني وأبو نعيم في رياضة المتعلمين من حديث جابر بسند ضعيف.

(٢) حديث أبي ذر حضور مجلس علم أفضل من صلاة ألف ركعة الحديث: ذكره ابن الجوزي في الموضوعات من حديث عمر ولم أجده من طريق أبي ذر.

(٣) حديث من جاءه الموت وهو يطلب العلم ـ الحديث: الدارمي وابن السني في رياضة المتعلمين من حديث الحسن، فقيل هو ابن علي وقيل هو ابن يسار البصري فيكون مرسلاً.

وقال عطاء: مجلس علم يكفر سبعين مجلساً من مجالس اللهو. وقال عمر رضي الله عنه: موت ألف عابد قائِم الليل صائم النهار أهونُ من موت عالم بصير بحلال الله وحرامه. وقال الشافعي رضي الله عنه: طلب العلم أفضل من النافلة. وقال ابن عبد الحكم رحمه الله: كنت عند مالك أقرأ عليه العلم فدخل الظهر، فجمعت الكتب لأصلي، فقال: يا هذا ما الذي قمت إليه بأفضلِ مما كنت فيه إذا صحت النية. وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: من رأى أن الغُدوَّ إلى طلب العلم ليس بجهاد فقد نقص في رأيه وعقله.

فضيلة التعليم

(أما الآيات) فقوله عز وجل: ﴿وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إذَا رَجَعُوا إلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾. والمراد هو التعليم والإرشاد، وقوله تعالى: ﴿وَإذْ أَخَذَ الله مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاس وَلا تَكْتُمُونَهُ﴾ وهو إيجاب للتعليم. وقوله تعالى: ﴿وَإنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الحقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ وهو تحريم للكتمان، كما قال تعالى في الشهادة: ﴿وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم[1] «مَا آتَى الله عَالِماً عِلْماً إلاَّ وَأَخَذَ عَلَيْهِ مِنَ المِيثَاقِ مَا أَخَذَ عَلَى النَّبيِّينَ أَنْ يُبَيِّنُوهُ لِلنَّاسِ وَلا يَكْتُمُوهُ». وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إلَى الله وَعَمِلَ صَالِحَاً﴾. وقال تعالى: ﴿ادْعُ إلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ والْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ وقال تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ والْحِكْمَةَ﴾.

(وأما الأخبار) فقوله صلى الله عليه وسلم لما بعث معاذاً رضي الله عنه إلى اليمن[2] «لأنْ يَهْدِيَ الله بِكَ رَجُلاً وَاحِداً خَيْرٌ مِنْ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا» وقال صلى الله عليه وسلّم[3] «مَنْ تَعَلَّمَ بَاباً مِنَ الْعِلْمِ لِيُعَلِّمَ النَّاسَ أُعْطِيَ ثَوَابَ سَبْعِينَ صِدِّيقاً»

---

(١) حديث ما أتى الله عالماً علماً إلا أخذ عليه من الميثاق ما أخذ على النبيين ـ الحديث: أبو نعيم في فضل العالم العفيف من حديث ابن مسعود بنحوه وفي الخلعيات نحوه من حديث أبي هريرة.

(٢) حديث قاله لمعاذ حين بعثه إلى اليمن: لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم، أحمد من حديث معاذ، وفي الصحيحين من حديث سهل بن سعد أنه قال ذلك لعلي.

(٣) حديث: من تعلّم باباً من العلم ليعلّم الناس، أعطى ثواب سبعين صدّيقاً: رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس، من حديث ابن مسعود، بسند ضعيف.

وقال عيسى صلى الله عليه وسلم: «مَنْ عَلِم وَعَمِلَ وَعَلَّمَ فَذَلِكَ يُدْعَى عَظِيماً في مَلَكُوت السَّمَواتِ». وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ يَقُوْلُ الله سُبْحانَهُ لِلْعَابِدِينَ والْمُجَاهِدينَ: ادْخُلُوا الْجَنَّة، فَيَقُولُ الْعُلَمَاءُ: بِفَضْلِ عِلْمِنَا تَعَبَّدُوا وَجَاهَدُوا، فَيَقُـولُ الله عَزَّ وَجَـلَّ: أَنْتُمْ عِنْدِي كَبَعْضِ مَـلائِكَتِي، اشْفَعُوا تُشْفَعُوا، فَيَشْفَعُون ثُمَّ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ». وهذا إنما يكون بالعلم المتعدي بالتعليم، لا العلم اللازم الذي لا يتعدى.

وقال صلى الله عليه وسلم[2] «إِنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ لا يَنْتَزِعُ الْعِلْمَ انْتِزَاعاً مِنَ النَّاس بَعْدَ أَنْ يُؤْتِيهُمْ إِيَّاهُ وَلَكِنْ يَذْهَبُ بِذَهَاب العُلَمَاءِ، فَكُلَّمَا ذَهَبَ عَالِمٌ ذَهَبَ بِمَا مَعُهُ مِنَ الْعِلْم حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْق إِلاَّ رُؤسَاءَ جُهَّالاً إِن سُئِلُوا أَفْتَوا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَيَضِلّونَ وَيُضِلُّون». وقال صلى الله عليه وسلم[3] «مَنْ عَلِمَ عِلْماً فَكَتَمَهُ أَلْجَمَهُ الله يَوْمَ القِيَامَةِ بِلِجامٍ مِنْ نَارٍ». وقال صلى الله عليـه وسلم[4] «نِعْمَ الْعَطِيَّـة وَنِعْمَ الْهَدِيَّةُ كَلِمَةُ حِكْمَةٍ تَسْمَعُهَا فَتَطْوي عَلَيْهَا ثُمَّ تَحْمِلُهَا إِلَى أَخٍ لَكَ مُسْلِمٍ تُعَلّمُهُ إِيَّاهَا تَعْدِلُ عِبَادَةَ سَنَةٍ». وقال صلى الله عليه وسلم[5] «الدُّنْيا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ مَا فِيهَا إِلاَّ ذِكْرَ الله سُبْحَانَهُ وَمَا وَالاهُ أو مُتعلماً أَوْ مُتَعَلّماً».

---

(١) حديث: إذا كان يوم القيامة يقول الله تعالى للعابدين والمجاهدين: ادخلوا الجنة... الحـديث: أبو العباس الذهبي في (العلم) من حديث ابن عباس، بسند ضعيف.

(٢) حديث: إن الله لا ينتزع العلم انتزاعاً من الناس... الحديث: متفق عليه من حديث عبد الله بن عمرو.

(٣) حديث: من علم علماً فكتمه الجمه الله يوم القيامة بلجام من نار: أبو داود والترمذي وابن ماجة وابن حبان، والحاكم، وصححه من حديث أبي هريرة قال الترمذي حديث حسن.

(٤) حديث: نعم العطية ونعم الهدية كلمة حكمـة تسمعها... الحـديث: الطبـراني من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف.

(٥) حـديث الدنيا ملعونة ملعون ما فيها... الحديث: الترمذي وابن ماجة من حديث أبي هريرة، قال الترمذي: حسن غريب.

وقال صلى الله عليه وسلم[1] «إِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَمَلائِكَتَهُ وَأَهْـلَ سَمَوَاتِـهِ وأَرْضِهِ حَتَّى النَّمْلَةَ في جُحْرِهَا وَحَتَّى الحُـوتَ في البَحْرِ لَيُصَلُّونَ على مُعَلِّمِ النَّـاس الْخَيْرَ». وقال صلى الله عليه وسلم[2] «مَا أَفَـادَ المُسْلِمُ أَخَاهُ فَـائِدَةً أَفْضَـلَ مِنْ حَـدِيثٍ حَسَنٍ بَلَغَهُ فَبَلغَـهُ». وقال صلى الله عليـه وسلم[3] «كَلِمَةٌ مِنَ الخَيْـرِ يَسْمَعُهَـا المُؤمِنُ فَيُعَلِّمُهَا وَيَعْمَلُ بها خَيْرٌ لَهُ مِنْ عِبَادَةِ سَنَةٍ». وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم[4] ذات يوم فرأى مجلسين أحدهما يدعون الله عز وجل ويرغبون إليه، والثاني يعلّمون الناس، فقال: أَمَّا هَؤُلاءِ فَيَسْأَلُونَ اللَّهَ تَعَالَى فَإِنْ شَاءَ أَعْطَاهُمْ وَإِنْ شَاءَ مَنَعَهُمْ، وَأَمَّا هَؤُلاءِ فَيُعَلِّمُونَ النَّاسَ، وَإِنَّمَا بُعِثْتُ مُعَلِّماً» ثم عدل إليهم وجلس معهم.

وقال صلى الله عليه وسلم[5] «مَثَلُ مَا بَعَثَنِـي الله عَزَ وَجَلَّ بِهِ مِنَ الهُدَى والعِلْمِ كَمَثَلِ الغَيث الكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضاً فَكَانَتْ مِنْهَا بُقْعَةٌ قَبِلَتِ الْمَاءَ فَـأَنْبَتَتْ الْكَلأَ والْعُشْبَ الكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا بُقْعَةٌ أَمْسَكَت المَاءَ فَنَفَعَ الله عَزَّ وَجَـلَّ بها

---

(١) حديث: إن الله وملائكته وأهل السموات وأهل الأرض حتى النملة في جحرها وحتى الحوت في البحر ليصلون على معلم الناس الخير: الترمذي من حديث أبـي أمامة، وقال غريب، وفي نسخة حسن صحيح.

(٢) حديث: ما أفاد المسلم أخاه فائدة أفضل من حديث حسن. . . الحديث: ابن عبد البر من رواية محمد بن المنكدر مرسلاً نحوه، ولأبي نعيم من حديث عبد الله بن عمرو: ما أهدى مسلم لأخيه هدية أفضل من كلمة تزيده هدى أو ترده عن ردى.

(٣) حـديث كلمة من الحكمـة يسمعها المؤمن فيعمـل بهـا ويعلمهـا. . . الحـديث: ابن المبارك في الزهد والرقائق، من رواية زيد بن أسلم مرسلاً نحوه، وفي مسند الفردوس من حديث أبي هريرة بسند ضعيف: كلمة حكمة يسمعها الرجل خير له من عبادة سنة.

(٤) حديث: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم على أصحابه فرأى مجلسين أحدهما يدعون الله. . . الحديث: ابن ماجة، من حديث عبد الله بن عمرو بسند ضعيف.

(٥) حديث: مثل ما بعثني الله به من العلم والهدى. . . الحديث: متفق عليه من حديث أبي سوسى.

النَّاسَ فَشَرِبُوا مِنْهَا وَسَقَوْا وَزرَعُوا، وَكَانَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ قِيعَانٌ لا تُمْسِكُ مَاءً وَلا تُنْبِتُ كَلأً». فالأول ذكره مثلاً للمنتفع بعلمه، والثاني ذكره مثلاً للنافع، والثالث للمحروم منهما.

وقال صلى الله عليه وسلم[1] «إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلاَّ مِنْ ثَلاثٍ: عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ» الحديث. وقال صلى الله عليه وسلم[2] «الدَّالُّ عَلَى الْخَيْرِ كَفَاعِلِهِ». وقال صلى الله عليه وسلم[3]: «لا حَسَدَ إِلاَّ في اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ حِكْمَةً فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا النَّاسَ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالاً فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَتِهِ في الْخَيْرِ». وقال صلى الله عليه وسلم[4] عَلَى خُلَفَائِي رَحْمَةُ اللهِ، قيل: وَمَنْ خُلَفَاؤُكَ؟ قال: الَّذِينَ يُحْيُونَ سُنَّتِي وَيُعَلِّمُونَهَا عِبَادَ اللهِ».

(وأما الآثار) فقد قال عمر رضي الله عنه: من حدّث حديثاً فعمل به فله مثل أجر من عمل ذلك العمل. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: مُعلِّم الناس الخيرَ يستغفر له كلُّ شيء حتى الحوتُ في البحر. وقال بعض العلماء: العالم يدخل فيما بين الله وبين خلقه، فلينظر كيف يدخل. وروي أن سفيان الثوري رحمه الله قدم عسقلان فمكث لا يسأله إنسان، فقال: اكروا لي لأخرج من هذا البلد، هذا بلد يموت فيه العلم! وإنما قال ذلك حرصاً على فضيلة التعليم

---

(١) حديث: إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث... الحديث: مُسْلِم من حديث أبي هريرة.

(٢) حديث: الدال على الخير كفاعله. الترمذي من حديث أنس، وقال غريب ورواه مسلم وأبو داود والترمذي، وصححه عن أبي مسعود البدري بلفظ: من دل على خير فله مثل أجر فاعله.

(٣) حديث: لا حسد إلا في اثنتين... الحديث: متفق عليه من حديث ابن مسعود.

(٤) حديث: على خلفائي رحمة الله... الحديث: ابن عبد البر في العلم، والهروي في ذم الكلام من حديث الحسن، فقيل هو ابن علي، وقيل ابن يسار البصري. فيكون مرسلاً ولابن السني وأبي نعيم في رياضة المتعلمين، من حديث علي نحوه.

واستبقاء العلم به. وقال عطاء رضي الله عنه: دخلت على سعيد بن المسيَّب وهو يبكي فقلت: ما يبكيك؟ قال: ليس أحد يسألني عن شيء!.

وقال بعضهم: العلماء سُرج الأزمنة، كل واحد مصباح زمانه يستضيء به أهل عصره. وقال الحسن رحمه الله: لولا العلماء لصار الناس مثل البهائم. أي أنهم بالتعليم يخرجون الناس من حدّ البهيمية إلى حدّ الإنسانية. وقال عِكْرمة: إن لهذا العلم ثَمَناً. قيل: وما هو؟ قال: أن تضعه فيمن يُحسن حمله ولا يضيعه. وقال يحيى بن معاذ: العلماء أرحم بأمة محمدصلى الله عليه وسلم من آبائهم وأمهاتهم؛ قيل: وكيف ذلك؟ قال: لأن آباءهم وأمهاتهم يحفظونهم من نار الدنيا وهم يحفظونهم من نار الآخرة.

وقيل: أول العلم الصمت؛ ثم الاستماع؛ ثم الحفظ؛ ثم العمل؛ ثم نشره. وقيل: علّم علمَك من يجهل، وتعلَّم ممن يعلم ما تجهل؛ فإنك إذا فعلت ذلك علمت ما جهلت، وحفظت ما علمت.

وقال معاذ بن جبل في التعليم والتعلم ورأيته أيضاً مرفوعاً:[1] تعلَّموا العلم فإن تعلُّمَه لله خشيةٌ، وطلبه عبادة، ومدارستَه تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمَه من لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة، وهو الأنيس في الوحدة، والصاحب في الخلوة، والدليل على الدِّين؛ والمصبر على السراء والضراء، والوزير عند الإخلاء، والقريب عند الغرباء، ومنار سبيل الجنة، يرفع الله به أقواماً فيجعلهم في الخير قادة سادة هُداة يقتَدى بهم، أدلة في الخير تُقتَصُّ آثارهم وترمق أفعالهم، وترغب الملائكة في خُلتهم وبأجنحتها تمسحهم، وكل رطب ويابس لهم يستغفر حتى حيتان البحر وهوامه، وسباع البر وأنعامه، والسماء ونجومها، لأن العلم حياة القلوب من العمى، ونور الأبصار من الظلَم، وقوة الأبدان من الضعف، يبلغ به العبد منازل الأبرار والدرجات العلى، والتفكر فيه يعدل بالصيام، ومدارسته بالقيام، به يطاع الله عز وجل، وبه يعبد، وبه يوحد،

---

(١) حديث معاذ: تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية وطلبه عبادة... الحديث بطوله: أبو الشيخ وابن حبان في كتاب (الثواب) وابن عبد البر وقال ليس له اسناد قوي.

وبه يمجد، وبه يتورّع، وبه توصل الأرحام، وبه يعرف الحلال والحرام، وهو إمام والعمل تابعه، يُلهِمُه السعداء، ويحرمه الأشقياء. نسأل الله تعالى حسن التوفيق.

في الشواهد العقلية:

اعلم أن المطلوب من هذا الباب معرفة فضيلة العلم ونفاسته، وما لم تفهم الفضيلة في نفسها ولم يتحقق المراد منها لم يمكن أن تعلم وجودها صفة للعلم أو لغيه من الخصال، فلقد ضل عن الطريق من طمع أن يعرف أن زيداً حكيم أم لا وهو بعدُ لم يفهم معنى الحكمة وحقيقتها.

والفضيلة مأخوذة من الفضل وهو الزيادة، فإذا تشارك شيئان في أمر واختص أحدهما بمزيد يقال: فَضله وله الفضل عليه، مهما كانت زيادته فيما هو كمال ذلك الشيء، كما يقال الفرس أفضل من الحمار بمعنى أنه يشاركه في قوة الحمل ويزيد عليه بقوة الكر والفر وشدة العدو وحسن الصورة، فلو فرض حمار اختص بسلعة زائدة لم يقل إنه أفضل، لأن تلك زيادة في الجسم ونقصان في المعنى، وليست من الكمال في شيء، والحيوان مطلوب لمعناه وصفاته لا لجسمه. فإذا فهمت هذا لم يخْف عليك أن العلم فضيلة إن أخذته بالإضافة إلى سائر الأوصاف، كما أن للفرس فضيلة إن أخذته بالإضافة إلى سائر الحيوانات، بل شدة العَدْو فضيلة في الفرس وليست فضيلة على الإطلاق، والعلم فضيلة في ذاته وعلى الإطلاق من غير إضافة، فإنه وصف كمال الله سبحانه، وبه شرف الملائكة والأنبياء، بل الكيس من الخيل خير من البليد، فهي فضيلة على الإطلاق من غير إضافة.

واعلم أن الشيء النفيس المرغوب فيه ينقسم إلى ما يطلب لغيره، وإلى ما يطلب لذاته، وإلى ما يطلب لغيره ولذاته جميعاً. فما يطلب لذاته أشرف وأفضل مما يطلب لغيره، والمطلوب لغيره الدراهم والدنانير فإنهما حجران لا منفعة لهما، ولولا أن الله سبحانه وتعالى يسّر قضاء الحاجات بهما لكانا والحصباء بمثابة واحدة. والذي يطلب لذاته فالسعادة في الآخرة، ولذة النظر لوجه الله

تعالى. والذي يطلب لذاته ولغيره فكسلامة البدن، فإن سلامة الرجل مثلاً مطلوبة من حيث إنها سلامة للبدن من الألم، ومطلوبة للمشي بها، والتوصل إلى المآرب والحاجات.

وبهذا الاعتبار إذا نظرت إلى المعلم رأيته لذيذاً في نفسه، فيكون مطلوباً لذاته، ووجدته وسيلة إلى دار الآخرة وسعادتها، وذريعة إلى القرب من الله تعالى، ولا يتوصل إليه إلا به. وأعظم الأشياء رتبة في حق الآدمي السعادة الأبدية، وأفضل الأشياء ما هو وسيلة إليها، ولن يتوصل إليها إلا بالعلم والعمل، ولا يتوصل إلى العمل إلا بالعلم بكيفية العمل. فأصل السعادة في الدنيا والآخرة هو العلم، فهو إذن أفضل الأعمال، وكيف لا وقد تعرف فضيلة الشيء أيضاً بشرف ثمرته، وقد عرفت أن ثمرة العلم القرب من رب العالمين، والالتحاق بأفق الملائكة ومقارنة الملأ الأعلى. هذا في الآخرة.

وأما في الدنيا فالعز والوقار، ونفوذ الحكم على الملوك، ولزوم الاحترام في الطباع، حتى أن أغبياء الترك وأجلاف العرب يصادفون طباعهم مجبولة على التوقير لشيوخهم لاختصاصهم بمزيد علم مستفاد من التجربة، بل البهيمة بطبعها توقر الإنسان لشعورها بتمييز الإنسان بكمال مجاوز لدرجتها.

هذه فضيلة العلم مطلقاً، ثم تختلف العلوم كما سيأتي بيانه وتتفاوت لا محالة فضائلها بتفاوتها.

وأما فضيلة التعليم والتعلم فظاهرة مما ذكرناه، فإن العلم إذا كان أفضل الأمور كان تعلمه طلباً للأفضل، فكان تعليمه إفادة للأفضل. وبيانه: أن مقاصد الخلق مجموعة في الدين والدنيا ولا نظام للدين إلا بنظام الدنيا، فإن الدنيا مزرعة الآخرة، وهي الآلة الموصلة إلى الله عز وجل لمن اتخذها آلة ومنزلاً، لا لمن يتخذها مستقراً ووطناً، وليس ينتظم أمر الدنيا إلا بأعمال الآدميين، وأعمالُهم وحرفهم وصناعاتهم تنحصر في ثلاثة أقسام:

(أحدها) أصول لا قوام للعالم دونها وهي أربعة: الزراعة وهي لِلْمَطْعَمِ، والحياكة وهي للملبَس، والبناء وهو للمسكَن، والسياسة وهي للتأليف

والاجتماع، والتعاون على أسباب المعيشة وضبطها.

(الثاني) ما هي مهيأة لكل واحدة من هذه الصناعات وخادمة لها كالحِدادَة، فإنها تخدم الزراعة، وجملة من الصناعات بإعداد آلاتها كالحلاجة والغزل، فإنها تخدم الحياكة بإعداد عملها.

(الثالث) ما هي متممة للأصول ومزينة: كالطحن والخبز للزراعة، وكالقصارة والخياطة للحياكة، وذلك بالإضافة إلى قوام أمر العالم الأرضي مثل أجزاء الشخص بالإضافة إلى جملته، فإنها ثلاثة أضرب أيضاً: إما أصول كالقلب والكبد والدماغ، وإما خادمة لها كالمعدة والعروق والشرايين والأعصاب والأوردة، وإما مكملة لها ومزينة كالأظفار والأصابع والحاجبين.

وأشرف هذه الصناعات أصولها، وأشرف أصولها السياسية بالتأليف والاستصلاح، ولذلك تستدعي هذه الصناعة من الكمال فيمن يتكفل بها ما لا يستدعيه سائر الصناعات. ولذلك يستخدم لا محالة صاحب هذه الصناعة سائر الصناع.

والسياسة في استصلاح الخلق وإرشادهم إلى الطريق المستقيم المنجي في الدنيا والآخرة على أربع مراتب: الأولى وهي العليا: سياسة الأنبياء عليهم السلام، وحكمهم على الخاصة والعامة جميعاً في ظاهرهم وباطنهم. والثانية: الخلفاء والملوك والسلاطين، وحكمهم على الخاصة والعامة جميعاً، ولكن على ظاهرهم لا على باطنهم. والثالثة: العلماء بالله عز وجل وبدينه الذين هم ورثة الأنبياء، وحكمهم على باطن الخاصة فقط، ولا يرتفع فهم العامة على الاستفادة منهم، ولا تنتهي قوتهم إلى التصرف في ظواهرهم بالإلزام والمنع والشرع. والرابعة: الوعاظ، وحكمهم على بواطن العوام فقط. فأشرف هذه الصناعات الأربع بعد النبوة: إفادة العلم، وتهذيب نفوس الناس عن الأخلاق المذمومة المهلكة، وإرشادهم إلى الأخلاق المحمودة المسعدة، وهو المراد بالتعليم.

وإنما قلنا إن هذا أفضل من سائر الحرف والصناعات، لأن شرف الصناعة يعرف بثلاثة أمور: إما بالالتفات إلى الغريزة التي بها يتوصل إلى معرفتها كفضل

العلوم العقلية على اللغوية، إذ تدرك الحكمة بالعقل، واللغة بالسمع، والعقل أشرف من السمع؛ وإما بالنظر إلى عموم النفع: كفضل الزراعة على الصياغة؛ وإما بملاحظة المحل الذي فيه التصرف: كفضل الصياغة على الدباغة، إذ محل أحدهما الذهب، ومحل الآخر جلد الميتة.

وليس يخفى أن العلوم الدينية وهي فقه طريق الآخرة إنما تدرك بكمال العقل وصفاء الذكاء، والعقل أشرف صفات الإنسان كما سيأتي بيانه، إذ به تقبل أمانةُ الله، وبه يتوصل إلى جوار الله سبحانه.

وأما عموم النفع فلا يستراب فيه، فإن نفعه وثمرته سعادة الآخرة.

وأما شرف المحل فكيف يخفى والمعلم متصرف في قلوب البشر ونفوسهم، وأشرف موجود على الأرض جنس الانس، وأشرف جزء من جواهر الإنسان قلبه، والمعلم مشتغل بتكميله وتجليته وتطهيره وسياقته إلى القرب من الله عزّ وجل.

فتعليم العلم من وجهٍ عبادةٌ لله تعالى، ومن وجه خلافة لله تعالى، وهو من أجل خلافة الله، فإن الله تعالى قد فتح على قلب العالم العلمَ الذي هو أخص صفاته، فهو كالخازن لأنفَس خزائنه، ثم هو مأذون له في الإنفاق منه على كل محتاج إليه. فأي رتبة أجلّ من كون العبد واسطة بين ربه سبحانه وبين خلقه في تقريبهم إلى الله زلفى، وسياقتهم إلى جنة المأوى؟ جعلنا الله منهم بكرمه! وصلى الله على كل عبد مصطفى.

الفصل الثاني
في

العلم المحمود والمذموم وأقسامهما وأحكامهما وفيه بيان ما هو فرض عين وما هو فرض كفاية وبيان أن موقع الكلام والفقه من علم الدين إلى أي حد هو وتفضيل علم الآخرة.

بيــان
العلم الذي هو فرض عين

قـال رسول الله صلى الله عليـه وسلم: «طَلَبُ ٱلْعِلْـمِ فَرِيضَـةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ» وقال أيضاً صلى الله عليه وسلم: «اطْلُبُوا العِلْمَ وَلَوْ بِالصِّينِ».

واختلف الناس في العلم الذي هو فرض على كل مسلم، فتفرقوا فيه أكثر من عشرين فرقة، ولا نطيل بنقل التفصيل، ولكن حاصله أن كـل فريق نـزّل الوجوب على العلم الذي هو بصدده، فقـال المتكلمون: هو علم الكلام، إذ به يدرك التوحيدُ، ويعلم به ذات الله سبحانه وصفاتـه. وقال الفقهـاء: هو علم الفقـه إذ به تعرف العبادات والحلال والحرام وما يحرم من المعاملات وما يحلّ، وَعَنَوْا به ما يحتاج إليه الآحاد، دون الوقائع النادرة. وقال المفسرون والمحدثون: هو علم الكتاب والسنة إذ بهما يتوصل إلى العلوم كلها. وقال المتصوفة: المراد به هذا العلم، فقال بعضهم: هو علم العبد بحاله، ومقامه من الله عز وجل، وقال بعضهم: هـو العلم بالإخـلاص وآفات النفـوس وتمييـز لَمَّـة الملك من لمـة الشيطان. وقال بعضهم: هو علم الباطن وذلك يجب على أقوام مخصوصين هم أهل ذلك، وصرفوا اللفظ عن عمومه. وقال أبو طالب المكي: هو العلم بما يتضمنه الحديث الذي فيه مباني الإسلام، وهو قوله صلى الله عليه وسلم[1] «بُنِيَ الإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله» إلى آخر الحديث، لأن الواجب هذه الخمس، فيجب العلم بكيفية العمل فيها، وبكيفية الوجوب.

والذي ينبغي أن يقطع به المحصل ولا يستريب فيه ما سنذكره، وهو: أن

---

(١) حديث: بني الإسلام على خمس. . . متفق عليه من حديث ابن عمر.

العلم كما قدّمناه في خطة الكتاب ينقسم إلى علم معاملة وعلم مكاشفة، وليس المراد بهذا العلم إلا علم المعاملة.

والمعاملة التي كلف العبد العاقل البالغ العمل بها ثلاثة: اعتقاد، وفعل، وترك. فإذا بلغ الرجل العاقل بالإحتلام أو السن ضحوة نهار مثلاً، فأول واجب عليه تعلّم كلمتي الشهادة وفهم معناهما، وهو قول: لا إله إلا الله محمد رسول الله. وليس يجب عليه أن يحصّل كشف ذلك لنفسه بالنظر والبحث وتحرير الأدلّة، بل يكفيه أن يصدق به ويعتقده جزماً من غير اختلاج ريب واضطراب نفس، وذلك قد يحصل بمجرد التقليد والسماع من غير بحث ولا برهان، إذ اكتفى رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] من أجلاف العرب بالتصديق والإقرار من غير تعلم دليل، فإذا فعل ذلك فقد أدّى واجب الوقت، وكان العلم الذي هو فرض عين عليه في الوقت تعلم الكلمتين وفهمهما، وليس يلزمه أمر وراء هذا في الوقت، بدليل أنه لو مات عقيب ذلك مات مطيعاً لله عز وجل غير عاص له.

وإنما يجب غير ذلك بعوارض تعرض، وليس ذلك ضرورياً في حق كل شخص، بل يتصوّر الانفكاك عنها، وتلك العوارض إما أن تكون في الفعل، وإما في الترك، وإما في الاعتقاد.

أما الفعل فبأن يعيش من ضحوة نهاره إلى وقت الظهر، فيتجدد عليه بدخول وقت الظهر تعلم الطهارة والصلاة، فإن كان صحيحاً وكان بحيث لو صبر إلى وقت زوال الشمس لم يتمكن من تمام التعلم والعمل في الوقت بل يخرج الوقت لو اشتغل بالتعلم، فلا يبعد أن يقال الظاهر بقاؤه، فيجب عليه تقديم التعلم على الوقت، ويحتمل أن يقال وجوب العلم الذي هو شرط العمل بعد وجوب العمل، فلا يجب قبل الزوال، وهكذا في بقية الصلوات.

فإن عاش إلى رمضان تجدد بسببه وجوب تعلم الصوم، وهو يعلم أن وقته

(١) حديث: اكتفى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أجلاف العرب بالتصديق والإقرار من غير تعلم دليل مشهور في كتب السير والحديث، فعند مسلم قصة ضمّام بن ثعلبة.

من الصبح إلى غروب الشمس، وأن الـواجب فيه النيـة والإمساك عن الأكـل والشرب والوقاع، وأن ذلك يتمادى إلى رؤية الهلال أو شاهدين.

فإن تجدد له مال أو كان له مال عند بلوغه، لزمه تعلم ما يجب عليه من الـزكاة، ولكن لا يلزمـه في الحال، إنمـا يلزمه عنـد تمام الحـول مـن وقت الإسلام، فإن لم يملك إلا الإبل لم يلزمه إلا تعلم زكاة الإبل، وكذلك في سائر الأصناف.

فإذا دخل في أشهر الحج فلا يلزمه المبادرة إلى علم الحج، مع أن فعله على التراخي، فلا يكون تعلمه على الفور، ولكن ينبغي لعلماء الإسـلام أن ينبهوه على أن الحج فرض على التراخي على كل من ملك الزاد والراحلة إذا كان هو مالكاً، حتى ربما يرى الحزم لنفسه في المبادرة، فعند ذلك إذا عزم عليه لزمه تعلم كيفية الحج، ولم يلزمه إلا تعلم أركانه وواجباته دون نوافله، فإنّ فعلَ ذلك نفل، فعلمه أيضاً نفل، فلا يكون تعلمه فرض عين. وفي تحريم السكوت على التنبيه على وجوب أصل الحج في الحال نظر يليق بالفقه، وهكذا التدريج في علم سائر الأفعال التي هي فرض عين.

وأما التروك فيجب تعلم علم ذلك بحسب ما يتجدد من الحال، وذلك يختلف بحال الشخص إذ لا يجب على الأبكم تعلم ما يحرم من الكلام، ولا على الأعمى تعلم ما يحرم من النظر، ولا على البدوي تعلم ما يحرم الجلوس فيه من المساكن، فذلك أيضاً واجب بحسب ما يقتضيه الحال، فما يعلم أنه ينفك عنه لا يجب تعلمه، وما هو ملابس له يجب تنبيهه عليه، كما لو كان عند الإسلام لابساً للحرير أو جالساً في الغصب أو ناظراً إلى غير ذي محرم، فيجب تعريفه بذلك، وما ليس ملابساً له ولكنه بصدد التعرض له على القرب كالأكل والشرب فيجب تعليمه، حتى إذا كانَ في بلد يتعاطى فيه شرب الخمر وأكل لحم الخنزير فيجب تعليمه ذلك وتنبيهه عليه، ومـا وجب تعليمه وجب عليـه تعلمه.

وأما الاعتقادات وأعمال القلوب فيجب علمها بحسب الخواطر، فإن خطر له شك في المعاني التي تدل عليها كلمتا الشهادة فيجب عليه تعلم ما يتوصل به

إلى إزالة الشك، فإن لم يخطر له ذلك ومات قبل أن يعتقد أن كلام الله سبحانه قديم، وأنه مرئي، وأنه ليس محلاً للحوادث، إلى غير ذلك مما يذكر في المعتقدات، فقد مات على الإسلام إجماعاً. ولكن هذه الخواطر الموجبة للاعتقادات بعضها يخطر بالطبع، وبعضها يخطر بالسماع من أهل البلد، فإن كان في بلد شاع فيه الكلام وتناطق الناس بالبدع، فينبغي أن يصان في أول بلوغه عنها بتلقين الحق، فإنه لو ألقي إليه الباطل لوجبت إزالته عن قلبه، وربما عسر ذلك، كما أنه لو كان هذا المسلم تاجراً وقد شاع في البلد معاملة الربا، وجب عليه تعلم الحذر من الربا. وهذا هو الحق في العلم الذي هو فرض عين. ومعناه العلم بكيفية العمل الواجب؛ فمن علم العلم الواجب ووقت وجوبه فقد علم العلم الذي هو فرض عين.

وما ذكره الصوفية من فهم خواطر العدو ولَمَّة المَلك حق أيضاً، ولكن في حق من يتصدى له، فإذا كان الغالب أن الإنسان لا ينفك عن دواعي الشر والرياء والحسد، فيلزمه أن يتعلم من علم ربع المهلكات ما يرى نفسه محتاجاً إليه؛ وكيف لا يجب عليه وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:[1] «ثَلَاثٌ مُهْلِكَاتٌ: شُحٌّ مُطَاعٌ، وَهَوًى مُتَّبَعٌ، وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ». ولا ينفك عنها بشر. وبقية ما سنذكره من مذمومات أحوال القلب كالكبر والعجب وأخواتهم تتبع هذه الثلاث المهلكات، وإزالتها فرض عين. ولا يمكن إزالتها إلا بمعرفة حدودها ومعرفة أسبابها، ومعرفة علاماتها ومعرفة علاجها، فإن من لم يعرف الشر يقع فيه، والعلاج هو مقابلة السبب بضده، وكيف يمكن دون معرفة السبب والمسبّب؟ وأكثر ما ذكرناه في ربع المهلكات من فروض الأعيان، وقد تركها الناس كافة اشتغالاً بما لا يعني.

ومما ينبغي أن يبادر في إلقائه إليه إذا لم يكن قد انتقل عن ملة إلى ملة أخرى: الإيمان بالجنة والنار، والحشر والنشر، حتى يؤمن به ويصدق، وهو من

---

(١) حديث ثلاث مهلكات شح مطاع... الحديث: البزار والطبراني وأبو نعيم والبيهقي ابن شعيب من حديث أنس، بإسناد ضعيف.

تتمة كلمتي الشهادة، فإنه بعد التصديق بكونه عليه السلام رسولاً ينبغي أن يفهم الرسالة التي هو مبلغها، وهو أن من أطاع الله ورسوله فله الجنة ومن عصاهما فله النار. فإذا انتبهت لهذا التدريج علمت أن المذهب الحق هو هذا، وتحققت أن كل عبد هو مجاري أحواله في يومه وليلته لا يخلو من وقائع في عباداته ومعاملاته عن تجدّد لوازم عليه، فيلزمه السؤال عن كل ما يقع له من النوادر، ويلزمه المبادرة إلى تعلم ما يتوقع وقوعه على القرب غالباً. فإذا تبين أنه عليه الصلاة والسلام إنما أراد بالعلم المعرّف بالألف واللام في قوله صلى الله عليه وسلم: «طَلَبُ العِلْمِ فريضةٌ على كلِّ مُسلِمٍ» علم العمل الذي هو مشهور الوجوب على المسلمين لا غير. فقد اتضح وجه التدريج ووقت وجوبه، والله أعلم.

بيـان
العلم الذي هو فرض كفاية

اعلم أن الفـرض لا يتميز عن غيـره إلا بـذكـر أقسـام العلوم، والعلوم بالإضافة إلى الفرض الذي نحن بصدده تنقسم إلى شرعية وغير شرعية، وأعني بالشرعية ما استفيد من الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه، ولا يرشد العقل إليه مثل الحساب، ولا التجربة مثل الطب، ولا السماع مثل اللغـة، فالعلوم التي ليست بشرعية تنقسم إلى ما هو محمود وإلى ما هو مذموم وإلى ما هو مباح. فالمحمود ما يرتبط به مصالح أمور الدنيا كالطب والحساب، وذلك ينقسم إلى ما هو فرض كفاية، وإلى ما هو فضيلة وليس بفريضة.

أما فرض الكفاية فهـو كل علم لا يستغنى عنـه في قوام أمـور الدنيا: كالطب، إذ هو ضروري في حاجة بقاء الأبدان، وكالحساب فإنه ضروري في المعاملات وقسمة الوصايا والمواريث أو غيرهما. وهذه هي العلوم التي لو خلا البلد عمن يقوم بها حَرِجَ أهلُ البلد، وإذا قام بها واحد كفى وسقط الفرض عن الآخرين، فلا يتعجب من قولنا ان الطب والحساب من فروض الكفايات، فإن أصول الصناعات أيضاً من فروض الكفايات: كالفلاحة والحياكة والسياسة بل الحجامة والخياطة، فإنه لو خلا البلد من الحجّام تسارع الهلاك إليهم، وحَرجوا بتعـريضهم أنفسهم للهلاك، فـإن الذي أنـزل الداء أنـزل الدواء وأرشـد إلى استعماله، وأعدّ الأسباب لتعاطيه، فلا يجوز التعرض للهلاك بإهماله.

وأما ما يعد فضيلة لا فريضة فالتعمق في دقائق الحساب وحقائق الطب وغير ذلك مما يستغنى عنه، ولكنه يفيد زيادة قوة في القدر المحتاج إليه

وأما المذموم منه ففعل السحر والطلسمات، وعلم الشعبذة والتلبيسات.

وأما المباح منه فالعلم بالأشعار التي لا سخف فيها، وتواريخ الأخبار وما يجري مجراه.

وأما العلوم الشرعية وهي المقصودة بالبيان، فهي محمودة كلها، ولكن قد يلتبس بها ما يظن أنها شرعية وتكون مذمومة؛ فتنقسم إلى المحمودة والمذمومة أما المحمودة فلها أصول وفروع ومقدّمات ومتممات، وهي أربعة أضرب:

الضرب الأول: الأصول ـ وهي أربعة: كتاب الله عز وجل، وسنَّة رسوله عليه السلام، وإجماع الأمة، وآثار الصحابة. والإجماع أصل من حيث إنه يدل على السنة، فهو أصل في الدرجة الثالثة، وكذا الأثر، فإنه يدل على السنَّة، لأن الصحابة رضي الله عنهم قد شاهدوا الوحي والتنزيل، وأدركوا بقرائن الأحوال ما غاب عن غيرهم عيانه، وربما لا تحيط العبارات بما أدرك بالقرائن، فمن هذا الوجه رأى العلماء الاقتداء بهم والتمسك بآثارهم، وذلك بشرط مخصوص على وجه مخصوص عند من يراه، ولا يليق بيانه بهذا الفن.

الضرب الثاني: الفروع ـ وهو ما فهم من هذه الأصول لا بموجب ألفاظها بل بمعان تنبه لها العقول فاتسع بسببها الفهم حتى فهم من اللفظ الملفوظ به غيره، كما فهم من قوله عليه السلام:[1] «لَا يَقْضِي الْقَاضِي وَهُوَ غَضْبانُ» أنه لا يقضي إذا كان حاقناً أو جائعاً أو متألماً بمرض. وهذا على ضربين: أحدهما يتعلق بمصالح الدنيا وتحويه كتب الفقه، والمتكفل به الفقهاء وهم علماء الدنيا. والثاني ما يتعلق بمصالح الآخرة وهو علم أحوال القلب وأخلاقه المحمودة والمذمومة، وما هو مرضيّ عند الله تعالى، وما هو مكروه، وهو الذي يحويه الشطر الأخير من هذا الكتاب، أعني جملة كتاب إحياء علوم الدين، ومنه العلم بما يترشح من القلب على الجوارح في عباداتها وعاداتها، وهو الذي يحويه الشطر الأول من هذا الكتاب.

والضرب الثالث: المقدمات ـ وهي التي تجري منه مجرى الآلات: كعلم

---

(١) حديث: لا يقضي القاضي وهو غضبان... متفق عليه من حديث أبي بكر.

اللغة والنحو، فإنهما آلة لعلم كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وليست اللغة والنحو من العلوم الشرعية في أنفسهما، ولكن يلزم الخوض فيهما بسبب الشرع، إذ جاءت هذه الشريعة بلغة العرب، وكل شريعة لا تظهر إلا بلغة فيصير تعلم تلك اللغة آلة. ومن الآلات علم كتابة الخط، إلا أن ذلك ليس ضرورياً، إذ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] أمّيًا. ولو تصور استقلال الحفظ بجميع ما يسمع لاستغني عن الكتابة، ولكنه صار بحكم العجز في الغالب ضرورياً.

الضرب الرابع: المتممات ـ وذلك في علم القرآن، فإنه ينقسم إلى ما يتعلق باللفظ كتعلم القراءات ومخارج الحروف، وإلى ما يتعلق بالمعنى كالتفسير فإن اعتماده أيضاً على النقل، إذ اللغة بمجردها لا تستقل به، وإلى ما يتعلق بأحكامه كمعرفة الناسخ والمنسوخ، والعام والخاص، والنص والظاهر، وكيفية استعمال البعض منه مع البعض، وهو العلم الذي يسمى أصول الفقه، ويتناول السنة أيضاً.

وأما المتممات في الآثار والأخبار، فالعلم بالرجال وأسمائهم وأنسابهم، وأسماء الصحابة وصفاتهم، والعلمُ بالعدالة في الرواة. والعلم بأحوالهم ليميز الضعيف عن القوي، والعلم بأعمارهم ليميز المرسل عن المسند، وكذلك ما يتعلق به. فهذه هي العلوم الشرعية، وكلها محمودة بل كلها من فروض الكفايات.

فإن قلت: لم ألحقت الفقه بعلم الدنيا وألحقت الفقهاء بعلماء الدنيا؟ فاعلم أن الله عز وجل أخرج آدم عليه السلام من التراب، وأخرج ذريته من

---

(١) حديث: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمياً أي لا يحسن الكتابة: ابن مردويه في التفسير من حديث عبد الله بن عمر مرفوعاً: أنا محمد النبي الأمي وفيه ابن لهيعة، ولابن حبّان والدارقطني والحاكم والبيهقي وصححه من حديث ابن مسعود قولوا: اللهم صل على محمد النبي الأمي، وللبخاري من حديث البراء: وأخذ الكتاب وليس يحسن يكتب.

سلالة من طين ومن ماء دافق، فأخرجهم من الأصلاب إلى الأرحام، ومنها إلى الدنيا، ثم إلى القبر، ثم إلى العرض، ثم إلى الجنة أو إلى النار، فهذا مبدأهم وهذه غايتهم، وهذه منازلهم. وخلق الدنيا زاداً للمعاد ليتناول منها ما يصلح للتزود، فلو تناولوها بالعدل لانقطعت الخصومات وتعطل الفقهاء، ولكنهم تناولوها بالشهوات فتولدت منها الخصومات، فمسّت الحاجة إلى سلطان يسوسهم، واحتاج السلطان إلى قانون يسوسهم به. فالفقيه هو العالم بقانون السياسة وطريق التوسط بين الخلق إذا تنازعوا بحكم الشهوات، فكان الفقيه معلم السلطان ومرشده إلى طريق سياسة الخلق وضبطهم، لينتظم باستقامتهم أمورهم في الدنيا. ولعمري إنه متعلق أيضاً بالدين، ولكن لا بنفسه بل بواسطة الدنيا، فإن الدنيا مزرعة الآخرة، ولا يتم الدين إلا بالدنيا، والملك والدين توأمان. فالدين أصل والسلطان حارس. وما لا أصل له فمهدوم، وما لا حارس له فضائع، ولا يتم الملك والضبط إلا بالسلطان، وطريق الضبط في فصل الحكومات بالفقه.

وكما أن سياسة الخلق بالسلطنة ليس من علم الدين في الدرجة الأولى، بل هو معين على ما لا يتم الدين إلا به، فكذلك معرفة طريق السياسة. فمعلوم أن الحج لا يتم إلا ببذرقة تحرس من العرب في الطريق، ولكن الحج شيء وسلوك الطريق إلى الحج شيء ثان، والقيام بالحراسة التي لا يتم الحج إلا بها شيء ثالث، ومعرفة طرق الحراسة وحيلها وقوانينها شيء رابع. وحاصل فن الفقه معرفة طرق السياسة والحراسة. ويدل على ذلك ما روي مسنداً[1] «لا يُفْتي النَّاسَ إلَّا ثَلَاثَةٌ: أَميرٌ أَوْ مَأْمُورٌ أَو مُتَكَلِّفٌ». فالأمير هو الإمام وقد كانوا هم المفتين، والمأمور نائبه، والمتكلف غيرهما، وهو الذي يتقلد تلك العهدة من غير حاجة. وقد كان الصحابة رضي الله عنهم يحترزون عن الفتوى حتى كان يحيل كل واحد منهم على صاحبه، وكانوا لا يحترزون إذا سئلوا عن علم القرآن وطريق الآخرة. وفي بعض الروايات بدل المتكلف المرائي، فإن من تقلد خطر

(١) حديث لا يفتي الناس إلا ثلاثة... الحديث: ابن ماجة من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده بلفظ: لا يقص على الناس، وإسناده حسن.

الفتوى وهو غير متعين للحاجة فلا يقصد به إلا طلب الجاه والمال.

فإن قلت: هذا إن استقام لك في أحكام الجراحات والحدود والغرامات وفصل الخصومات فلا يستقيم فيما يشتمل عليه ربع العبادات من الصيام والصلاة، ولا فيما يشتمل عليه ربع العادات من المعاملات من بيان الحلال والحرام. فاعلم أن أقرب ما يتكلم الفقيه فيه من الأعمال التي هي أعمال الآخرة ثلاثة: الإسلام، والصلاة، والزكاة، والحلال والحرام. فإذا تأملت منهيّ نظر الفقيه فيها، علمت أنه لا يجاوز حدود الدنيا إلى الآخرة. وإذا عرفت هذا في هذه الثلاثة فهو في غيرها أظهر.

أما الإسلام فيتكلم الفقيه فيما يصح منه وفيما يفسد، وفي شروطه، وليس يلتفت فيه إلا إلى اللسان، وأما القلب فخارج عن ولاية الفقيه لعزل رسول الله صلى الله عليه وسلم أرباب السيوف والسلطنة عنه حيث قال:[1] «هَلَّا شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ» للذي قتل من تكلم بكلمة الإسلام معتذراً بأنه قال ذلك من خوف السيف، بل يحكم الفقيه بصحة الإسلام تحت ظلال السيوف؛ مع أنه يعلم أن السيف لم يكشف له عن نيته، ولم يدفع عن قلبه غشاوة الجهل والحيرة، ولكنه مشير على صحاب السيف، فإن السيف ممتد إلى رقبته، واليد ممتدة إلى ماله، وهذه الكلمة باللسان تعصم رقبته وماله ما دامت له رقبة ومال، وذلك في الدنيا، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم:[2] «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ فَإِذَا قَالُوهَا فَقَدْ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ» جعل أثر ذلك فى الدم والمال. وأما الآخرة فلا تنفع فيها الأموال، بل أنوار القلوب وأسرارها وإخلاصها؛ وليس ذلك من فن الفقه، وإن خاض الفقيه فيه كان كما لو خاض في الكلام والطب وكان خارجاً عن فنه.

وأما الصلاة فالفقيه يفتي بالصحة إذا أتى بصورة الأعمال مع ظاهر

---

(١) حديث: هلَّا شققت عن قلبه، مسلم من حديث أسامة بن زيد.

(٢) حديث: أمرت أن اقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة وعمر وابن عمر.

الشروط، وإن كان غافلاً في جميع صلاته من أولها إلى آخرها، مشغولاً بالتفكر في حساب معاملاته في السوق إلا عند التكبير، وهذه الصلاة لا تنفع في الآخرة، كما أن القول باللسان في الإسلام لا ينفع، ولكن الفقيه يفتي بالصحة، أي أن ما فعله حصل به امتثال صيغة الأمر وانقطع به عنه القتل والتعزير. فأما الخشوع وإحضار القلب الذي هو عمل الآخرة وبه ينفع العمل الظاهر لا يتعرض له الفقه، ولو تعرض له لكان خارجاً عن فنه.

واما الزكاة فالفقيه ينظر إلى ما يقطع به مطالبة السلطان حتى إذا امتنع عن أدائها فأخذها السلطان قهراً حكم بأنه برئت ذمته. وحكي أن أبا يوسف القاضي كان يهب ماله لزوجته آخر الحول ويستوهب مالها إسقاطاً للزكاة، فحكي ذلك لأبي حنيفة رحمه الله، فقال: ذلك من فقهه، وصدق فإن ذلك من فقه الدنيا؛ ولكن مضرّته في الآخرة أعظم من كل جناية، ومثل هذا هو العلم الضار.

وأما الحلال والحرام فالورع عن الحرام من الدين، ولكن الورع له أربع مراتب:

الأولى: الورع الذي يشترط في عدالة الشهادة، وهو الذي يخرج بتركه الإنسانُ عن أهلية الشهادة والقضاء والولاية، وهو الاحتراز عن الحرام الظاهر.

الثانية: ورع الصالحين، وهو التوقي من الشبهات التي يتقبل فيها الاحتمالات، قال صلى الله عليه وسلم:[1] «دَعْ ما يرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيبُكَ» وقال صلى الله عليه وسلم:[2] «الإِثْمُ حَزَّازُ القُلُوبِ».

الثالثة: ورع المتقين، وهو ترك الحلال المحض الذي يخاف منه أداؤه إلى الحرام؛ قال صلى الله عليه وسلم[3] «لَا يكُونُ الرَّجُلُ مِنَ الْمُتَّقِينَ حَتَّى يَدَعَ

---

(١) حديث: دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، الترمذي وصححه، والنسائي وابن حبّان، من حديث الحسن بن علي.

(٢) حديث: الإثم حزاز القلوب: البيهقي في شعب الإيمان من حديث ابن مسعود ورواه العدني في مسنده موقوفاً عليه.

(٣) حديث: لا نكون الرجل من المتقين حتى يدع ما لا بأس به... الحديث، الترمذي وحسنه، وابن ماجة، والحاكم وصححه، من حديث عطية السعدي.

مَا لَا بَأْسَ بِهِ مَخَافَةً مِمَّا بِهِ بَأْسٌ» وذلك مثل التورع عن التحدث بأحوال الناس خيفة من الانجرار إلى الغيبة، والتورعَ عن أكل الشهوات خيفة من هيجات النشاط والبطر المؤدي إلى مقارفة المحظورات.

الرابعة: ورع الصديقين، وهو الإعراض عما سوى الله تعالى خوفاً من صرف ساعة من العمر إلى ما لا يفيد زيادة قرب عند الله عز وجل؛ وإن كان يعلم ويتحقق أنه لا يفضي إلى حرام.

فهذه الدرجات كلها خارجة عن نظر الفقيه، إلا الدرجة الأولى، وهو ورع الشهود والقضاة وما يقدح في العدالة، والقيام بذلك لا ينفي الإثم في الآخرة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] «لِوَابِصَةَ اسْتَفْتِ قَلْبَكَ وَإِنْ أَفْتَوكَ وإن أَفْتَوكَ وَإِنْ أَفْتَوكَ» والفقيه لا يتكلم في حزازات القلوب وكيفية العمل بها، بل فيما يقدح في العدالة فقط، فإذا جميع نظر الفقيه مرتبط بالدنيا التي بها صلاح طريق الآخرة، فإن تكلم في شيء من صفات القلب وأحكام الأخرة فذلك يدخل في كلامه على سبيل التطفل، كما قد يدخل في كلامه شيء من الطب والحساب والنجوم وعلم الكلام، وكما تدخل الحكمة في النحو والشعر. وكان سفيان الثوري وهو إمام في علم الظاهر يقول: إن طلب هذا ليس من زاد الآخرة. كيف وقد اتفقوا على أن الشرف في العلم والعمل به، فكيف يظنّ أنه علم الظهار واللعان والسلم والإجارة والصرف؟ ومن تعلم هذه الأمور ليتقرب بها إلى الله تعالى فهو مجنون، وإنما العمل بالقلب والجوارح في الطاعات، والشرف هو تلك الأعمال.

فإن قلت: لم سويت بين الفقه والطب إذ الطب أيضاً يتعلق بالدنيا وهو صحة الجسد، وذلك يتعلق به أيضاً صلاح الدين، وهذه التسوية تخالف إجماع المسلمين؟ فاعلم أن التسوية غير لازمة بل بينهما فرق، وأن الفقه أشرف منه من ثلاثة أوجه: (أحدها) أنه علم شرعي إذ هو مستفاد من النبوة، بخلاف الطب فإنه ليس من علم الشرع. و(الثاني) أنه لا يستغني عنه أحد من سالكي طريق الآخرة البته لا الصحيح ولا المريض؛ وأما الطب فلا يحتاج إليه إلا المرضى

---

(١) حديث: اسْتَفْتِ قلبك وإن أفتوك، أحمد، من حديث وابصة.

وهم الأقلون. و(الثالث) أن علم الفقه مجاور لعلم طريق الآخرة لأنه نظر في أعمال الجوارح، ومصدر أعمال الجوارح ومنشؤها صفات القلوب، فالمحمود من الأعمال يصدر عن الأخلاق المحمودة المنجية في الآخرة، والمذموم يصدر من المذموم، وليس يخفى اتصال الجوارح بالقلب. وأما الصحة والمرض فمنشؤهما صفاء في المزاج والأخلاط، وذلك من أوصاف البدن لا من أوصاف القلب، فمهما أضيف الفقه إلى الطب ظهر شرفه، وإذا أضيف علم طريق الآخرة إلى الفقه ظهر أيضاً شرف علم طريق الآخرة.

فإن قلت: فصِّل لي علم طريق الآخرة تفصيلاً يشير إلى تراجمه وإن لم يمكن استقصاء تفاصيله، فاعلم أنه قسمان: علم مكاشفة وعلم معاملة.

فالقسم الأول علم المكاشفة وهو علم الباطن، وذلك غاية العلوم، فقد قال بعض العارفين: من لم يكن له نصيب من هذا العلم أخاف عليه سوء الخاتمة. وأدنى نصيب منه التصديق به وتسليمه لأهله. وقال آخر: من كان فيه خصلتان لم يفتح له بشيء من هذا العلم: بدعة أو كبر. وقيل: من كان محباً للدنيا أو مصرّاً على هوى لم يتحقق به؛ وقد يتحقق بسائر العلوم، وأقل عقوبة من ينكره أنه لا يذوق منه شيئاً؛ وينشد على قوله:

وارض لمن غاب عنك غيبته فذاك ذنب عقابه فيه

وهو علم الصديقين والمقربين؛ أعني علم المكاشفة. فهو عبارة عن نور يظهر في القلب عند تطهيره وتزكيته من صفاته المذمومة؛ وينكشف من ذلك النور أمور كثيرة كان يسمع من قبل أسماءها فيتوهم لها معاني مجملة غير متضحة؛ فتتضح إذ ذاك حتى تحصل المعرفة الحقيقية بذات الله سبحانه وبصفاته الباقيات التامات، وبأفعاله وبحكمه في خلق الدنيا والآخرة، ووجه ترتيبه للآخرة على الدنيا والمعرفة بمعنى النبوة والنبي ومعنى الوحي ومعنى الشيطان، ومعنى لفظ الملائكة والشياطين، وكيفية معاداة الشياطين للإنسان، وكيفية ظهور الملك للأنبياء، وكيفية وصول الوحي إليهم، والمعرفة بملكوت السموات والأرض، ومعرفة القلب، وكيفية تصادم جنود الملائكة والشياطين فيه، ومعرفة الفرق بين لَمَّةِ الملك ولمة الشيطان، ومعرفة الآخرة والجنة والنار،

وعذاب القبر، والصراط، والميزان والحساب، ومعنى قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ كِتابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾ ومعنى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ ومعنى لقاء الله عز وجل والنظر إلى وجهه الكريم، ومعنى القرب منه والنزول في جواره، ومعنى حصول السعادة بمرافقة الملأ الأعلى ومقارنة الملائكة والنبيين، ومعنى تفاوت درجات أهل الجنان حتى يرى بعضهم البعض كما يرى الكوكب الدري في جوف السماء، إلى غير ذلك مما يطول تفصيله، إذ للناس في معاني هذه الأمور بعد التصديق بأصولها مقامات شتى، فبعضهم يرى أن جميع ذلك أمثلة وأن الذي أعده الله لعباده الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خَطَرَ على قلب بشر، وأنه ليس مع الخلق من الجنة إلا الصفات والأسماء. وبعضهم يرى أن بعضها أمثلة وبعضها يوافق حقائقها المفهومة من ألفاظها، وكذا يرى بعضهم أن منتهى معرفة الله عز وجل الاعتراف بالعجز عن معرفته. وبعضهم يدعي أموراً عظيمة في المعرفة بالله عزّ وجل. وبعضهم يقول: حدّ معرفة الله عزّ وجل ما انتهى إليه اعتقاد جميع العوام، وهو أنه موجود عالم قادر سميع بصير متكلم. فنعني بعلم المكاشفة أن يرتفع الغطاء حتى تتضح له جلية الحق في هذه الأمور اتضاحاً يجري مجرى العيان الذي لا يشك فيه. وهذا ممكن في جوهر الإنسان لولا أن مرآة القلب قد تراكم صدؤها وخبثها بقاذورات الدنيا، وإنما نعني بعلم طريق الآخرة العلم بكيفية تصقيل هذه المرآة عن هذه الخبائث التي هي الحجاب عن الله سبحانه وتعالى وعن معرفة صفاته وأفعاله، وإنما تصفيتها وتطهيرها بالكف عن الشهوات، والاقتداء بالأنبياء صلوات الله عليهم في جميع أحوالهم. فبقدر ما ينجلي من القلب ويحاذي به شطر الحق يتلألأ فيه حقائقه، ولا سبيل إليه إلا بالرياضة التي يأتي تفصيلها في موضعها، وبالعلم والتعليم. وهذه هي العلوم التي لا تسطر في الكتب ولا يتحدث بها من أنعم الله عليه بشيء منها إلا مع أهله، وهو المشارك فيه، على سبيل المذاكرة وبطريق الإسرار. وهذا هو العلم الخفي الذي أراده صلى الله عليه وسلم بقوله:[1] «إِنَّ مِنَ الْعِلْمِ كَهَيْئَةِ الْمَكْنُونِ

---

(١) حديث: من العلم كهيئة المكنون... الحديث: أبو عبد الرحمن السلمي في الاربعين، =

لَا يَعْلَمُـهُ إلَّا أَهْلُ الْمَعْـرِفَةِ بـاللهِ تَعَالَى، فَـإذَا نَـطَقُـوا بِـهِ لَمْ يَجْهَلْهُ إلَّا أَهْـلُ الاغْتِرَارِ باللهِ تَعَالَى، فَلَا تَحْقِرُوا عَالِمَاً آتَاهُ اللهُ تَعَالَى عِلْمَاً مِنْهُ فَإنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَحْقِرْهُ إذْ آتَاهُ إيَّاهُ».

وأما القسم الثاني وهو علم المعاملة فهو علم أحوال القلب.

أما ما يحمد منها فكالصبر والشكر، والخوف والرجاء، والرضا والزهد والتقوى والقناعة والسخاء، ومعرفة المنة لله تعالى في جميع الأحوال، والإحسان وحسن الظن، وحسن الخلق وحسن المعاشرة، والصدق والإخلاص. فمعرفة حقائق هذه الأحوال وحدودها وأسبابها التي بها تكتسب، وثمرتها وعلاماتها ومعالجة ما ضعف منها حتى يقوى، وما زال حتى يعود، من علم الآخرة.

وأما ما يذم فخوف الفقر، وسخط المقدور، والغل والحقد، والحسد والغش، وطلب العلوّ وحب الثناء، وحب طول البقاء في الدنيا للتمتع، والكبرُ والرياء، والغضب والأنفة، والعداوة والبغضاء، والطمع والبخل، والرغبة والبذخ، والأشر والبطر، وتعظيم الأغنياء والاستهانة بالفقراء، والفخر والخيلاء والتنافس، والمباهاة، والاستكبار عن الحق والخوض فيما لا يعني، وحب كثرة الكلام، والصلف والتزين للخلق، والمداهنة والعجب، والاشتغال عن عيوب النفس بعيوب الناس، وزوال الحزن من القلب، وخروج الخشية منه، وشدة الانتصار للنفس إذا نالها الذل، وضعف الانتصار للحق، واتخاذ إخوان العلانية على عداوة السر، والأمن من مكر الله سبحانه في سلب ما أعطى، والاتكال على الطاعة، والمكر والخيانة والمخادعة، وطول الأمل والقسوة والفظاظة، والفرح بالدنيا والأسف على فواتها، والأنس بالمخلوقين والوحشة لفراقهم، والجفاء والطيش والعجلة، وقلة الحياء وقلة الرحمة. فهذه وأمثالها من صفات القلب مغارس الفواحش، ومنابت الأعمال المحظورة.

وأضدادها وهي الأخلاق المحمودة منبع الطاعات والقربات؛ فالعلم

= له في التصوف من حديث أبي هريرة بإسناد ضعيف.

بحدود هذه الأمور وحقائقها وأسبابها وثمراتها وعلاجها هو علم الآخـرة، وهو فرض عين في فتوى علماء الآخرة. فالمعرض عنها هالك بسطوة ملك الملوك في الاخرة؛ كما أن المعرض عن الأعمال الظاهرة هالك بسيف سلاطين الدنيا بحكم فتوى فقهاء الدنيا. فنظر الفقهاء في فروض العين، بالإضافة إلى صلاح الدنيا؛ وهذا بالإضافة إلى صلاح الآخرة. ولـو سئل فقيـه عن معنى من هذه المعاني حتى عن الإخلاص مثلاً أو عن التوكل أو عن وجه الاحتراز عن الرياء لتوقف فيه، مع أنه فرض عينه الذي في إهماله هلاكه في الآخرة. ولو سألته عن اللعان والظهار والسبق والرمي لسرد عليك مجلدات من التفريعات الدقيقة التي تنقضي الدهور ولا يحتاج إلى شيء منها، وإن احتيج لم تخل البلد عمن يقوم بها ويكفيه مؤونة التعب فيها، فلا يزال يتعب فيها ليلاً ونهاراً، وفي حفظه ودرسه ويغفل عما هو مهم نفسه في الدين، وإذا روجع فيه قال اشتغلت به لأنه علم الدين وفرض الكفاية، ويلبّس على نفسه وعلى غيره في تعلمه، والفطن يعلم أنه لو كان غرضه أداء حق الأمر في فرض الكفاية لقدّم عليه فرض العين، بل قدم عليه كثيراً من فروض الكفايات؛ فكم من بلدة ليس فيها طبيب إلا من أهـل الذمة، ولا يجوز قبول شهادتهم فيما يتعلق بالأطباء من أحكام الفقه ثم لا نرى أحداً يشتغل به، ويتهاترون على علم الفقه لا سيما الخلافيات والجدليات والبلد مشحون من الفقهاء بمن يشتغل بالفتوى والجواب عن الوقائع.

فليت شعري كيف يرخص فقهاء الدين في الاشتغال بفرض كفاية قد قام به جماعة، وإهمال ما لا قائم به؟ هل لهـذا سبب إلا أن الطب ليس يتيسر الوصول به إلى تولي الأوقاف والوصايا وحيازة مال الأيتام وتقلد القضاء والحكومة والتقدم به على الأقران والتسلط به على الأعداء، هيهات هيهات! قد اندرس علم الدين بتلبيس علماء السـوء، فالله تعـالى المستعان، وإليـه الملاذ في أن يعيذنا من هذا الغرور الذي يسخط الرحمٰن ويضحك الشيطان!

وقد كان أهل الورع من علماء الظاهر مقرين بفضل علماء الباطن وأرباب القلوب، كان الإمام الشافعي رضي الله عنه يجلس بين يدي شيبان الراعي كما يقعد الصبي في المكتب ويسأله كيف يفعل كذا وكذا؛ فيقال له: مثلك يسأل

هذا البدوي؟ فيقول: إن هذا وفق لما أغفلناه. وكان أحمد بن حنبل رضي الله عنه ويحيى بن معين يختلفان إلى معروف الكرخي ولم يكن في علم الظاهر بمنزلتهما وكانا يسألانه. وكيف وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] لما قيل له: كيف نفعل إذا جاءنا أمر لم نجده في كتاب ولا سنّة؟ فقال صلى الله عليه وسلم: «سَلُوا الصَّالِحِينَ واجْعَلُوهُ شُورَى بَيْنَهُمْ». ولذلك قيل: علماء الظاهر زينة الأرض والملك؛ وعلماء الباطن زينة السماء والملكوت. وقال الجنيد رحمه الله: قال لي السري شيخي يوماً: إذا قمت من عندي فمن تجالس؟ قلت المحاسبي فقال: نعم خذ من علمه وأدبه ودع عنك تشقيقه الكلام وردَّه على المتكلمين، ثم لما وليت سمعته يقول: جعلك الله صاحب حديث صوفياً، ولا جعلك صوفياً صاحب حديث. أشار إلى أن من حصّل الحديث والعلم ثم تصوف أفلح، ومن تصوف قبل العلم خاطر بنفسه

فإن قلت: فلم لم تورد في أقسام العلوم الكلام والفلسفة وتبين أنهما مذمومان أو محمودان؟ فاعلم أن حاصل ما يشتمل عليه علم الكلام من الأدلة التي ينتفع بها فالقرآن والأخبار مشتملة عليه، وما خرج عنهما فهو إما مجادلة مذمومة وهي من البدع كما سيأتي بيانه، وإما مشاغبة بالتعلق بمناقضات الفِرق لها، وتطويل بنقل المقالات التي أكثرها تُرَّهات وهذيانات تزدريها الطباع، وتمجها الأسماع، وبعضها خوض فيما لا يتعلق بالدين ولم يكن شيء منه مألوفاً في العصر الأول، وكان الخوض فيه بالكلية من البدع، ولكن تغير الآن حكمه إذ حدثت البدع الصارفة عن مقتضى القرآن والسنة، ونبغت جماعة لفقوا لها شبهاً ورتبوا فيها كلاماً مؤلفاً، فصار ذلك المحذور بحكم الضرورة مأذوناً فيه، بل صار من فروض الكفايات، وهو القدر الذي يقابل به المبتدع إذا قصد الدعوة إلى البدعة، وذلك إلى حد محدود سنذكره في الباب الذي يلي هذا، إن شاء الله تعالى.

وأما الفلسفة فليست علماً برأسها بل هي اربعة أجزاء:

---

(١) حديث: قيل له كيف نفعل إذا جاء أمر لم نجده في كتاب الله ولا سنّة رسوله... الحديث، الطبراني، من حديث ابن عباس فيه، عبد الله بن كيسان ضعفه الجمهور.

(**أحدهـا**) الهندسة والحساب وهما مباحان كما سبق، ولا يُمنع عنهما إلا من يُخاف عليه أن يتجاوز بهما إلى علوم مذمومة، فإن أكثر الممارسين لهما قد خرجوا منهما إلى البدع، فيصان الضعيف عنهما لا لعينهما، كما يصان الصبي عن شاطىء النهر خيفة عليه من الوقوع في النهر، وكما يصان حديث العهد بالإسلام عن مخالطة الكفار خوفاً عليه، مع أن القوي لا يندب إلى مخالطتهم.

(**الثاني**) المنطق، وهو بحث عن وجه الدليل وشروطه، ووجه الحد وشروطه، وهما داخلان في علم الكلام.

و(**الثالث**) الإلهيات، وهو بحث عن ذات الله سبحانه وتعالى وصفاته، وهو داخل في الكلام أيضاً. والفلاسفة لم ينفردوا فيها بنمط آخر من العلم، بل انفردوا بمذاهب بعضها كفر وبعضها بدعة. وكما أن الاعتزال ليس علماً برأسه بل أصحابه طائفة من المتكلمين، وأهل البحث والنظر انفردوا بمذاهب باطلة، فكذلك الفلاسفة.

و(**الرابع**) الطبيعيات، وبعضها مخالف للشرع والدين الحق، فهو جهل وليس بعلم حتى يورد في أقسام العلوم، وبعضها بحث عن صفات الأجسام وخواصها وكيفية استحالتها وتغيرها، وهو شبيه بنظر الأطباء، إلا أن الطبيب ينظر في بدن الإنسان على الخصوص من حيث يمرض ويصح، وهم ينظرون في جميع الأجسام من حيث تتغير وتتحرك. ولكن للطب فضل عليه وهو أنه محتاج إليه، وأما علومهم في الطبيعيات فلا حاجة إليها. فإذاً الكلام صار من جملة الصناعات الواجبة على الكفاية حراسة لقلوب العوام عن تخييلات المبتدعة، وإنما حدث ذلك بحدوث البدع، كما حدثت حاجة الإنسان إلى استئجار البذرقة في طريق الحج بحدوث ظلم العرب وقطعهم الطريق، ولو ترك العرب عدوانهم لم يكن استئجار الحراس من شروط طريق الحج، فلذلك لو ترك المبتدع هذيانه لما افتقر إلى الزيادة على ما عهد في عصر الصحابة رضي الله عنهم.

فليعلم المتكلم حدُّه من الدين، وأن موقعه منه موقع الحارس في طريق الحج، فإذا تجرّد الحارس للحراسة لم يكن من جملة الحاج، والمتكلم إذا

تجرّد للمناظرة والمدافعة ولم يسلك طريق الآخرة، ولم يشتغل بتعهد القلب وصلاحه لم يكن من جملة علماء الدين أصلاً، وليس عند المتكلم من الدين إلا العقيدة التي يشاركه فيها سائر العوام، وهي من جملة أعمال ظاهر القلب واللسان، وإنما يتميز عن العامي بصنعة المجادلة والحراسة، فأما معرفة الله تعالى وصفاته وأفعاله وجميع ما أشرنا إليه في علم المكاشفة فلا يحصل من علم الكلام، بل يكاد أن يكون الكلام حجاباً عليه ومانعاً عنه، وإنما الوصول إليه بالمجاهدة التي جعلها الله سبحانه مقدمة للهداية حيث قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾

فإن قلت: فقد رددت حدّ المتكلم إلى حراسة عقيدة العوام عن تشويش المبتدعة، كما أن حدّ البذرقة حراسة أقمشة الحجيج عن نهب العرب، ورددت حدّ الفقيه إلى حفظ القانون الذي به يكف السلطان شرّ بعض أهل العدوان عن بعض، وهاتان رتبتان نازلتان بالإضافة إلى علم الدين، وعلماء الأمة المشهورين بالفضل هم الفقهاء والمتكلمون، وهم أفضل الخلق عند الله تعالى، فكيف تنزل درجاتهم إلى هذه المنزلة السافلة بالإضافة إلى علم الدين؟

فاعلم أن من عرف الحقّ بالرجال، حار في متاهات الضلال، فاعرف الحقّ تعرف أهله إن كنت سالكاً طريق الحق، وإن قنعت بالتقليد والنظر إلى ما اشتهر من درجات الفضل بين الناس فلا تغفل عن الصحابة وعلو منصبهم، فقد أجمع الذين عرّضت بذكرهم على تقدمهم، وأنهم لا يدرك في الدين شأوهم ولا يشق غبارهم. ولم يكن تقدّمهم بالكلام والفقه، بل بعلم الآخرة وسلوك طريقها. وما فَضَل أبو بكر[1] رضي الله عنه الناسَ بكثرة صيام ولا صلاة ولا بكثرة رواية ولا فتوى ولا كلام ولكن بشيء وقر في صدره، كما شهد له سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم. فليكن حرصك في طلب ذلك السرّ، فهو الجوهر النفيس والدّر المكنون، ودع عنك ما تطابق أكثر الناس عليه وعلى تفخيمه وتعظيمه

---

(١) حديث: ما فَضل أبو بكر الناس بكثرة صلاة ولا بكثرة صيام... الحديث، الترمذي الحكيم في النوادر: من قوْل أبي بكر بن عبد الله المزني ولم أجده مرفوعاً.

لأسباب ودواع يطول تفصيلها، فلقد قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم عن آلاف من الصحابة رضي الله عنهم كلهم علماء بالله أثنى عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يكن فيهم أحد يحسن صنعة الكلام، ولا نصب نفسه للفتيا منهم أحد، إلا بضعة عشر رجلاً. ولقد كان ابن عمر رضي الله عنهما منهم، وكان إذا سئل عن الفتيا يقول للسائل: إذهب إلى فلان الأمير الذي تقلد أمور الناس وضعْها في عنقه. إشارة إلى أنّ الفتيا في القضايا والأحكام من توابع الولاية والسلطنة. ولما مات عمر رضي الله عنه قال ابن مسعود: مات تسعة أعشار العلم، فقيل له: أتقول ذلك وفينا جلة الصحابة؟ فقال: لم أرد علم الفتيا والأحكام إنما أريد العلم بالله تعالى؛ أفترى أنه أراد صنعة الكلام والجدل؟ فما بالك لا تحرص على معرفة ذلك العلم الذي مات بموت عمر تسعة أعشاره؟ وهو الذي سد باب الكلام والجدل، وضرب ضبيعاً بالدرّة لما أورد عليه سؤالاً في تعارض آيتين في كتاب الله، وهجره وأمر الناس بهجره.

وأما قولك: إن المشهورين من العلماء هم الفقهاء والمتكلمون، فاعلم أن ما يُنال به الفضل عند الله شيء، وما ينال به الشهرة عند الناس شيء آخر، فلقد كان شهرة أبي بكر الصديق رضي الله عنه بالخلافة، وكان فضله بالسر الذي وقر في قلبه. وكان شهرة عمر رضي الله عنه بالسياسة، وكان فضله بالعلم بالله الذي مات تسعة أعشاره بموته؛ وبقصده التقرّب إلى الله عز وجل في ولايته، وعدله وشفقته على خلقه، وهو أمر باطن في سره. فأما سائر أفعاله الظاهرة فيتصور صدورها من طالب الجاه والاسم والسمعة والراغب في الشهرة، فتكون الشهرة فيما هو المهلك، والفضل فيما هو سرّ لا يطلع عليه أحد. فالفقهاء والمتكلمون مثل الخلفاء والقضاة والعلماء، وقد انقسموا: فمنهم من أراد الله سبحانه بعلمه وفتواه وذبه عن سنّة نبيه، ولم يطلب به رياء ولا سمعة، فأولئك أهل رضوان الله تعالى، وفضلهم عند الله لعملهم بعلمهم، ولإرادتهم وجه الله سبحانه بفتواهم ونظرهم، فإن كل علم عمل، فإنه فعل مكتسب، وليس كل عمل علماً، والطبيب يقدر على التقرب إلى الله تعالى بعلمه فيكون مثابا على علمه من حيث إنه عامل لله سبحانه وتعالى به، والسلطان يتوسط بين الخلق لله فيكون مرضياً

عند الله سبحانه ومثاباً، لا من حيث إنه متكفل بعلم الدين، بل من حيث هو متقلد بعمل يقصد به التقرب إلى الله عزّ وجل بعلمه.

وأقسام ما يتقرب به إلى الله تعالى ثلاثة: علم مجرد وهو علم المكاشفة، وعمل مجرد وهو كعدل السلطان مثلاً وضبطه للناس، ومركب من عمل وعلم وهو علم طريق الآخرة، فإنّ صاحبه من العلماء والعمال جميعاً. فانظر إلى نفسك أتكون يوم القيامة في حزب علماء الله، أو عمال الله تعالى، أو في حزبيهما فتضرب بسهمك مع كل فريق منهما؛ فهذا أهم عليك من التقليد لمجرد الاشتهار كما قيل:

خذ ما تراه ودع شيئاً سمعت به   في طلعة الشمس ما يغنيك عن زحل

على أنّا سننقل من سيرة فقهاء السلف ما تعلم به أن الذين انتحلوا مذاهبهم ظلموهم؛ وأنهم من أشدّ خصمائهم يوم القيامة، فإنهم ما قصدوا بالعلم إلا وجه الله تعالى؛ وقد شوهد من أحوالهم ما هو من علامات علماء الآخرة كما سيأتي بيانه في باب علامات علماء الآخرة، فإنهم ما كانوا متجرّدين لعلم الفقه، بل كانوا مشتغلين بعلم القلوب ومراقبين لها، ولكن صرفهم عن التدريس والتصنيف فيه ما صرف الصحابة عن التصنيف والتدريس في الفقه مع أنهم كانوا فقهاء مستقلين بعلم الفتوى، والصوارف والدواعي متيقنة، ولا حاجة إلى ذكرها.

ونحن الآن نذكر من أحوال فقهاء الإسلام ما تعلم به أن ما ذكرناه ليس طعناً فيهم، بل هو طعن فيمن أظهر الاقتداء بهم منتحلاً مذاهبهم وهو مخالف لهم في أعمالهم وسيرهم.

فالفقهاء الذين هم زعماء الفقه وقادة الخلق، أعني الذين كثر أتباعهم في المذاهب، خمسة: الشافعي، ومالك، وأحمد بن حنبل، وأبو حنيفة، وسفيان الثوري رحمهم الله تعالى. وكل واحد منهم كان عابداً، وزاهداً، وعالماً بعلوم الآخرة، وفقيهاً في مصالح الخلق في الدنيا، ومريداً بفقهه وجه الله تعالى. فهذه خمس خصال اتبعهم فقهاء العصر من جملتها على خصلة واحدة، وهي التشمير والمبالغة في تفاريع الفقه، لأن الخصال الأربع لا تصلح إلا للآخرة، وهذه

الخصلة الواحدة تصلح للدنيا والآخرة، إن أريد بها الآخرة قلّ صلاحها للدنيا، شمروا لها وادّعوا بها مشابهة أولئك الأئمة، وهيهات أن تقاس الملائكة بالحدّادين.

فلنورد الآن من أحوالهم ما يدل على هذه الخصال الأربع، فإن معرفتهم بالفقه ظاهرة:

أما الإمام الشافعي رحمه الله تعالى فيدل على أنه كان عابداً ما رُوي أنه كان يقسم الليل ثلاثة أجزاء: ثُلثاً للعلم، وثلثاً للعبادة، وثلثاً للنوم. قال الربيع: كان الشافعي رحمه الله يختم القرآن في رمضان ستين مرة كل ذلك في الصلاة. وكان البويطي أحد أصحابه يختم القرآن في رمضان في كل يوم مرة. وقال الحسن الكرابيسي: بتٌّ مع الشافعي غير ليلة فكان يصلي نحواً من ثلث الليل فما رأيته يزيد على خمسين آية، فإذا أكثر فمائة آية، وكان لا يمر بآية رحمة إلا سأل الله تعالى لنفسه ولجميع المسلمين والمؤمنين، ولا يمر بآية عذاب إلا تعوّذ فيها وسأل النجاة لنفسه وللمؤمنين؛ وكأنما جمع له الرجاء والخوف معاً. فانظر كيف يدل اقتصاره على خمسين آية على تبحره في أسرار القرآن وتدبره فيها. وقال الشافعي رحمه الله: ما شبعت منذ ست عشرة سنة، لأن الشبع يثقل البدن، ويقسي القلب، ويزيل الفطنة، ويجلب النوم، ويضعف صاحبه عن العبادة. فانظر إلى حكمته في ذكر آفات الشبع، ثم في جدّه في العبادة إذ طرح الشبع لأجلها، ورأس التعبد تقليل الطعام. وقال الشافعي رحمه الله: ما حلفت بالله تعالى لا صادقاً ولا كاذباً قط. فانظر إلى حرمته وتوقيره لله تعالى، ودلالة ذلك على علمه بجلال الله سبحانه.

وسئل الشافعي رضي الله عنه عن مسألة فسكت، فقيل له: ألا تجيب رحمك الله! فقال: حتى أدري الفضل في سكوتي أو في جوابي: فانظر في مراقبته للسانه مع أنه أشدّ الأعضاء تسلطاً على الفقهاء، وأعصاها عن الضبط والقهر. وبه يستبين أنه كان لا يتكلم ولا يسكت إلا لنيل الفضل وطلب الثواب. وقال أحمد بن يحيى بن الوزير: خرج الشافعي رحمه الله تعالى يوماً من سوق القناديل فتبعناه فإذا رجل يسفه على رجل من أهل العلم، فالتفت الشافعي إلينا

وقال: نزهوا أسماعكم عن استماع الخنا كما تنزهون ألسنتكم عن النطق به، فإن المستمع شريك القائل، وإن السفيه لينظر إلى أخبث شيء في إنائه فيحرص أن يفرغه في أوعيتكم، ولو ردّت كلمة السفيه لسعد رادّها كما شقي بها قائلها. وقال الشافعي رضي الله عنه: كتب حكيم إلى حكيم: قد أوتيت علماً فلا تدنس علمك بظلمة الذنوب فتبقى في الظلمة يوم يسعى أهل العلم بنور علمهم.

وأما زهده رضي الله عنه قال الشافعي رحمه الله: من ادّعى أنه جمع بين حب الدنيا وحب خالقها في قلبه فقد كذب. وقال الحميدي: خرج الشافعي رحمه الله إلى اليمن مع بعض الولاة فانصرف إلى مكة بعشرة آلاف درهم، فضرب له خباء في موضع خارجاً من مكة فكان الناس يأتونه، فما برح من موضعه ذلك حتى فرّقها كلها. وخرج من الحمام مرة فأعطى الجمامي مالاً كثيراً. وسقط سوطه من يده مرة فرفعه إنسان إليه فأعطاه جزاء عليه خمسين ديناراً. وسخاوة الشافعي رحمه الله أشهر من أن تحكى، ورأس الزهد السخاء، لأن من أحبّ شيئاً أمسكه ولم يفارقه، فلا يفارق المال إلا من صغرت الدنيا في عينه، وهو معنى الزهد.

ويدل على قوة زهده وشدة خوفه من الله تعالى واشتغال همته بالآخرة ما رُوي أنه رَوى سفيان بن عيينة حديثاً في الرقائق فغشي على الشافعي، فقيل له: قد مات، فقال: إن مات فقد مات أفضل زمانه. وما رَوى عبد الله بن محمد البلوي قال: كنت أنا وعمر بن نباتة جلوساً نتذاكر العبّاد والزهاد، فقال لي عمر: ما رأيت أروع ولا أفصح من محمد بن ادريس الشافعي رضي الله عنه: خرجت أنا وهو والحارث بن لبيد إلى الصفا، وكان الحارث تلميذ لصالح المري فافتتح يقرأ وكان حسن الصوت، فقرأ هذه الآية: ﴿هَذَا يَوْمُ لا يَنْطِقُونَ. وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ فرأيت الشافعي رحمه الله وقد تغير لونه، واقشعر جلده، واضطرب اضطراباً شديداً، وخرّ مغشياً عليه، فلما أفاق جعل يقول: أعوذ بك من مقام الكاذبين، وإعراض الغافلين، اللهم لك خضعت قلوب العارفين، وذلت لك رقاب المشتاقين، إلهي هب لي جودك وجللني بسترك، واعف عن تقصيري بكرم وجهك! قال ثم مشى وانصرفنا، فلما دخلت بغداد وكان هو بالعراق

فقعدت على الشط أتوضأ للصلاة إذ مر بي رجل فقـال لي: يا غـلام أحسن وضوءك أحسن الله إليك في الدنيا والآخرة. فالتفت فإذا أنا برجل يتبعه جماعة فأسرعت في وضوئي وجعلت أقفو أثره، فالتفت إليّ فقال: هل لك من حاجة؟ فقلت: نعم تعلمني مما علمك الله شيئاً. فقال لي: اعلم أن من صَدَق الله نجا، ومن أشفق على دينه سلم من الردى، ومن زهد في الدنيا قرّت عيناه بما يراه من ثواب الله تعالى غدا، أفلا أزيدك؟ قلت: نعم. قال: من كان فيه ثلاث خصال فقد استكمل الإيمان: من أمر بـالمعروف وائتمـر، ونهى عن المنكر وانتهى، وحافظ على حدود الله تعالى. ألا أزيدك؟ قلت: بلى. فقال: كن في الدنيـا زاهداً وفي الآخرة راغباً، وأصدق الله تعالى في جميع أمورك تنج مع الناجين. ثم مضى، فسألت من هذا؟ فقالوا: هو الشافعي. فانظر إلى سقـوطه مغشيـاً عليه، ثم إلى وعظه، كيف يدل ذلك على زهده وغاية خوفه؛ ولا يحصل هذا الخوف والزهد إلا من معرفة الله عز وجـل، فإنـه ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَـادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾. ولـم يستفد الشافعي رحمه الله هذا الخوف والزهد من علم كتـاب السَّلَم والإجارة وسائر كتب الفقه؛ بل هو من علوم الآخرة المستخرجة من القرآن والأخبار؛ إذ حكم الأولين والآخرين مودعة فيهما.

وأما كونه عالماً بأسرار القلب وعلوم الآخرة فتعرفه من الحكم المأثورة عنه: رُوِي أنه سئل عن الرياء فقال على البديهة: الرياء فتنة عقدها الهوى حيال أبصار قلوب العلماء فنظروا إليها بسوء اختيار النفوس فأحبطت أعمالهم. وقال الشافعي رحمه الله تعالى: إذا أنت خفت على عملك العجب فانظر رضا من تطلب، وفي أي ثواب ترغب، ومن أي عقاب ترهب، وأي عافية تشكر، وأي بلاء تذكر، فإنك إذا تفكرت في واحـدة من هذه الخصـال صغر في عينيـك عملك. فانظر كيف ذكـر حقيقة الـرياء وعـلاج العجب وهما من كبـار آفات القلب. وقال الشافعي رضي الله عنه: من لم يصن نفسه لم ينفعه علمه. وقال رحمه الله: من أطاع الله تعالى بالعلم نفعه سره. وقال: ما من أحـد إلا له محب ومبغض، فإذا كان كذلك فكن مع أهلِ طـاعة الله عـز وجل. ورُوِيَ أن عبـد القاهر بن عبد العزيز كان رجلاً صالحاً ورعاً، وكان يسأل الشافعي رضي الله عنه

عن مسائل في الورع، والشافعي رحمه الله يُقبل عليه لورعه.

وقال للشافعي يوماً: أيها أفضل: الصبر، أو المحنة، أو التمكين؟ فقال الشافعي رحمه الله: التمكين درجة الأنبياء ولا يكون التمكين إلا بعد المحنة، فإذا امتحن صبر، وإذا صبر مكن، ألا ترى أن الله عز وجل امتحن ابراهيم عليه السلام ثم مكّنه، وامتحن موسى عليه السلام ثم مكّنه، وامتحن أيوب عليه السلام ثم مكّنه، وامتحن سليمان عليه السلام ثم مكّنه وآتاه ملكاً؟ والتمكين أفضل الدرجات، قال الله عز وجل: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ وأيوب عليه السلام بعد المحنة العظيمة مكّن، قال الله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ﴾ الآية، فهذا الكلام من الشافعي رحمه الله يدل على تبحره في أسرار القرآن، واطلاعه على مقامات السائرين إلى الله تعالى من الأنبياء والأولياء، وكل ذلك من علوم الآخرة.

وقيل للشافعي رحمه الله: متى يكون الرجل عالماً؟ قال: إذا تحقق في علم فعلمه وتعرض لسائر العلوم فنظر فيما فاته، فعند ذلك يكون عالماً، فإنه قيل لجالينوس: إنك تأمر للداء الواحد بالأدوية الكثيرة المجمعة، فقال: إنما المقصود منها واحد، وإنما يجعل معه غيره لتسكن حدّته لأن الإفراد قاتل. فهذا وأمثاله مما لا يحصى يدل على علوّ رتبته في معرفة الله تعالى وعلوم الآخرة.

وأما إرادته بالفقه والمناظرة فيه وجه الله تعالى، فيدل عليه ما رُوي عنه أنه قال: وددت أن الناس انتفعوا بهذا العلم وما نسب إليّ شيء منه. فانظر كيف اطلع على آفة العلم وطلب الاسم له، وكيف كان منزّه القلب عن الالتفات إليه، مجرد النية فيه لوجه الله تعالى! وقال الشافعي رضي الله عنه: ما ناظرت أحداً قط فأحببت أن يخطىء. وقال: ما كلمت أحداً قط إلا أحببت أن يوفق ويسدّد ويعان ويكون عليه رعاية من الله تعالى وحفظ، وما كلمت أحداً قط وأنا أبالي أن يبين الله الحق على لساني أو على لسانه. وقال: ما أوردت الحق والحجة على أحد فقبلها مني إلا هبته واعتقدت محبته، ولا كابرني أحد على الحق ودافع الحجة إلا سقط من عيني ورفضته. فهذه العلامات هي التي تدل على إرادة الله تعالى بالفقه والمناظرة. فانظر كيف تابعه الناس من جملة هذه الخصال الخمس

على خصلة واحدة فقط، ثم كيف خالفوه فيها أيضاً! ولهذا قال أبو ثور رحمه الله: ما رأيت ولا رأى الراؤون مثل الشافعي رحمه الله تعالى.

وقال أحمد بن حنبل رضي الله عنه: ما صليت صلاة منذ أربعين سنة إلا وأنا أدعو للشافعي رحمه الله تعالى. فانظر إلى إنصاف الداعي، وإلى درجة المدعوّ له، وقس به الأقران والأمثال من العلماء في هذه الأعصار وما بينهم من المشاحنة والبغضاء لتعلم تقصيرهم في دعوى الاقتداء بهؤلاء. ولكثرة دعائه له قال له ابنه: أي رجل كان الشافعي حتى تدعو له كل هذا الدعاء؟ فقال أحمد: يا بُني كان الشافعي رحمه الله تعالى كالشمس للدنيا، وكالعافية للناس. فانظر هل لهذين من خلف؟ وكان أحمد رحمه الله يقول: ما مس أحد بيد محبرة إلا وللشافعي رحمهُ الله في عنقه منه. وقال يحيى بن سعيد القطان: ما صليت صلاة منذ أربعين سنة إلا وأنا أدعو فيها للشافعي لما فتح الله عز وجل عليه من العلم، ووفقه لسداد فيه.

ولنقتصر على هذه النبذة من أحواله، فإن ذلك خارج عن الحصر. وأكثر هذه المناقب نقلناه من الكتاب الذي صنفه الشيخ نصر بن ابراهيم المقدسي رحمه الله تعالى في مناقب الشافعي رضي الله عنه وعن جميع المسلمين.

وأما الإمام مالك رضي الله عنه فإنه كان أيضاً متحلياً بهذه الخصال الخمس، فإنه قيل له: ما تقول يا مالك في طلب العلم؟ فقال: حسن جميل ولكن انظر إلى الذي يلزمك من حين تصبح إلى حين تمسي فالزمه. وكان رحمه الله تعالى في تعظيم علم الدين مبالغاً، حتى كان إذا أراد أن يحدّث توضأ وجلس على صدر فراشه وسرّح لحيته واستعمل الطيب وتمكن من الجلوس على وقار وهيبة ثم حدّث. فقيل له في ذلك، فقال: أحبّ أن أعظم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقال مالك: العلم نور يجعله الله حيث يشاء وليس بكثرة الرواية. وهذا الاحترام والتوقير يدل على قوّة معرفته بجلال الله تعالى.

وأما إرادته وجهَ الله تعالى بالعلم فيدل عليه قوله: «الجدال في الدين ليس بشيء». ويدل عليه قول الشافعي رحمه الله: إني شهدت مالكاً وقد سئل عن ثمان وأربعين مسألة فقال في اثنتين وثلاثين منها: لا أدري. ومن يرد غير

وجه الله تعالى بعلمه فلا تسمح نفسه بأن يقر على نفسه بأنه لا يدري. ولذلك قال الشافعي رضي الله عنه: إذا ذكر العلماء فمالك النجم الثاقب، وما أحد أمَّن عليّ من مالك. ورُوي أن أبا جعفر المنصور منعه من رواية الحديث في طلاق المكره ثم دسّ عليه من يسأله، فرَوى على ملأ من الناس: «ليس على مستكره طلاق» فضربه بالسياط، ولم يترك رواية الحديث. وقال مالك رحمه الله: ما كان رجل صادقاً في حديثه ولا يكذب إلا متع بعقله ولم يصبه مع الهرم آفة ولا خرف.

وأما زهده في الدنيا فيدل عليه ما رُوي أن المهدي أمير المؤمنين سأله فقال له: هل لك من دار؟ فقال لا ولكن أحدّثك: سمعت ربيعة بن أبي عبد الرحمن يقول: نسب المرء داره. وسأله الرشيد: هل لك دار؟ فقال: لا، فأعطاه ثلاثة آلاف دينار وقال اشتر بها داراً، فأخذها ولم ينفقها، فلما أراد الرشيد الشخوص قال لمالك رحمه الله: ينبغي أن تخرج معنا فإني عزمت على أن أحمل الناس على الموطأ كما حمل عثمان رضي الله عنه الناس على القرآن، فقال له: أما حمل الناس على الموطأ فليس إليه سبيل لأن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم افترقوا بعده في الأمصار فحدثوا فعند كل أهل مصر علم، وقد قال صلى الله عليه وسلم «اخْتِلَافُ أُمَّتِي رَحْمَةٌ»[1]: وأما الخروج معك فلا سبيل إليه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:[2] «المَدِينَةُ خَيرٌ لَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ» وقال عليه الصلاة والسلام:[3] «المَدِينَةُ تَنْفِي خَبَثَهَا كَمَا يَنْفِي الْكِيرُ خَبَثَ الحَدِيدِ» وهذه دنانيركم كما هي إن شئتم فخذوها وإن شئتم فدعوها. يعني إنك إنما تكلفني مفارقة المدينة لما اصطنعته إليّ، فلا أوثر الدنيا على مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم. فهكذا كان زهد مالك في الدنيا. ولما حملت إليه الأموال الكثيرة من أطراف الدنيا لانتشار علمه وأصحابه كان يفرّقها في وجوه الخير، ودل سخاؤه على زهده وقلة حبه للدنيا، وليس الزهد فقد المال، وإنما

---

(١) حديث. اختلاف أمتي رحمة: ذكره البيهقي في رسالته الأشعرية تعليقاً، وأسنده في المدخل من حديث ابن عباس بلفظ: اختلاف أصحابي لكم رحمة، وإسناده ضعيف.

(٢) حديث: المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون، متفق عليه من حديث سفيان بن أبي زهير.

(٣) حديث: المدينة تنفي خبثها... الحديث، متفق عليه من حديث أبي هريرة.

الزهد فراغ القلب عنه. ولقد كان سليمان عليه السلام في ملكه من الزهاد. ويدل على احتقاره للدنيا ما رُوي عن الشافعي رحمه الله أنه قال: رأيت على باب مالك كراعا من أفراس خراسان ويقال مصر ما رأيت أحسن منه، فقلت لمالك رحمه الله: ما أحسنه! فقال: هو هدية مني إليك يا أبا عبد الله، فقلت دع لنفسك منها دابة تركبها، فقال إني أستحي من الله تعالى أن أطأ تربة فيها نبيّ الله صلى الله عليه وسلم بحافر دابة. فانظر إلى سخائه إذ وهب جميع ذلك دفعة واحدة، وإلى توقيره لتربة المدينة.

ويدل على إرادته بالعلم وجه الله تعالى واستحقاره للدنيا ما رُوي عنه أنه قال: دخلت على هارون الرشيد فقال لي: يا أبا عبد الله ينبغي أن تختلف إلينا حتى يسمع صبياننا منك الموطأ. قال فقلت: أعز الله مولانا الأمير: إن هذا العلم منكم خرج، فإن أنتم أعززتموه عزّ، وإن أنتم أذللتموه ذلَّ، والعلم يؤتى ولا يأتي. فقال صدقت، اخرجوا إلى المسجد حتى تسمعوا مع الناس.

وأمّا أبو حنيفة رحمه الله تعالى لقد كان أيضاً عابداً، زاهداً، عارفاً بالله تعالى، خائفاً منه، مريداً وجه الله تعالى بعلمه.

فأما كونه عابداً فيعرف بما روي عن ابن المبارك أنه قال: كان أبو حنيفة رحمه الله له مروءة وكثرة صلاة. وروى حماد بن أبي سليمان أنه كان يحيي الليل كله. وروي أنه كان يحيي نصف الليل فمر يوماً في طريق فأشار إليه إنسان وهو يمشي، فقال لآخر: هذا هو الذي يحيي الليل كله، فلم يزل بعد ذلك يحيي الليل كله؛ وقال أنا أستحي من الله سبحانه أن أوصف بما ليس فيّ من عبادته.

وأما زهده فقد روي عن الربيع بن عاصم قال: أرسلني يزيد بن عمر بن هبيرة فقدمت بأبي حنيفة عليه، فأراده أن يكون حاكماً على بيت المال فأبى، فضربه عشرين سوطاً. فانظر كيف هرب من الولاية واحتمل العذاب. قال الحكم بن هشام الثقفي: حدثت بالشام حديثاً في أبي حنيفة أنه كان من أعظم الناس أمانة، وأراده السلطان على أن يتولى مفاتيح خزائنه أو يضرب ظهره فاختار عذابهم له على عذاب الله تعالى. وروي أنه ذُكر أبو حنيفة عند ابن المبارك

فقال: أتذكرون رجلاً عرضت عليه الدنيا بحذافيرها ففرّ منها! وروي عن محمد بن شجاع عن بعض أصحابه أنه قيل لأبي حنيفة: قد أمر لك أمير المؤمنين أبو جعفر المنصور بعشرة آلاف درهم، قال: فما رضي أبو حنيفة، قال: فلما كان اليوم الذي توقع أن يؤتى بالمال فيه صلى الصبح ثم تغشى بثوبه فلم يتكلم، فجاء رسول الحسن بن قحطبة بالمال فدخل عليه فلم يكلمه، فقال بعض من حضر: ما يكلمنا إلا بالكلمة بعد الكلمة، أي هذه عادته، فقال ضعوا المال في هذا الجراب في زاوية البيت، ثم أوصى أبو حنيفة بعد ذلك بمتاع بيته؛ وقال لابنه: إذا مت ودفنتموني فخذ هذه البدرة واذهب بها إلى الحسن بن قحطبة فقل له: خذ وديعتك التي أودعتها أبا حنيفة. قال ابنه: ففعلت ذلك، فقال الحسن: رحمة الله على أبيك فلقد كان شحيحاً على دينه. وروي أنه دعي إلى ولاية القضاء فقال: أنا لا أصلح لهذا، فقيل له: لم؟ فقال: إن كنت صادقاً فما أصلح لها، وإن كنت كاذباً فالكاذب لا يصلح للقضاء.

وأما علمه بطريق الآخرة وطريق أمور الدين ومعرفته بالله عزّ وجل، فيدل عليه شدة خوفه من الله تعالى وزهده في الدنيا. وقد قال ابن جريج: قد بلغني عن كوفيكم هذا النعمان بن ثابت أنه شديد الخوف لله تعالى. وقال شريك النخعي: كان أبو حنيفة طويل الصمت دائم الفكر، قليل المحادثة للناس. فهذا من أوضح الأمارات على العلم الباطني، والاشتغال بمهمات الدين، فمن أوتي الصمت والزهد فقد أوتي العلم كله. فهذه نبذة من أحوال الأئمة الثلاثة.

وأما الإمام أحمد بن حنبل وسفيان الثوري رحمهما الله تعالى فأتباعهما أقلّ من أتباع هؤلاء، وسفيان أقلّ أتباعاً من أحمد، ولكن اشتهارهما بالورع والزهد أظهر. وجميع هذا الكتاب مشحون بحكايات أفعالهما وأقوالهما، فلا حاجة إلى التفصيل الآن، فانظر الآن في سير هؤلاء الأئمة الثلاثة. وتأمّل أن هذه الأحوال والأقوال والأفعال في الإعراض عن الدنيا والتجرد لله عز وجل هل يثمرها مجرد العلم بفروع الفقه، من معرفة السلم والإجارة والظهار والإيلاء واللعان، أو يثمرها علم آخر أعلى وأشرف منه؟ وانظر إلى الذين ادّعوا الاقتداء بهؤلاء أصدقوا في دعواهم أم لا؟

الفصل الثالث
فيما

يعده العامة من العلوم المحمودة وليس منها ،
وفيه بيان الوجه الذي قد يكون
بين بعض العلوم مذموماً ،
وبيان تبديل أسامي العلوم وهو الفقه والعلم
والتوحيد والتذكير والحكمة ،
وبيان القدر المحمود من العلوم الشرعية
والقدر المذموم منها

بيـان
علة ذم العلم المذموم

لعلك تقول: العلم هو معرفة الشيء على ما هو به وهو من صفات الله تعالى فكيف يكون الشيء علماً ويكون مع كونه علماً مذموماً؟ فاعلم أن العلم لا يُـذم لعينه وإنما يذم في حق العباد لأحد أسباب ثلاثة:

الأول: أن يكون مؤدياً إلى ضرر مَا، إما لصاحبه أو لغيره كما يُذم علم السحر والطلمسات، وهو حقّ إذ شهد القرآن لهَ، وأنه سبب يتـوصل بـه إلى التفرقة بين الزوجين. وقد «سُحر[1] رسول الله صلى الله عليه وسلم ومرض بسببه حتى أخبره جبريل عليه السلام بذلك، وأُخرج السحرُ من تحت حَجَر في قعر بئر» وهو نـوع يستفاد من العلم بخـواص الجواهـر وبأمـور حسابية في مطالع النجوم، فيتخذ من تلك الجواهر هيكل على صورة الشخص المسحور، ويرصد به وقت مخصوص من المطالع، وتقرن به كلمات يتلفظ بها من الكفر والفحش المخـالف للشرع، ويتـوصل بسببهـا إلى الاستعانـة بالشيـاطين، ويحصِل من مجمـوع ذلك، بحكم إجـراء الله تعالى العـادة، أحـوال غـريبـة في الشخص المسحور. ومعرفة هذه الأسباب من حيث إنها معرفة ليست بمذمومة، ولكنها ليست تصلح إلا للإضرار بالخلق، والوسيلة إلى الشرّ شرّ، فكان ذلك هو السبب في كونه علماً مذموماً، بل من اتبع ولياً من أولياء الله ليقتله وقـد اختفى منه في مـوضع حريز إذا سأل الظالم عن محله لم يجز تنبيهه عليه، بل وجب الكذب فيه، وذكر

---

(١) حديث سحر رسول الله صلى الله عليه وسلم: متفق عليه من حديث عائشة.

موضعه إرشاد وإفادةُ علمٍ بالشيء على ما هو عليه، ولكنـه مذمـوم لأدائه إلى الضرر.

الثاني: أن يكون مضراً بصاحبه في غالب الأمر كعلم النجوم، فإنه في نفسه غير مذموم لذاته، إذ هو قسمان: قسم حسابي، وقد نطق القرآن بأن مسير الشمس والقمر محسوب، إذ قال عزّ وجل: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ وقال عزّ وجل: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾. والثاني الأحكام، وحاصله يرجع إلى الاستدلال على الحوادث بالأسباب، وهو يضاهي استدلال الطبيب بالنبض على ما سيحدث من المرض، وهو معـرفة لمجـاري سنّة الله تعالى وعادته في خلقه، ولكن قد ذمّه الشرع، قال صلى الله عليه وسلم[1] «إِذَا ذُكِرَ القَدَرُ فَأَمْسِكُوا، وَإِذَا ذُكِرَتِ النُّجُومُ فَأَمْسِكُوا، وَإِذَا ذُكِرَ أَصْحَابِي فَأَمْسِكُوا». وقال صلى الله عليه وسلم[2] «أَخَـافُ عَلَى أُمَّتِي بَعْدِي ثَـلاثاً: حَيْفُ الأَئِمَّـةِ، والإِيمَانُ بِالنُّجُومِ، والتَّكْذِيبُ بالْقَدَرِ» وقـال عمر بن الخـطاب رضي الله عنه: تعلموا من النجوم ما تهتدون به في البرّ والبحر ثم امسكوا، وإنما زجر عنه من ثلاثة أوجه: (أحدهـا) أنه مضر بأكثر الخلق، فـإنه إذا ألقي إليهم أن هذه الآثار تحدث عقيب سير الكواكب وقع في نفوسهم أن الكواكب هي المؤثرة، وأنها الآلهـة المدبـرة، لأنها جـواهر شـريفة سمـاوية، ويعـظم وقعهـا في القلوب، فيبقى القلب ملتفتـاً إليهـا، ويَـرى الخيـر والشـرّ محـذوراً أو مـرجّـوا من جهتها، وينمحي ذكر الله سبحانه عن القلب. فإن الضعيف يقصر نـظره على الوسائط، والعـالم الراسـخ هو الـذي يطلع على أن الشمس والقمـر والنجوم مسخرات بأمره سبحانه وتعالى. ومثال نظر الضعيف إلى حصول ضوء الشمس عقيب طلوع الشمس مثال النملة لو خلق لها عقل وكانت على سطح قرطاس وهي تنظر إلى سواد الخط يتجدد، فتعتقد أنه فعل القلم ولا تترقى في نظرها إلى

---

(١) حديث إذا ذكر القدر فأمسكوا... الحديث: رواه الطبراني من حديث ابن مسعود بإسناد حسن.

(٢) حديث: أخاف على أمتي بعدي ثلاثاً ـ الحديث: ابن عبد البر من حديث أبي محجن بإسناد ضعيف.

مشاهدة الأصابع، ثم منها إلى اليد، ثم منها إلى الإرادة المحركة لليد، ثم منها إلى الكاتب القادر المريد، ثم منه إلى خالق اليد والقدرة والإرادة، فأكثر نظر الخلق مقصور على الأسباب القريبة السافلة، مقطوع من الترقي إلى مسبب الأسباب. فهذا أحد أسباب النهي عن النجوم. و(ثانيها) أن أحكام النجوم تخمين محض ليس يدرك في حق آحاد الأشخاص لا يقيناً ولا ظناً، فالحكم به حكم بجهل، فيكون ذمه على هذا من حيث إنه جهل لا من حيث إنه علم، فلقد كان ذلك معجزة لادريس عليه السلام فيما يحكى، وقد اندرس وانمحى ذلك العلم وانمحق، وما يتفق من إصابة المنجم على ندور فهو اتفاق، لأنه قد يطلع على بعض الأسباب ولا يحصل المسبب عقيبها إلا بعد شروط كثيرة ليس في قدرة البشر الاطلاع على حقائقها، فإن اتفق أن قدر الله تعالى بقية الأسباب وقعت الإصابة، وإن لم يقدر أخطأ، ويكون ذلك كتخمين الإنسان في أن السماء تمطر اليوم مهما رأى الغيم يجتمع وينبعث من الجبال فيتحرك ظنه بذلك، وربما يحمي النهار بالشمس ويذهب الغيم، وربما يكون بخلافه، ومجرد الغيم ليس كافياً في مجيء المطر، وبقية الأسباب لا تدرى، وكذلك تخمين الملّاح أن السفينة تسلم اعتماداً على ما ألفه من العادة في الرياح، ولتلك الرياح أسباب خفية هو لا يطلع عليها، فتارة يصيب في تخمينه وتارة يخطىء، ولهذه العلة يمنع القوى عن النجوم أيضاً. و(ثالثها) أنه لا فائدة فيه فأقل أحواله أنه خوض في فضول لا يغني، وتضييع العمر الذي هو أنفس بضاعة الإنسان في غير فائدة، وذلك غاية الخسران فقد «مرّ[1] رسول الله صلى الله عليه وسلم برجل والناس مجتمعون عليه فقال: ما هذا؟ فقالوا: رجل علامة، فقال بماذا؟ قالوا بالشعر وأنساب العرب، فقال: عِلْمٌ لا يَنْفَعُ وَجَهْلٌ لا يَضُرُّ». وقال صلى الله عليه وسلم «إِنَّمَا الْعِلْمُ آيَةٌ مُحْكَمَةٌ أَوْ سُنَّةٌ قَائِمَةٌ أَوْ فَرِيضَةٌ عَادِلَةٌ». فإذاً الخوض في النجوم

(١) حديث مر رسول الله صلى الله عليه وسلم برجل والناس مجتمعون فقال ما هذا فقالوا رجل علامة ـ الحديث: ابن عبد البر من حديث أبي هريرة وضعفه وفي آخر الحديث «إنما العلم آية محكمة» إلى آخره، وهذه القطعة عند أبي داود وابن ماجة من حديث عبد الله بن عمرو.

وما يشبهه اقتحام خطر، وخوض في جهالة من غيرْ فائدة، فإن ما قـدر كائن والاحتراز منه غير ممكن، بخلاف الطب فإن الحاجة ماسة إليه، وأكثر أدلته بما يطلع عليه، وبخلاف التعبير وإن كان تخميناً لأنه جزءٌ من ستة وأربعين جزءاً من النبوة ولا خطر فيه.

السبب الثالث: الخوض في علم لا يستفيد الخائض فيه فائدة علم، فهو مذموم في حقه كتعلم دقيق العلوم قبل جليلها، وخفيها قبل جليها، وكالبحث عن الأسرار الإلهية، إذ تطلع الفلاسفة والمتكلمون إليها ولم يستقلوا بها، ولم يستقل بها وبالوقوف على طرق بعضها إلا الأنبياء والأولياء، فيجب كف الناس عن البحث عنها، وردهم إلى ما نطق به الشرع، ففي ذلك مقنع للموفق. فكم من شخص خاض في العلوم واستضرّ بها، ولو لم يخض فيها لكان حاله أحسن في الدين مما صار إليه. ولا ينكر كون العلم ضاراً لبعض الناس كما يضر لحم الطير وأنواع الحلوى اللطيفة بالصبي الرضيع، بل رب شخص ينفعـه الجهل ببعض الأمور، فلقد حكي أن بعض الناس شكا إلى طبيب عقم امرأته وأنها لا تلد فجس الطبيب نبضها وقال: لا حاجة لك إلى دواء الولادة فإنك ستموتين إلى أربعين يوماً وقد دل النبض عليه، فاستشعرت المـرأة الخوف العـظيم وتنغص عليها عيشها؛ وأخرجت أموالها وفرقتها؛ وأوصت، وبقيت لا تأكل ولا تشرب حتى انقضت المدة؛ فلم تمـت، فجاء زوجها إلى الطبيب وقال له لم تمت؛ فقال الطبيب: قد علمت ذلك فجامعْها الآن فإنها تلد. فقال: كيف ذاك؟ قال رأيتها سمينة وقد انعقد الشحم على فم رحمها فعلمت أنها لا تهزل إلا بخوف الموت؛ فخوفتها بذلك حتى هزلت وزال المانع من الولادة. فهذا ينبهك على استشعـار خطر بعض العلوم. ويفهمـك معنى قولـه صلى الله عليـه وسلم:[1] «نَعُوذُ باللهِ مِنْ عِلْمٍ لا يَنْفَعُ». فاعتبر بهذه الحكاية ولا تكن بحاثاً عن علوم ذمها

---

(١) حديث: نعوذ بالله من علم لا ينفع: ابن عبد البر من حديث جابر بسند حسن، وهو عند ابن ماجة بلفظ تعوذوا. وقد تقدم.

الشرع وزجر عنها، ولازم الاقتداء بالصحابة رضي الله عنهم، واقتصر على اتباع السنّة، فالسلامة في الاتباع، والخطر في البحث عن الأشياء والاستقلال، ولا تكثر اللجج برأيك ومعقولك، ودليلك وبرهانك، وزعمك أني أبحث عن الأشياء لأعرفها على ما هي عليه، فأي ضرر في التفكر في العلم، فإن ما يعود عليك من ضرره أكثر، وكم من شيء تطلّع عليه فيضرك اطلاعك عليه ضرراً يكاد يهلكك في الآخرة إن لم يتداركك الله برحمته.

واعلم أنه كما يطلع الطبيب الحاذق على أسرار في المعالجات يستبعدها من لا يعرفها. فكذلك الأنبياء أطباء القلوب والعلماء بأسباب الحياة الأخروية، فلا تتحكم على سنّتهم بمعقولك فتهلك، فكم من شخص يصيبه عارض في أصبعه فيقتضي عقله أن يطليه حتى ينبهه الطبيب الحاذق أن علاجه أن يطلي الكف من الجانب الآخر من البدن، فيستبعد ذلك غاية الاستبعاد من حيث لا يعلم كيفية انشعاب الأعصاب ومنابتها ووجه التفافها على البدن، فكهذا الأمر في طريق الآخرة، وفي دقائق سنن الشرع وآدابه. وفي عقائده التي تعبّد الناس بها أسرار ولطائف ليست في سعة العقل وقوته الإحاطة بها، كما أن في خواص الأحجار أموراً عجائب غاب عن أهل الصنعة علمها، حتى لم يقدر أحد على أن يعرف السبب الذي به يجذب المغناطيس الحديد. فالعجائب والغرائب في العقائد والأعمال وإفادتها لصفاء القلوب ونقائها وطهارتها وتزكيتها وإصلاحها للترقي إلى جوار الله تعالى وتعرضها لنفحات فضله، أكثر وأعظم مما في الأدوية والعقاقير. وكما أن العقول تقصر عن إدراك منافع الأدوية مع أن التجربة سبيل إليها فالعقول تقصر عن إدراك ما ينفع في حياة الآخرة مع أن التجربة غير متطرقة إليها، وإنما كانت التجربة تتطرق إليها لو رجع إلينا بعض الأموات فأخبرنا عن الأعمال المقبولة النافعة المقربة إلى الله تعالى زلفى، وعن الأعمال المبعدة عنه، وكذا عن العقائد، وذلك مما لا يطمع فيه، فيكفيك من منفعة العقل أن يهديك إلى صدق النبي صلى الله عليه وسلم، ويفهمك موارد إشاراته، فاعزل العقل بعد ذلك عن التصرف، ولازم الاتباع فلا تسلم إلا به والسلام، ولذلك قال

صلى الله عليه وسلم[1] «إِنَّ مِنَ الْعِلْمِ جَهْلاً، وَإِنَّ مِنَ الْقَوْلِ عِيًّا» ومعلوم أن العلم لا يكون جهلاً ولكنه يؤثر تأثير الجهل في الإضرار. وقال أيضاً صلى الله عليه وسلم[2]: «قَلِيلٌ مِنَ ٱلتَّـوْفِيق خَيْرٌ مِنْ كَثِيـرٍ مِنَ ٱلْعِلْمِ» وقال عيسى عليه السلام: «ما أكثر الشجر وليس كلها بمثمر، وما أكثر الثمر وليس كلها بطيب، وما أكثر العلوم وليس كلها بنافع!».

---

(١) حديث: إن من العلم جهلاً... الحديث: أبو داود من حديث بريدة وفي إسناده من يجهل.

(٢) حديث: قليل من التوفيق خير من كثير من العلم: لم أجد له أصلاً وقد ذكره صاحب الفردوس من حديث أبي الدرداء، وقال: العقل، بدل العلم، ولم يخرجه ولده في مسنده.

بيـــان
ما بدل من ألفاظ العلوم

اعلم أن منشأ التباس العلوم. المذمومة بالعلوم الشرعية تحريف الأسامي المحمودة وتبديلها ونقلها بالأغراض الفاسدة إلى معان غير ما أراده السلف الصالح والقرن الأوّل، وهي خمسة ألفاظ: الفقه، والعلم، والتوحيد، والتذكير والحكمة، فهذه أسام محمودة، والمتصفون بها أرباب المناصب في الدين، ولكنها نقلت الآن إلى معان مذمومة، فصارت القلوب تنفر عن مذمة من يتصف بمعانيها لشيوع إطلاق هذه الأسامي عليهم.

اللفظ الأول: الفقه ـ فقد تصرفوا فيه بالتخصص لا بالنقل والتحويل، إذ خصصوه بمعرفة الفروع الغريبة في الفتاوى، والوقوف على دقائق عللها، واستكثار الكلام فيها، وحفظ المقالات المتعلقة بها، فمن كان أشد تعمقاً فيها وأكثر اشتغالاً بها يقال هو الأفقه. ولقد كان اسم الفقه في العصر الأوّل مطلقاً على علم طريق الآخرة، ومعرفة دقائق آفات النفوس ومفسدات الأعمال، وقوة الإحاطة بحقارة الدنيا، وشدة التطلع إلى نعيم الآخرة، واستيلاء الخوف على القلب. ويدلك عليه قوله عز وجل: **﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾**. وما يحصل به الإنذار والتخويف هو هذا الفقه دون تفريعات الطلاق والعتاق واللعان والسلم والإجارة، فذلك لا يحصل به الإنذار ولا تخويف، بل التجرد له على الدوام يقسي القلب وينزع الخشية منه كما نشاهد الآن من المتجردين له. وقال تعالى: **﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾** وأراد به معاني الإيمان دون الفتاوى. ولعمري ان الفقه والفهم في اللغة اسمان بمعنى واحد، وإنما يتكلم في عادة الاستعمال به قديماً وحديثاً، قال تعالى: **﴿لأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللهِ﴾** الآية، فأحال قلة خوفهم من الله واستعظامهم سطوة الخلق

على قلة الفقه. فانظر إن كان ذلك نتيجة عدم الحفظ لتفريعات الفتاوى، أو هو نتيجة عدم ما ذكرناه من العلوم، وقال صلى الله عليه وسلم[1] «عُلَمَاءُ حُكَمَاءُ فُقَهَاءُ» للذين وفدوا عليه. وسئل سعد بن ابراهيم الزهري رحمه الله: أيّ أهل المدينة أفقه؟ فقال: أتقاهم لله تعالى، فكأنه أشار إلى ثمرة الفقه، والتقوى ثمرة العلم الباطني دون الفتاوى والأقضية. وقال صلى الله عليه وسلم:[2] «ألا أُنَبِّئُكُمْ بِالفَقِيهِ كُلَّ الْفَقِيهِ؟ قالوا بلى، قال: مَنْ لَمْ يُقْنِطِ النَّاسَ مِنْ رَحْمَةِ الله وَلَمْ يُؤَمِّنْهُمْ مِنْ مَكْرِ الله وَلَمْ يُؤْيِسْهُمْ مِنْ رَوْحِ الله وَلَمْ يَدَعِ الْقُرْآنَ رَغْبَةً عَنْهُ إِلَى مَا سِوَاهُ» ولما روى أنس بن مالك قوله صلى الله عليه وسلم:[3] «لَأن أَقْعُدَ مَعَ قَوْمٍ يَذْكُرُونَ الله تَعَالَى مِنْ غُدْوَةٍ إِلَى طُلُوعِ الشَّمْسِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَعْتِقَ أَرْبَعَ رِقَابٍ» قال فالتفت إلى زيد الرقاشي وزياد النميري وقال: لم تكن مجالسُ الذكر مثلَ مجالسكم هذه يَقُصُّ أحَدُكُم وعظة على أصحابه ويسرُد الحديث سرداً، إنما كنا نقعدُ فنذْكر الإيمانَ، ونتدبَّر القرآن ونتفقه في الدين، ونعدّ نعم الله علينا تفقهاً، فسمي تدبر القرآن وعد النعم تفقهاً. قال صلى الله عليه وسلم:[4] «لا يَفْقَهُ العَبْدُ كُلَّ الْفِقْهِ حَتَّى يَمْقُتَ النَّاسَ فِي ذَاتِ اللهِ وَحَتَّى يَرَى لِلْقُرآنِ وُجُوهاً كَثِيرَةً» وروي أيضاً موقوفاً على أبي الدرداء رضي الله عنه مع قوله (ثُمَّ يُقْبِلَ عَلَى نَفْسِهِ فَيَكُونَ لَهَا أَشَدَّ مَقْتاً) وقد سأل فَرْقَدُ السَّبَخي الحسن عن الشيء فأجابه فقال: إن الفقهاء يخالفونك، فقال الحسن رحمه الله: ثَكِلَتكَ أُمُّك فريقد، وهل رأيت فقيهاً بعينك! إنما الفقيه الزاهد في الدنيا الراغب في الآخرة، البصير بدينه،

---

(١) حديث: علماء حكماء فقهاء: أبو نعيم في الحلية. والبيهقي في الزهد. والخطيب في التاريخ، من حديث سويد بن الحارث بإسناد ضعيف.

(٢) حديث: ألا أنبئكم بالفقيه كل الفقيه... الحديث: أبو بكر بن لال، في مكارم الأخلاق. وأبو بكر بن السني، وابن عبد البر من حديث علي. وقال ابن عبد البر أكثرهم يوقفونه عن علي.

(٣) حديث أنس: لأن أقعد مع قوم يذكرون الله تعالى من غدوة إلى طلوع الشمس، الحديث: أبو داود بإسناد حسن.

(٤) حديث: لا يفقه العبد كل الفقه حتى يمقت الناس في ذات الله... الحديث: ابن عبد البر من حديث شداد بن أوس، وقال لا يصح مرفوعاً.

المداوم على عبادة ربه، الورع الكافّ نفسه عن أعراض المسلمين، العفيف عن أموالهم، الناصح لجماعتهم، ولم يقل في جميع دلك: الحافظ لفروع الفتاوى. ولست أقول إن اسم الفقه لم يكن متناولاً للفتاوى في الأحكام الظاهرة، ولكن كان بطريق العموم والشمول، أو بطريق الاستتباع، فكان إطلاقهم له على علم الآخرة أكثر. فبان من هذا التخصيص تلبيس بعث الناس على التجرد له والإعراض عن علم الآخرة وأحكام القلوب، ووجدوا على ذلك معينا من الطبع، فإن علم الباطن غامض، والعمل به عسير، والتوصل به إلى طلب الولاية والقضاء والجاه والمال متعذر، فوجد الشيطان مجالاً لتحسين ذلك في القلوب بواسطة تخصص اسم الفقه الذي هو اسم محمود في الشرع.

اللفظ الثاني: العلم ـ وقد كان يطلق ذلك على العلم بالله تعالى وبآياته وبأفعاله في عباده وخلقه، حتى إنه لما مات عمر رضي الله عنه قال ابن مسعود رحمه الله: لقد مات تسعة أعشار العلم، فعرّفه بالألف واللام، ثم فسره بالعلم بالله سبحانه وتعالى. وقد تصرفوا فيه أيضاً بالتخصيص حتى شهروه في الأكثر بمن يشتغل بالمناظرة مع الخصوم في المسائل الفقهية وغيرها، فيقال: هو العالم على الحقيقة، وهو الفحل في العلم. ومن لم يمارس ذلك ولا يشتغل به يعد من جملة الضعفاء، ولا يعدونه في زمرة أهل العلم. وهذا أيضاً تصرف بالتخصيص، ولكن ما ورد من فضائل العلم والعلماء أكثره في العلماء بالله تعالى وبأحكامه وبأفعاله وصفاته. وقد صار الآن مطلقاً على من لا يحيط من علوم الشرع بشيء سوى رسوم جدلية في مسائل خلافية، فيعد بذلك من فحول العلماء، مع جهله بالتفسير والأخبار وعلم المذهب وغيره، وصار ذلك سبباً مهلكاً لخلق كثير من أهل الطب للعلم.

اللفظ الثالث: التوحيد ـ وقد جعل الآن عبارة عن صناعة الكلام، ومعرفة طريق المجادلة، والإحاطة بطرق مناقضات الخصوم، والقدرة على التشدق فيها بتكثير الأسئلة وإثارة الشبهات، وتأليف الإلزامات، حتى لقب طوائف منهم أنفسهم بأهل العدل والتوحيد، وسمى المتكلمون، العلماء بالتوحيد، مع أن جميع ما هو خاصة هذه الصناعة لم يكن يعرف منها شيء في العصر الأوّل، بل

كان يشتد منهم النكير على من كان يفتح باباً من الجدل والممـاراة، فأمـا ما يشتمـل عليه القـرآن من الأدلة الـظاهرة التي تسبق الأذهـان إلى قبولهـا في أول السماع، فلقد كان ذلك معلوماً للكل. وكان العلم بالقرآن هو العلم كله؛ وكان التوحيد عندهم عبارة عن أمر آخر لا يفهمـه أكثر المتكلمين، وإن فهمـوه لم يتصفوا به، وهو أن يرى الأمور كلها من الله عز وجل رؤيـة تقطع التفـاته عن الأسباب والوسائط، فلا يرى الخير والشر كله إلا منه جل جلاله. فهذا مقـام شريف إحدى ثمراته التوكل كما سيأتي بيانه في كتاب التوكل. ومن ثمراته أيضاً ترك شكاية الخلق، وترك الغضب عليهم، والرضا والتسليم لحكم الله تعالى. وكانت إحدى ثمراته قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه لما قيل له في مرضه: أنطلب لك طبيباً؟ فقال: الطبيب أمرضني. وقال آخر لما مرض فقيل له: ماذا قال لك الطبيب في مرضك؟ فقال: قال لي: إني فعال لما أريد. وسيأتي في كتاب التوكل وكتاب التوحيد شواهد ذلك.

والتوحيد: جوهر نفيس، وله قشران: أحدهما أبعد عن اللب من الآخر، فخصص الناس الاسم بالقشر وبصنعة الحراسة للقشر، وأهملوا اللب بالكلية. فالقشر الأول: هو أن تقول بلسانك: لا إله إلا الله. وهذا يسمى توحيداً مناقضاً للتثليث الذي صرح به النصارى، ولكنه قد يصدر من المنافق الذي يخالف سره جهره. والقشر الثاني: أن لا يكون في القلب مخالفة وإنكار لمفهوم هذا القول، بل يشتمل ظاهر القلب على اعتقاده، وكذلك التصديق به، وهو توحيد عـوام الخلق. والمتكلمون كما سبق حراس هذا القشر عن تشويش المبتدعة. والثالث وهو اللباب: أن يرى الأمور كلها من الله تعالى رؤية تقطع التفاته عن الوسائط، وأن يعبده عبادة يفرده بها فلا يعبد غيره، ويخرج عن هذا التوحيد اتباع الهوى، فكل متبع هواه فقد اتخذ هواه معبوده. قال الله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم: «أَبْغَضُ إِلَهٍ عُبِدَ فِي الأَرْضِ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى هُوَ الْهَوَى»[1]. وعلى التحقيق: من تأمل عرف أن عابد الصنم ليس يعبد الصنم

(١) حديث: أبغض إله عبد عند الله في الأرض هو الهوى: الطبراني من حديث أبي أمامة، بإسناد ضعيف.

وإنما يعبد هواه، إذ نفسه مائلة إلى دين آبائه، فيتبع ذلك الميل، وميل النفس إلى المألوفات أحد المعاني التي يعبر عنها بالهواء. ويخرج من هذا التوحيد التسخط على الخلق والالتفات إليهم، فإن من يرى الكل من الله عز وجل كيف يتسخط على غيره! فلقد كان التوحيد عبارة عن هذا المقام، وهو مقام الصديقين. فانظر إلى ماذا حول وبأي قشر قنع منه، وكيف اتخذوا هذا معتصماً في التمدح والتفاخر بما اسمه محمود مع الإفلاس عن المعنى الذي يستحق الحمد الحقيقي؟ وذلك كإفلاس من يصبح بكرة ويتوجه إلى القبلة ويقول: وجهتُ وَجهيَ للذي فطر السموات والأرضَ حنيفاً. وهو أول كذب يفاتح الله به كل يوم إن لم يكن وَجْه قلبه متوجهاً إلى الله تعالى على الخصوص، فإنه إن أراد بالوجه وجه الظاهر فما وجَّهه إلا إلى الكعبة، وما صرفه إلا عن سائر الجهات؛ والكعبة ليست جهة للذي فطر السموات والأرض حتى يكون المتوجه إليها متوجهاً إليه، تعالى عن أن تحده الجهات والأقطار؛ وإن أراد به وجه القلب، وهو المطلوب المتعبد به فكيف يصدق في قوله، وقلبه متردّد في أوطاره وحاجاته الدنيوية، ومتصرف في طلب الحيل في جمع الأموال والجاه واستكثار الأسباب، ومتوجه بالكلية إليها، فمتى وجّه وجهه للذي فطر السموات والأرض؟ وهذه الكلمة خبر عن حقيقة التوحيد، فالموحد هو الذي لا يرى إلا الواحد، ولا يوجه وجهه إلا إليه، وهو امتثال قوله تعالى: ﴿قُلِ الله ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ وليس المراد به القول باللسان فإنما اللسان ترجمان يصدق مرة ويكذب أخرى، وإنما موقع نظر الله تعالى المترجم عنه هو القلب، وهو معدن التوحيد ومنبعه.

اللفظ الرابع: الذكر والتذكير ـ فقد قال الله تعالى: ﴿وَذَكِّر فَإِنَّ الذِّكرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وقد ورد في الثناء على مجالس الذكر أخبار كثيرة، كقوله صلى الله عليه وسلم[1] «إِذَا مَرَرْتُمْ بِرِيَاضِ الْجَنَّةِ فَارْتَعُوا، قيل: وَمَا رِيَاضُ الْجَنَّةِ؟ قَالَ مَجَالِسُ الذِّكْرِ» وفي الحديث[2] «إِنَّ للهِ تَعَالَى مَلائِكَةً سَيَّاحِينَ في

(١) حديث: إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا. . . الحديث: الترمذي من حديث أنس وحسنه.

(٢) حديث: إن لله ملائكة سياحين في الهواء سوى ملائكة الخلق. . . الحديث: متفق عليه =

الدُّنْيَا سِوَى مَلائِكَةِ الخَلْقِ إذَا رَأَوْا مَجَالِسَ الذِّكْرِ يُنَادِي بَعْضُهُمْ بَعْضاً ألا هَلُمُّوا إلى بُغْيَتِكُمْ فَيَأْتُونَهُمْ وَيَحُفُّون بِهِمْ وَيَسْتَمِعُونَ، ألا فَاذْكُروا الله وَذَكِّرُوا أَنْفُسَكُمْ» فنقل ذلك إلى ما ترى أكثر الوعاظ في هذا الزمان، يواظبون عليه، وهو القصص والأشعار والشطح والطامات، أما القصص فهي بدعة؛ وقد ورد نهي السلف عن الجلوس إلى القصّاص، وقالوا:[1] لم يكن ذلك في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا في زمن أبي بكر ولا عمر رضي الله عنهما حتى ظهرت الفتنة وظهر القصاص.

وروي أن ابن عمر رضي الله عنهما خرج من المسجد فقال: ما أخرجني إلا القاصُّ ولولاه لما خرجت. وقال ضمرة: قلت لسفيان الثوري: نستقبل القاص بوجوهنا؟ فقال: وَلُّوا البدعَ ظُهورَكم. وقال ابن عون: دخلت على ابن سيرين فقال: ما كان اليوم من خبر؟ فقلت: نهى الأمير القصاص أن يقصوا، فقال: وُفِّق للصواب. ودخل الأعمش جامع البصرة فرأى قاصاً يقص ويقول: حدثنا الأعمش، فتوسط الحلقة وجعل ينتف شعر إبطه، فقال القاص: يا شيخ ألا تستحي! فقال: لم؟ أنا في سنَّة وأنت في كذب، أنا الأعمش وما حدثتك! وقال أحمد: أكثر الناس كذباً القُصَّاص والسُّؤَّال.

وأخرج علي رضي الله عنه القصاصَ من مسجد جامع البصرة فلما سمع كلام الحسن البصري لم يخرجه، إذ كان يتكلم في علم الآخرة، والتفكير بالموت، والتنبيه على عيوب النفس وآفات الأعمال وخواطر الشيطان ووجه الحذر منها، ويذكّر بآلاء الله ونعمائه، وتقصير العبد في شكره، ويعرِّف حقارة الدنيا وعيوبها وتصرمها ونكث عهدها، وخطر الآخرة وأهوالها. فهذا هو التذكير المحمود شرعاً الذي روي الحث عليه في حديث أبي ذر رضي الله عنه حيث

= من حديث أبي هريرة دون قوله في الهواء، وللترمذي سياحين في الأرض، وقال مسلم سيارة.

(١) حديث: لم تكن القصص في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم: ابن ماجة من حديث عمر بإسناد حسن.

قال :[1] «حُضُورُ مَجْلِس ذِكْرٍ أَفْضَلُ مِنْ صَلاةِ أَلْفِ رَكْعَةٍ، وَحُضُورُ مَجْلِسِ عِلْمٍ أفضلُ من عِيَادَةِ أَلْفِ مَرِيضٍ ، وحُضُورُ مَجْلِس عِلْمٍ أَفْضَلُ مِنْ شُهُودِ أَلْفِ جَنَازَةٍ. فقيل : يَا رَسُولَ الله : وَمِنْ قِرَاءَةِ القُرآنِ؟ قال : وهل تَنْفَعُ قِرَاءَةُ القُرْآنِ إِلَّا بِالْعِلْمِ ؟» وقال عطار رحمه الله : مجلسُ ذكر يكفّر سبعين مجلساً من مجالس اللهو. فقد اتخذ المزخرفون هذه الأحاديث حجة على تزكية أنفسهم، ونقلوا اسم التذكير إلى خرافاتهم، وذهلوا عن طريق الذكر المحمود، واشتغلوا بالقصص التي تتطرق إليها الاختلافات والزيادة والنقص، وتخرج عن القصص الواردة في القرآن وتزيد عليها، فإن من القصص ما ينفع سماعه، ومنها ما يضر وإن كان صدقاً. ومن فتح ذلك الباب على نفسه اختلط عليه الصدق بالكذب، والنافع يضر، فمن هذا نهي عنه. ولذلك قال أحمد بن حنبل رحمه الله : ما أحوج الناس إلى قاص صادق! .

فإن كانت القصة من قصص الأنبياء عليهم السلام فيما يتعلق بأمور دينهم، وكان القاص صادقاً صحيح الرواية، فلست أرى به بأساً. فليحذر الكذب وحكايات أحوال تومىء إلى هفوات أو مساهلات يقصر فهم العوام عن درك معانيها، أو عن كونها هفوة نادرة مردفة بتكفيرات متداركة بحسنات تغطي عليها، فإن العامي يعتصم بذلك في مساهلاته وهفواته ويمهد لنفسه عذراً فيه، ويحتج بأنه حكي كيت وكيت عن بعض المشايخ وبعض الأكابر، فكلنا بصدد المعاصي، فلا غرو إن عصيت الله تعالى فقد عصاه من هو أكبر مني، ويفيده ذلك جراءة على الله تعالى من حيث لا يدري. فبعد الاحتراز عن هذين المحذورين فلا بأس به، وعند ذلك يرجع إلى القصص المحمودة، وإلى ما يشتمل عليه القرآن، ويصح في الكتب الصحيحة من الأخبار.

ومن الناس من يستجيز وضع الحكايات المرغبة في الطاعات، ويزعم أن قصده فيها دعوة الخلق إلى الحق، فهذه من نزعات الشيطان، فإن في الصدق مندوحة عن الكذب، وفيما ذكر الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم غنية عن الاختراع في الوعظ، كيف وقد كره تكلف السجع وعد ذلك من التصنع؟ قال

---

(١) حديث أبي ذر: حضور مجلس علم أفضل من صلاة ألف ركعة : تقدم في الباب الأول.

سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه لابنه عمر وقد سمعه يسجع: هذا الذي يبغّضك إليّ، لا قضيت حاجتك أبداً حتى تتوب! وقد كان جاءه في حاجة. وقد قال صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن رواحة في سجع من ثلاث كلمات[1]: «إيَّاكَ والسَّجْعَ يا ابنَ رَواحَةَ» فكان السجع المحذور المتكلف ما زاد على كلمتين، ولذلك لما قال الرجل في دية الجنين: كيف ندي من لا شرب ولا أكل، ولا صاح ولا استهل، ومثل ذلك بطل؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم[2] «أَسْجَعٌ كَسَجعِ الأعْرابِ!».

وأما الأشعار فتكثيرها في المواعظ مذموم، قال الله تعالى: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الغَاوُونَ. أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ في كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ وأكثر ما اعتاده الوعاظ من الأشعار ما يتعلق بالتواصف بالعشق وجمال المعشوق، وروح الوصال وألم الفراق، والمجلس لا يحوي إلا أجلاف العوام، وبطونهم مشحونة بالشهوات، وقلوبهم غير منفكة عن الالتفات إلى الصور المليحة، فلا تحرك الأشعار من قلوبهم إلا ما هو مستكن فيها، فتشتعل فيها نيران الشهوات، فيزعقون ويتواجدون، وأكثر ذلك أو كله يرجع إلى نوع فساد، فلا ينبغي أن يستعمل من الشعر إلا ما فيه موعظة أو حكمة على سبيل استشهاد واستئناس. وقد قال صلى الله عليه وسلم.[3] «إنَّ مِن الشعْرِ لَحِكْمَةً» ولو حوى المجلس الخواص الذي وقع الاطلاع على استغراق قلوبهم بحب الله تعالى ولم يكن معهم غيرهم، فإن أولئك لا يضر معهم الشعر الذي يشير ظاهره إلى الخلق، فإن المستمع ينزل كل ما يسمعه على ما يستولي على قلبه كما سيأتي تحقيق ذلك في كتاب السماع، ولذلك كان الجنيد رحمه الله

(١) حديث: إياك والسجع يا ابن رواحة، لم أجده هكذا، ولأحمد وأبي يعلى وابن السني وأبي نعيم في كتاب الرياضة، من حديث عائشة بإسناد صحيح أنها قالت للسائب: إياك والسجع فإن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه كانوا لا يسجعون، ولابن حبّان: اجتنب السجع، وفي البخاري نحوه، من قول ابن عباس.

(٢) حديث: أسجع كسجع الأعراب: مسلم من حديث المغيرة.

(٣) حديث: إن من الشعر لحكمة: البخاري من حديث أبي بن كعب.

يتكلم على بضعة عشر رجلاً، فإن كثروا لم يتكلم، وما تم أهل مجلسه قط عشرين. وحضر جماعة باب دار ابن سالم فقيل له: تكلم فقد حضر أصحابك، فقال: لا ما هؤلاء أصحابي إنما هم أصحاب المجلس إن أصحابي هم الخواص.

وأما الشطح فنعني به صنفين من الكلام أحدثه بعض الصوفية:

أحدهما: الدعاوي الطويلة العريضة في العشق مع الله تعالى، والوصال المغني عن الأعمال الظاهرة، حتى ينتهي قوم إلى دعوى الاتحاد وارتفاع الحجاب، والمشاهدة بالرؤية والمشافهة بالخطاب، فيقولون: قيل لنا كذا وقلنا كذا، ويتشبهون فيه بالحسين بن منصور الحلاج الذي صلب لأجل إطلاقه كلمات من هذا الجنس، ويستشهدون بقوله: أنا الحق. وبما حكي عن أبي يزيد البسطامي أنه قال: سبحاني سبحاني؛ وهذا فن من الكلام عظيم ضرره في العوام؛ حتى ترك جماعة من أهل الفلاحة فلاحتهم، وأظهروا مثل هذه الدعاوى، فإن هذا الكلام يستلذه الطبع، إذ فيه البطالة من الأعمال مع تزكية النفس بدرك المقامات والأحوال، فلا تعجز الأغبياء عن دعوى ذلك لأنفسهم، ولا عن تلقف كلمات مخبطة مزخرفة، ومهما أنكر عليه ذلك لم يعجزوا عن أن يقولوا: هذا إنكار مصدره العلم والجدل، والعلم حجاب، والجدل عمل النفس. وهذا الحديث لا يلوح إلا من الباطن بمكاشفة نور الحق. فهذا ومثله مما قد استطار في البلاد شرره وعظم في العوام ضرره حتى من نطق بشيء منه فقتله أفضل في دين الله من إحياء عشرة. وأما أبو يزيد البسطامي رحمه الله، فلا يصح عنه ما يحكى، وإن سمع ذلك منه فلعله كان يحكيه عن الله عز وجل في كلام يردده في نفسه، كما لو سمع وهو يقول: إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني، فإنه ما كان ينبغي أن يفهم منه ذلك إلا على سبيل الحكاية.

النصف الثاني من الشطح: كلمات غير مفهومة لها ظواهر رائقة، وفيها عبارات هائلة وليس وراءها طائل، وذلك إما أن تكون غير مفهومة عند قائلها بل يصدرها عن خبط في عقله وتشويش في خياله لقلة إحاطته بمعنى كلام قرع سمعه، وهذا هو الأكثر. وإما أن تكون مفهومة له ولكنه لا يقدر على تفهيمها

وإيرادها بعبارة تدل على ضميره، لقلة ممارسته للعلم وعدم تعلمه طريق التعبير عن المعاني بالألفاظ الرشيقة، ولا فائدة لهذا الجنس من الكلام إلا أنه يشوش القلوب ويدهش العقول، ويحير الأذهان، أو يحمل على أن يفهم منها معاني ما أريدت بها، ويكون فهم كل واحد على مقتضى هواه وطبعه. وقد قال صلى الله عليه وسلم[1] «مَا حَدَّثَ أَحَدُكُمْ قَوْماً بِحَدِيثٍ لا يَفْقَهُونَهُ إلَّا كَانَ فِتْنَةً عَلَيْهِمْ». وقال صلى الله عليه وسلم[2] «كَلِّمُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ وَدَعُوا مَا يَنْكِرُونَ، أَتُرِيدُونَ أَنْ يَكْذِبَ اللهُ وَرَسُولُهُ؟» وهذا فيما يفهمه صاحبه ولا يبلغه عقل المستمع، فكيف فيما لا يفهمه قائله؟ فإن كان يفهمه القائل دون المستمع فلا يحل ذكره. وقال عيسى عليه السلام لا تضعوا الحكمة عند غير أهلها فتظلموها، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم، كانوا كالطبيب الرفيق يضع الدواء في موضع الداء. وفي لفظ آخر: من وضع الحكمة في غير أهلها فقد جهل، ومن منعها أهلها فقد ظلم، إن للحكمة حقا، وإن لها أهلاً، فأعط كل ذي حق حقه.

وأما الطامات، فيدخلها ما ذكرناه في الشطح، وأمر آخر يخصها وهو صرف ألفاظ الشرع عن ظواهرها المفهومة إلى أمور باطنة لا يسبق منها إلى الأفهام فائدة: كدأب الباطنية في التأويلات، فهذا أيضاً حرام وضرره عظيم، فإن الألفاظ إذا صرفت عن مقتضى ظواهرها بغير اعتصام فيه بنقل عن صاحب الشرع، ومن غير ضرورة تدعو إليه من دليل العقل، اقتضى ذلك بطلان الثقة بالألفاظ، وسقط به منفعة كلام الله تعالى وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم، فإن ما يسبق منه إلى الفهم لا يوثق به، والباطن لا ضبط له، بل تتعارض فيه الخواطر، ويمكن تنزيله على وجوه شتى؛ وهذا أيضاً من البدع الشائعة العظيمة الضرر، وإنما قصد أصحابها الإغراب، لأن النفوس مائلة إلى الغريب ومستلذة

---

(١) حديث: ما حدث أحدكم قوماً بحديث لا يفقهونه إلا كان فتنة عليهم: العقيلي في الضعفاء وابن السني وأبو نعيم في الرياء من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف ولمسلم في مقدمة صحيحه موقوفاً على ابن مسعود.

(٢) حديث: كلموا الناس بما يعرفونه ودعوا ما ينكرون. . . الحديث: البخاري موقوفاً على علي، ورفعه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من طريق أبي نعيم.

له: وبهذا الطريق توصل الباطنية إلى هدم جميع الشريعة بتأويل ظواهرها، وتنزيلها على رأيهم، كما حكيناه من مذاهبهم في كتاب المستظهري المصنف في الرد على الباطنية.

ومثال تأويل أهل الطامات قول بعضهم في تأويل قوله تعالى: ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ إنه إشارة إلى قلبه، وقال هو المراد بفرعون، وهو الطاغي على كل إنسان، وفي قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ أي كل ما يتوكأ عليه ويعتمده مما سوى الله عز وجل، فينبغي أن يلقيه، وفي قوله صلى الله عليه وسلم:[1] «تَسَحَّرُوا فَإِنَّ فِي السَّحُورِ بَرَكَةً» أراد به الاستغفار في الأسحار، وأمثال ذلك، حتى يحرفون القرآن من أوله إلى آخره عن ظاهره، وعن تفسيره المنقول عن ابن عباس وسائر العلماء. وبعض هذه التأويلات يعلم بطلانها قطعاً، كتنزيل فرعون على القلب، فإن فرعون شخص محسوس تواتر إلينا النقل بوجوده ودعوة موسى له، وكأبي جهل وأبي لهب وغيرهما من الكفار، وليس من جنس الشياطين والملائكة مما لم يدرك بالحس حتى يتطرق التأويل إلى ألفاظه. وكذا حمل السحور على الاستغفار، فإنه كان صلى الله عليه وسلم:[2] «يَتَنَاوَلُ الطَّعَامَ، وَيَقُولُ: تَسَحَّرُوا» و «هَلُمُّوا إِلَى الغَدَاءِ المُبَارَكِ»[3]. فهذه أمور يدرك بالتواتر والحس بطلانها نقلاً، وبعضها يعلم بغالب الظن، وذلك في أمور لا يتعلق بها الإحساس. فكل ذلك حرام وضلالة، وإفساد للدين على الخلق، ولم ينقل شيء من ذلك عن الصحابة ولا عن التابعين ولا عن الحسن البصري مع إكبابه على دعوة الخلق ووعظهم، فلا يظهر لقوله صلى الله عليه وسلم[4] «مَنْ فَسَّرَ القُرْآن بِرَأْيِهِ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ» معنى إلا هذا النمط، وهو أن يكون

---

(١) حديث: تسحروا فإن السحور بركة: متفق عليه من حديث أنس.

(٢) حديث: تناول الطعام في السحور: البخاري، من حديث انس أن النبي صلى الله عليه وسلم وزيد بن ثابت تسحرا.

(٣) حديث: هلموا إلى الغداء المبارك: أبو داود والنسائي وابن حبان، من حديث العرباض بن سارية، وضعّفه ابن القطان.

(٤) حديث: من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار: الترمذي من حديث ابن عباس وحسّنه. وهو عند أبي داود من رواية ابن العبد، وعند النسائي في الكبرى.

غرضه ورأيه تقرير أمر وتحقيقه، فيستجر شهادة القرآن إليه، ويحمله عليه من غير أن يشهد لتنزيله عليه دلالة لفظية لغوية أو نقلية.

ولا ينبغي أن يفهم منه أنه يجب أن لا يفسر القرآن بالاستنباط والفكر، فإن من الآيات ما نقل فيها عن الصحابة والمفسرين خمسة معان وستة وسبعة، ويعلم أن جميعها غير مسموع من النبي صلى الله عليه وسلم، فإنها قد تكون متنافية لا تقبل الجمع، فيكون ذلك مستنبطاً بحسن الفهم وطول الفكر. ولهذا قال صلى الله عليه وسلم لابن عباس رضي الله عنه[1] «اَللّٰهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيل» ومن يستجيز من أهل الطامات مثل هذه التأويلات مع علمه بأنها غير مرادة بالألفاظ ويزعم أنه يقصد بها دعوة الخلق إلى الخالق، يضاهي من يستجيز الاختراع والوضع على رسول الله صلى الله عليه وسلم لما هو في نفسه حق ولكن لم ينطق به الشرع: كمن يضع في كل مسألة يراها حقاً حديثاً عن النبي صلى الله عليه وسلم، فذلك ظلم وضلال، ودخول في الوعيد المفهوم من قوله صلى الله عليه وسلم[2] «مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّداً فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِن النَّارِ» بل الشر في تأويل هذه الألفاظ أطم وأعظم، لأنها مبطلة للثقة بالألفاظ، وقاطعة طريق الاستفادة والفهم من القرآن بالكلية. فقد عرفت كيف صرف الشيطان دواعي الخلق عن العلوم المحمودة إلى المذمومة فكل ذلك من تلبيس علماء السوء بتبديل الأسامي، فإن اتبعت هؤلاء اعتماد على الاسم المشهور من غير التفات إلى ما عرف في العصر الأول، كنت كمن طلب الشرف بالحكمة باتباع من يسمى حكيماً، فإن اسم الحكيم صار يطلق على الطبيب والشاعر والمنجم في هذا العصر، وذلك بالغفلة عن تبديل الألفاظ.

اللفظ الخامس: وهو الحكمة ـ فإن اسم الحكيم صار يطلق على الطبيب

---

(١) حديث: اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل، قاله لابن عباس: البخاري من حديث ابن عباس دون قوله، وعلمه التأويل، وهو بهذه الزيادة عند أحمد وابن حبّان والحاكم، وقال صحيح الأسناد.

(٢) حديث: من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار: متفق عليه من حديث أبي هريرة وعلي وأنس.

والشاعر والمنجم، حتى على الذي يدحرج القرعة على أكف السوادية في شوارع الطرق. والحكمة هي التي أثنى الله عز وجل عليها فقال تعالى: ﴿يُؤْتِي الحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يؤْتَ الحِكْمِةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً﴾ وقال صلى الله عليه وسلم[1] «كَلِمَةٌ مِنَ الحِكْمَةِ يَتَعَلَّمُهَا الرَّجُلُ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا» فانظر ما الذي كانت الحكمة عبارة عنه، وإلى ماذا نقل، وقس به من بقية الألفاظ، واحترز من الاغترار بتلبيسات علماء السوء، فإن شرهم على الدين أعظم من شر الشياطين، إذ الشيطان بواسطتهم يتدرج إلى انتزاع الدين من قلوب الخلق. ولهذا[2] لما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن شر الخلق أبى وقال: «اللَّهُمَّ غَفْراً» حتى كرروا عليه فقال: «هُمْ عُلَمَاءُ السُوءِ» فقد عرفت العلم المحمود والمذموم ومثار الالتباس، وإليك الخيرة في أن تنظر لنفسك، فتقتدي بالسلف، أو تتدلى بحبل الغرور وتتشبه بالخلف، فكل ما ارتضاه السلف من العلوم قد اندرس، وما أكب الناس عليه فأكثره مبتدع ومحدث، وقد صح قول رسول الله صلى الله عليه وسلم[3]: «بَدَأَ الإِسْلَامُ غَرِيباً وَسَيَعُودُ غَرِيباً كَمَا بَدَأَ فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ» فقيل: ومن الغرباء؟ قَالَ الَّذِينَ يُصْلِحُونَ مَا أَفْسَدَهُ النَّاسُ مِنْ سُنَّتِي. وَالَّذِينَ يُحْيُونَ مَا أَمَاتُوهُ مِنْ سُنَّتِي» وفي خبر آخر[4] «هُمُ الْمُتَمَسِّكُونَ بِمَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ الْيَوْمَ» وفي حديث آخر[5] «الغُرَبَاءُ نَاسٌ قَلِيلٌ صَالِحُونَ بَيْنَ نَاسٍ كَثِيرٍ مَنْ يُبْغِضُهُمْ فِي الخَلْقِ اكثَرُ مِمَّنْ يَحِبُّهُمْ». وقد صارت تلك العلوم غريبة بحيث يمقت ذاكرها. ولذلك قال الثوري رحمه الله: إذا رأيت العالم كثير الأصدقاء فاعلم أنه مخلط؛ لأنه إن نطق بالحق أبغضوه.

---

(١) حديث: كلمة من الحكمة يتعلمها الرجل خير له من الدنيا: تقدم بنحوه.

(٢) حديث: لما سئل عن شر الخلق أبى وقيل اللهم غفرا... الحديث: الدارمي بنحوه من رواية الأحوص بن حكيم عن أبيه مرسلاً وهو ضعيف ورواه البزار في مسنده من حديث معاذ بسند ضعيف.

(٣) حديث: بدأ الإسلام غريباً... الحديث: مسلم من حديث أبي هريرة مختصراً وهو بتمامه عند الترمذي من حديث عمرو بن عوف، وحسّنه.

(٤) حديث: هم المتمسكون بما أنتم عليه اليوم يقوله في وصف الغرباء: لم أر له أصلاً.

(٥) حديث الغرباء ناس قليلون صالحون... أحمد من حديث عبد الله بن عمرو.

بيـــان
القدر المحمود من العلوم المحمودة

اعلم أن العلم بهذا الاعتبار ثلاثة أقسام: قسم هو مذموم قليله وكثيره، وقسم هو محمود قليله وكثيره، وكلما كان أكثر كان أحسن وأفضل، وقسم يحمد منه مقدار الكفاية ولا يحمد الفاضل عليه، والاستقصاء فيه، وهو مثل أحـوال البدن، فإن منها ما يحمد قليله وكثيره كالصحة والجمال، ومنها مـا يذم قليله وكثيره كالقبح وسوء الخلق، ومنها ما يحمد الاقتصاد فيه كبذل المال فإن التبذير لا يحمد فيه وهو بذل، وكالشجاعة فإن التهور لا يحمد فيها وإن كان من جنس الشجاعة، فكذلك العلم.

فالقسم المذموم منه قليله وكثيره هو ما لا فائدة فيه في دين ولا دنيا، إذ فيه ضرر يغلب نفعه: كعلم السحر والطلمسـات والنجوم، فبعضـه لا فائـدة فيه أصلاً، وصرف العمر الذي هو أنفس ما يملكه الإنسان إليه إضاعة، وإضاعة النفيس مذمومة، ومنه ما فيه ضرر يزيد على ما يظن أنه يحصل به من قضاء وطر في الدنيا، فإن ذلك لا يعتد به بالإضافة إلى الضرر الحاصل عنه.

وأما القسم المحمود إلى أقصى غايات الاستقصاء، فهو العلم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله وسنته في خلقه وحكمته في ترتيب الآخرة على الدنيا، فإن هذا علم مطلوب لذاته، وللتوصل به إلى سعادة الآخرة، وبـذل المقدور فيـه إلى أقصى الجهد قصور عن حد الواجب، فإنه البحر الذي لا يدرك غوره، وإنما يحوم الحائمون على سواحله وأطرافه بقدر ما يسّر لهم، وما خاض أطرافه إلا الأنبياء والأولياء والراسخون في العلم على اختلاف درجاتهم، بحسب اختلاف قوتهم وتفاوت تقدير الله تعالى في حقهم، وهذا هو العلم المكنون الذي لا يسطر في الكتب. ويعين على التنبه له التعلم ومشاهدة أحوال علماء الآخرة كما سيأتي

علامتهم، هذا في أول الأمر. ويعين عليه في الآخرة المجاهدة والرياضة، وتصفية القلب وتفريغه عن علائق الدنيا، والتشبه فيها بالأنبياء والأولياء، ليتضح منه لكل ساع إلى طلبه بقدر الرزق لا بقدر الجهد، ولكن لا غنى فيه عن الاجتهاد، فالمجاهدة مفتاح الهداية لا مفتاح لها سواها.

وأما العلوم التي لا يحمد منها إلا مقدار مخصوص، فهي العلوم التي أوردناها في فروض الكفايات، فإن في كل علم منها اقتصاراً وهو الأقل، واقتصاداً وهو الوسط، واستقصاء وراء ذلك الاقتصاد لا مرد له إلى آخر العمر. فكن أحد رجلين: إما مشغولاً بنفسك، وإما متفرغاً لغيرك بعد الفراغ من نفسك، وإياك أن تشتغل بما يصلح غيرك قبل إصلاح نفسك، فإن كنت المشغول بنفسك فلا تشتغل إلا بالعلم الذي هو فرض عليك بحسب ما يقتضيه حالك، وما يتعلق منه بالأعمال الظاهرة: من تعلم الصلاة، والطهارة، والصوم، وإنما الأهم الذي أهمله الكل علم صفات القلب وما يحمد منها وما يذم، إذ لا ينفك بشر عن الصفات المذمومة: مثل الحرص والحسد، والرياء، والكبر، والعجب وأخواتها؛ وجميع ذلك مهلكات، وإهمالها من الواجبات مع أن الاشتغال بالأعمال الظاهرة يضاهي الإشتغال بطلاء ظاهر البدن عند التأذي بالجرب والدماميل، والتهاون بإخراج المادة بالفصد والإسهال. وحشويةُ العلماء يشيرون بالأعمال الظاهرة كما يشير الطرقية من الأطباء بطلاء ظاهر البدن، وعلماء الآخرة لا يشيرون إلا بتطهير الباطن وقطع مواد الشر: بافساد منابتها، وقلع مغارسها من القلب. وإنما فزع الأكثرون إلى الأعمال الظاهرة عن تطهير القلوب لسهولة أعمال الجوارح، واستصعاب أعمال القلوب، كما يفزع إلى طلاء الظاهر من يستصعب شرب الأدوية المرة، فلا يزال يتعب في الطلاء ويزيد في المواد، وتتضاعف به الأمراض.

فإن كنت مريداً للآخرة وطالباً للنجاة وهاربا من الهلاك الأبدي، فاشتغل بعلم العلل الباطنة وعلاجها، على ما فصلناه في ربع المهلكات. ثم ينجرّ بك ذلك إلى المقامات المحمودة المذكورة في ربع المنجيات لا محالة. فإن القلب إذا فرغ من المذموم امتلأ بالمحمود، والأرض إذا نقيت من الحشيش نبت

فيها اصناف الزرع والرياحين، وإن لم تفرّغ من ذلك لم تنبت ذاك، فلا تشتغل بفروض الكفاية، لا سيما وفي زمرة الخلق من قد قام بها، فإن مهلك نفسه فيما به صلاح غيره سفيه. فما أشد حماقة من دخلت الأفاعي والعقارب تحت ثيابه وهمت بقتله وهو يطلب مذبَّة يدفع بها الذباب عن غيره ممن لا يغنيه ولا ينجيه مما يلاقيه من تلك الحيات والعقارب إذا همت به!.

وإن تفرغت من نفسك وتطهيرها، وقدرت على ترك ظاهر الإثم وباطنه، وصار ذلك ديدنا لك وعادة متيسرة فيك، وما أبعد ذلك منك، فاشتغل بفروض الكفايات، وراع التدريج فيها: فابتدىء بكتاب الله تعالى، ثم بسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ثم بعلم التفسير وسائر علوم القرآن: من علم الناسخ والمنسوخ، والمفصول والموصول، والمحكم والمتشابه، وكذلك في السنّة. ثم اشتغل بالفروع وهو علم المذهب من علم الفقه دون الخلاف، ثم بأصول الفقه، وهكذا إلى بقية العلوم على ما يتسع له العمر ويساعد فيه الوقت. ولا تستغرق عمرك في فن واحد منها طلباً للاستقصاء، فإن العلم كثير، والعمر قصير. وهذه العلوم آلات ومقدمات وليست مطلوبة لعينها بل لغيرها، وكل ما يطلب لغيره فلا ينبغي أن ينسى فيه المطلوب ويستكثر منه، فاقتصر من شائع علم اللغة على ما تفهم منه كلام العرب وتنطق به، ومن غريبه على غريب القرآن وغريب الحديث، ودع التعمق فيه. واقتصر من النحو على ما يتعلق بالكتاب والسنّة، فما من علم إلا وله اقتصار واقتصاد واستقصاء.

ونحن نشير إليها في الحديث والتفسير والفقه والكلام لتقيس بها غيرها.

فالاقتصار في التفسير ما يبلغ ضعف القرآن في المقدار، كما صنفه علي الواحدي النيسابوري وهو الوجيز، والاقتصاد ما يبلغ ثلاثة أضعاف القرآن كما صنفه من الوسيط فيه، وما وراء ذلك استقصاء مستغنى عنه، فلا مرد له إلى انتهاء العمر.

وأما الحديث فالاقتصار فيه تحصيل ما في الصحيحين بتصحيح نسخة على رجل خبير بعلم متن الحديث.

وأما حفظ أسامي الرجال فقد كفيت فيه بما تحمّله عنك من قبلك، ولك أن تعول على كتبهم، وليس يلزمك حفظ متون الصحيحين، ولكن تحصله تحصيلاً تقدر منه على طلب ما تحتاج إليه عند الحاجة. وأما الاقتصاد فيه فأن تضيف إليهما ما خرج عنهما مما ورد في المسندات الصحيحة. وأما الاستقصاء فما وراء ذلك إلى استيعاب كل ما نقل من الضعيف والقوي والصحيح والسقيم مع معرفة الطرق الكثيرة في النقل، ومعرفة أحوال الرجال وأسمائهم وأوصافهم.

وأما الفقه فالاقتصار فيه على ما يحويه مختصر المزني رحمه الله، وهو الذي رتبناه في خلاصة المختصر والاقتصاد فيه ما يبلغ ثلاثة أمثاله، وهو القدر الذي أوردناه في الوسيط من المذهب، والاستقصاء ما أوردناه في البسيط، إلى ما وراء ذلك من المطولات.

وأما الكلام فمقصوده حماية المعتقدات التي نقلها أهل السنّة من السلف الصالح لا غير، وما وراء ذلك طلب لكشف حقائق الأمور من غير طريقتها ومقصود حفظ السنّة تحصيل رتبة الاقتصار منه بمعتقد مختصر، وهو القدر الذي أوردناه في كتاب قواعد العقائد من جمُلة هذا الكتاب، والاقتصاد فيه ما يبلغ قدر مائة ورقة، وهو الذي أوردناه في كتاب الاقتصاد في الاعتقاد، ويحتاج إليه لمناظرة مبتدع ومعارضة بدعته بما يفسدها وينزعها عن قلب العامي، وذلك لا ينفع إلا مع الغوام قبل اشتداد تعصبهم. وأما المبتدع بعد أن يعلم من الجدل ولو شيئاً يسيراً فقلما ينفع معه الكلام، فإنك إن أفحمته لم يترك مذهبه، وأحال بالقصور على نفسه، وقدّر أن عند غيره جواباً ما وهو عاجز عنه، وإنما أنت ملبس عليه بقوة المجادلة. وأما العامي إذا صرُف عن الحق بنوع جدل يمكن أن يرد إليه بمثله قبل أن يشتدّ التعصب للأهواء. فإذا اشتد تعصبهم وقع اليأس منهم، إذ التعصب سبب يرسخ العقائد في النفوس، وهو من آفات العلماء السوء، فإنهم يبالغون في التعصب للحق، وينظرون إلى المخالفين بعين الازدراء والاستحقار، فتنبعث منهم الدعوى بالمكافأة والمقابلة والمعاملة وتتوافر بواعثهم على طلب نصرة الباطل، ويقوي غرضهم في التمسك بما نسبوا إليه، ولو جاؤوا من جانب اللطف والرحمة والنصح في الخلوة لا في معرض التعصب

والتحقير لأنجحوا فيه. ولكن لما كان الجاه لا يقوم إلا بالاستتباع ولا يستميل الأتباع مثل التعصب واللعن والشتم للخصوم، اتخذوا التعصب عادتهم وآلتهم وسموه ذباً عن الدين ونضالاً عن المسلمين، وفيه على التحقيق هلاك الخلق ورسوخ البدعة في النفوس.

وأما الخلافيات التي أحدثت في هذه الأعصار المتأخرة، وأبدع فيها من التحريرات والتصنيفات والمجادلات ما لم يعهد مثلها في السلف فإياك وأن تحوم حولها، واجتنبها اجتناب السم القاتل، فإنها الداء العضال، وهو الذي رد الفقهاء كلهم إلى طلب المنافسة والمباهاة على ما سيأتيك تفصيل غوائلها وآفاتها. وهذا الكلام ربما يسمع من قائله فيقال: الناس أعداء ما جهلوا. فلا تسنّن ذلك، فعلى الخبير سقطت؛ فاقبل هذه النصيحة ممن ضيع العمر فيه زماناً، وزاد فيه على الأولين تصنيفاً وتحقيقاً وجدلاً وبياناً، ثم ألهمه الله رشده وأطلعه على عيبه، فهجره واشتغل بنفسه؛ فلا يغرنك قول من يقول: الفتوى عماد الشرع، ولا يعرف علله إلا بعلم الخلاف، فإن علل المذهب مذكورة في المذهب، والزيادة عليها مجادلات لم يعرفها الأولون ولا الصحابة، وكانوا أعلم بعلل الفتاوى من غيرهم، بل هي مع إنها غير مفيدة في علم المذهب ضارة مفسدة لذوق الفقه، فإن الذي يشهد له حدس المفتي إذا صح ذوقه في الفقه لا يمكن تمشيته على شروط الجدل في أكثر الأمر. فمن ألف طبعه رسوم الجدل أذعن ذهنه لمقتضيات الجدل وجبن عن الإذعان لذوق الفقه، وإنما يشتغل به من يشتغل لطلب الصيت والجاه، ويتعلل بأنه يطلب علل المذهب، وقد ينقضي عليه العمر ولا تنصرف همته إلى علم المذهب. فكن من شياطين الجن في أمان، واحترز من شياطين الانس، فإنهم أراحوا شياطين الجن من التعب في الإغواء والإضلال.

وبالجملة فالمرضيّ عند العقلاء أن تقدر نفسك في العالَم وحدك مع الله، وبين يديك الموت والعرض والحساب والجنة والنار، وتأمل فيما يعنيك مما بين يديك، ودع عنك ما سواه، والسلام.

وقد رأى بعضُ الشيوخ بعض العلماء في المنام فقال له: ما خبر تلك

العلوم التي كنت تجادل فيها وتناظر عليها؟ فبسط يده ونفخ فيها، وقال: طاحت كلها هباء منثوراً ، وما انتفعت إلا بركعتين خلصتا لي في جوف الليل! وفي الحديث[1] «مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ إِلاَّ أُوتُوا الْجَدَلَ» ثم قرأ ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾. وفي الحديث في معنى قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ الآية[2] هم أهل الجدل الذين عناهم الله بقوله تعالى: ﴿فَاحْذَرْهُمْ﴾. وقال بعض السلف: يكون في آخر الزمان قوم يغلق عليهم باب العمل، ويفتح لهم باب الجدل. وفي الأخبار[3] «إِنَّكُمْ فِي زَمَانٍ أُلْهِمْتُم فيه العَمَلَ وَسَيَأْتِي قَوْمٌ يُلْهَمُونَ الْجَدَلَ» وفي الخبر المشهور[4] «أَبْغَضُ الْخَلْق إِلَى اللهِ تَعَالَى الأَلَدُّ الْخَصِمُ» وفي الخبر[5] «مَا أُوتِيَ قَوْمٌ الْمَنْطِقَ إِلاَّ مُنِعُوا العَمَلَ». والله أعلم.

---

(١) حديث: ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل: الترمذي وابن ماجة من حديث أبي أمامة، قال الترمذي حسن صحيح.

(٢) حديث: هم أهل الجدل الذين عنى الله بقوله فاحذرهم: متفق عليه من حديث عائشة.

(٣) حديث: إنكم في زمان ألهمتم فيه العمل وسيأتي قوم يلهمون الجدل: لم أجده.

(٤) حديث: أبغض الخلق إلى الله الألد الخصم: متفق عليه من حديث عائشة.

(٥) حديث: ما أوتي قوم المنطق إلا منعوا العمل: لم أجد له أصلاً.

الفصل الرابع

في

أداب المتعلم والمعلم

في
آداب المتعلم والمعلم

أما المتعلم فآدابه ووظائفه الظاهرة كثيرة، ولكن تنظم تفاريقها عشر جمل:

الوظيفة الأولى: تقديم طهارة النفس عن رذائل الأخلاق ومذموم الأوصاف؛ إذ العلم عبادة القلب، وصلاة السر، وقربة الباطن إلى الله تعالى. وكما لا تصح الصلاة التي هي وظيفة الجوارح الظاهرة إلا بتطهير الظاهر عن الأحداث والأخباث، فكذلك لا تصح عبادة الباطن وعمارة القلب بالعلم إلا بعد طهارته عن خبائث الأخلاق وأنجاس الأوصاف. قال صلى الله عليه وسلم[1] **«بُنِيَ الدِّينُ عَلَى النَّظَافَةِ»** وهو كذلك باطناً وظاهراً؛ **قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾** تنبيهاً للعقول على أن الطهارة والنجاسة غير مقصورة على الظواهر المدركة بالحس، فالمشرك قد يكون نظيف الثوب مغسول البدن ولكنه نجس الجوهر، أي باطنه ملطخ بالخبائث. والنجاسة عبارة عما يجتنب ويطلب البعد منه، وخبائث صفات الباطن أهم بالاجتناب، فإنها مع خبثها في الحال **مهلكات في المآل؛ ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: «لا تَدْخُلُ[2] المَلائِكَةُ بيْتاً فِيهِ كَلْبٌ»** والقلب بيت هو منزل الملائكة ومهبط أثرهم ومحل استقرارهم؛ والصفات الرديئة مثل الغضب والشهوة والحقد، والحسد والكبر والعجب، وأخواتها، كلاب نابحة؛ فأنّى تدخله الملائكة وهو مشحون بالكلاب، ونور العلم لا

---

(١) حديث: بُني الدين على النظافة، لم أجده هكذا. وفي الضعفاء لابن حبان من حديث عائشة: تنظفوا فإن الإسلام نظيف. وللطبراني في الأوسط بسند ضعيف جداً، من حديث ابن مسعود: النظافة تدعو إلى الإيمان.

(٢) حديث: لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب: متفق عليه من حديث أبي طلحة الأنصاري.

يقذفه الله تعالى في القلب إلا بواسطة الملائكة؟ ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَو يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ وهكذا ما يرسل من رحمة العلوم إلى القلوب إنما تتولاها الملائكة الموكلون بها، وهم المقدسون للمطهرون المبرؤون من الصفات المذمومات، فلا يلاحظون إلا طيباً، ولا يعمرون بما عندهم من خزائن رحمة الله إلا طيباً طاهراً. ولست أقول: المراد بلفظ البيت هو القلب، وبالكلب هو الغضب والصفات المذمومة، ولكني أقول: هو تنبيه عليه. وفرق بين تعبير الظواهر إلى البواطن وبين التنبيه للبواطن من ذكر الظواهر مع تقرير الظواهر. ففارقْ الباطنية بهذه الدقيقة، فإن هذه طريق الاعتبار، وهو مسلك العلماء والأبرار، إذ معنى الاعتبار أن يعبر ما ذكر إلى غيره فلا يقتصر عليه، كما يرى العاقل مصيبة لغيره فيكون فيها له عبرة: بأن يعبر منها إلى التنبه لكونه أيضاً عرضة للمصائب؛ وكون الدنيا بصدد الانقلاب؛ فعبوره من غيره إلى نفسه ومن نفسه إلى أصل الدنيا عبرة محمودة. فاعبر أنت أيضاً من البيت الذي هو بناء الخلق، إلى القلب الذي هو بيت من بناء الله تعالى؛ ومن الكلب الذي ذم لصفته لا لصورته وهو ما فيه من سبعية ونجاسة، إلى الروح الكلبية وهي السبعية.

واعلم أن القلب المشحون بالغضب والشره إلى الدنيا والتكلب عليها والحرص على التمزيق لأعراض الناس، كلب في المعنى، وقلب في الصورة، فنور البصيرة يلاحظ المعاني لا الصور؛ والصور في هذا العالم غالبة على المعاني، والمعاني باطنة فيها، وفي الآخرة تتبع الصورُ المعاني، وتغلب المعاني، فلذلك يحشر كل شخص على صورته المعنوية، فيحشر الممزق[1] لأعراض الناس كلباً ضارياً، والشره إلى أموالهم ذئباً عادياً، والمتكبر عليهم في صورة نمر، وطالب الرياسة في صورة أسد. وقد وردت بذلك الأخبار، وشهد به الاعتبار عند ذوي البصائر والأبصار.

فإن قلت: كم من طالب رديء الأخلاق حصل العلوم. فهيهات ما أبعده

---

(١) حديث: الممزق لأعراض الناس في صورة كلب ضار.. . الحديث: الثعلبي في التفسير من حديث البراء بسند ضعيف.

عن العلم الحقيقي النافع في الآخرة الجالب للسعادة! فإن من أوائل ذلك العلم أن يظهر له أن المعاصي سموم قاتلة مهلكة. وهل رأيت من يتناول سماً مع علمه بكونه سماً قاتلاً؟ إنما الذي تسمعه من المترسمين حديث يلفقونه بألسنتهم مرة، ويرددونه بقلوبهم أخرى، وليس ذلك من العلم في شيء. قال ابن مسعود رضي الله عنه: ليس العلم بكثرة الرواية إنما العلم نور يقذف في القلب. وقال بعضهم: إنما العلم الخشية لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾. وكأنه أشار إلى أخص ثمرات العلم. ولذلك قال بعض المحققين: معنى قولهم: تعلمنا العلم لغير الله فأبى العلم أن يكون إلا لله، أن العلم أبى وامتنع علينا فلم تنكشف لنا حقيقته، وإنما حصل لنا حديثه وألفاظه.

فإن قلت: إني أرى جماعة من العلماء الفقهاء المحققين برّزوا في الفروع والأصول، وعُدوا من جملة الفحول، وأخلاقُهم ذميمة لم يتطهروا منها. فيقال: إذا عرفت مراتب العلوم وعرفت علم الآخرة استبان لك أن ما اشتغلوا به قليل الغناء من حيث كونه علماً، وإنما غناؤه من حيث كونه عملاً لله تعالى إذا قصد به التقرب إلى الله تعالى. وقد سقت إلى هذا إشارة، وسيأتيك فيه مزيد بيان وإيضاح، إن شاء الله تعالى.

الوظيفة الثانية: أن يقلل علائقه من الاشتغال بالدنيا، ويبعد عن الأهل والوطن، فإن العلائق شاغلة وصارفة، وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه، ومهما توزعت الفكرة قصرت عن درك الحقائق، ولذلك قيل: العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك. فإذا أعطيته كلك فأنت من عطائه إياك بعضه على خطر. والفكرة المتوزعة على أمور متفرقة كجدول تفرق ماؤه فنشفت الأرض بعضه، واختطف الهواء بعضه، فلا يبقى منه ما يجتمع ويبلغ المزدرع.

الوظيفة الثالثة: أن لا يتكبر على العلم ولا يتآمر على المعلم، بل يلقي إليه زمام أمره بالكلية في كل تفصيل، ويذعن لنصيحته إذعان المريض الجاهل للطبيب المشفق الحاذق. وينبغي أن يتواضع لمعلمه ويطلب الثواب والشرف بخدمته، قال الشعبي: صلى زيد بن ثابت على جنازة فقربت إليه بغلته ليركبها،

فجاء ابن عباس[1] فأخذ بركابه، فقال زيد: خلّ عنه يا ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال ابن عباس: هكذا أمرنا أن نفعل بالعلماء والكبراء، فقبّل زيد بن ثابت يده وقال: هكذا أمِرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا صلى الله عليه وسلم. وقال صلى الله عليه وسلم[2] «**لَيْسَ مِنْ أَخْلاقِ الْمُؤمِنِ التَّمَلُّقُ إلاَّ فِي طَلَبِ العِلمِ**». فلا ينبغي لطالب العلم أن يتكبر على المعلم، ومن تكبره على المعلم أن يستنكف عن الاستفادة إلا من المرموقين المشهورين، وهو عين الحماقة. فإن العلم سبب النجاة والسعادة. ومن يطلب مهرباً من سبع ضار يفترسه لم يفرق بين أن يرشده إلى الهرب مشهور أو خامل، وضراوة سباع النار بالجهال بالله تعالى أشد من ضراوة كل سبع. فالحكمة ضالة المؤمن يغتنمها حيث يظفر بها، ويتقلد المنة لمن ساقها إليه كائناً من كان، فلذلك قيل:

العلم حرب للفتى المتعالي ... كالسيل حرب للمكان العالي

فلا ينال العلم إلا بالتواضع وإلقاء السمع. قال الله تعالى: ﴿**إنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمعَ وَهُوَ شَهيدٌ**﴾ ومعنى كونه ذا قلب أن يكون قابلاً للعلم فهماً ثم لا تعنيه القدرة على الفهم حتى يلقي السمع وهو شهيد حاضر القلب، ليستقبل كل ما ألقي إليه بحسن الإصغاء والضراعة والشكر والفرح وقبول المنة. فليكن المتعلم لمعلمه كأرض دمثة نالت مطراً غزيراً فشربت جميع أجزائها، وأذعنت بالكلية لقبوله. ومهما أشار عليه المعلم بطريق في التعلم فليقلده وليدع رأيه، فإن خطأ مرشده أنفع له من صوابه في نفسه. إذ التجربة تُطلع على دقائق يستغرب سماعها مع أنه يعظم نفعها، فكم من مريض

---

(١) حديث: أخذ ابن عباس بركاب زيد بن ثابت وقوله هكذا أمرنا أن نفعل بالعلماء: الطبراني والحاكم والبيهقي في المدخل، إلا أنهم قالوا: هكذا نفعل. قال الحاكم صحيح الاسناد على شرط مسلم.

(٢) حديث: ليس من أخلاق المؤمن التملق إلا في طلب العلم: ابن عدي من حديث معاذ وأبي أمامة بإسنادين ضعيفين.

محرور يعالجه الطبيب في بعض أوقاته بالحرارة ليزيد في قوّته إلى حد يحتمل صدمة العلاج، فيعجب منه من لا خبرة له به. وقد نبه الله تعالى بقصة الخضر وموسى عليهما السلام حيث قال الخضر: ﴿ **إنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ معِيَ صَبراً، وَكَيْفَ تَصْبرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً**﴾ ثم شرط عليه السكوت والتسليم فقال: ﴿**فَإنِ آتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْأَلْنَي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً**﴾ ثم لم يصبر ولم يزل في مراودته إلى أن كان ذلك سبب الفراق بينهما. وبالجملة كل متعلم استبقى لنفسه رأياً واختياراً دون اختيار المعلم فاحكم عليه بالإخفاق والخسران.
فإن قلت: فقد قال الله تعالى: ﴿**فاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكرِ إنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ**﴾ فالسؤال مأمور به.

فاعلم أنه كذلك، ولكن فيما يأذن المعلم في السؤال عنه، فإن السؤال عما لم تبلغ مرتبتك إلى فهمه مذموم، ولذلك منع الخضر موسى عليه السلام من السؤال، أي دع السؤال قبل أوانه فالمعلم أعلم بما أنت أهل له، وبأوان الكشف، وما لم يدخل أوان الكشف في كل درجة من مراقي الدرجات لا يدخل أوان السؤال عنه. وقد قال علي رضي الله عنه: إن من حق العالم أن لا تكثر عليه بالسؤال، ولا تعنته في الجواب، ولا تلج عليه إذا كسل، ولا تأخذ بثوبه إذا نهض، ولا تفشي له سراً، ولا تغتابن أحداً عنده، ولا تطلبن عثرته، وإن زل قبلت معذرته، وعليك أن توقره وتعظمه لله تعالى ما دام يحفظ أمر الله تعالى، ولا تجلس أمامه، وإن كانت له حاجة سبقت القوم إلى خدمته.

الوظيفة الرابعة: أن يحترز الخائض في العلم في مبدأ الأمر عن الإصغاء إلى اختلاف الناس، سواء كان ما خاض فيه من علوم الدنيا أو علوم الآخرة، **فإن ذلك يدهش عقله ويحير ذهنه، ويفتر رأيه ويؤيسه عن الإدراك والإطلاع، بل** ينبغي أن يتقن أولاً الطريق الحميدة الواحدة. المرضية عند أستاذه، ثم بعد ذلك يصغي إلى المذهب والشبه، وإن لم يكن أستاذه مستقلاً باختيار رأي واحد وإنما عادته نقل المذاهب وما قيل فيها، فليحذر منه، فإن اضلاله أكثر من إرشاده، فلا يصلح الأعمى لقود العميان وإرشادهم، ومن هذا حاله يعد في عمى الحيرة وتيه الجهل. ومنع المبتدىء عن الشبه يضاهي منع الحديث العهد بالإسلام عن

مخالطة الكفار، وندب **القوي** إلى النظر في الاختلافات يضاهي حث **القوي** على مخالطة الكفار. ولهذا يمنع الجبان عن التهجم على صف الكفار، ويندب الشجاع له. ومن الغفلة عن هذه الدقيقة ظن بعض الضعفاء أن الاقتداء بالأقوياء فيما ينقل عنهم من المساهلات جائز، ولم يدر أن وظائف الأقوياء تخالف وظائف الضعفاء. وفي ذلك قال بعضهم: من رآني في البداية صار صديقاً، ومن رآني في النهاية صار زنديقاً، إذ النهاية ترد الأعمال إلى الباطن، وتسكن الجوارح إلا عن رواتب الفرائض، فيتراءى للناظرين أنها بطالة وكسل وإهمال، وهيهات. فذلك مرابطة القلب في عين الشهود والحضور، وملازمة الذكر الذي هو أفضل **الأعمال** على الدوام. وتشبه الضعيف **بالقوي** فيما يرى من ظاهره أنه هفوة يضاهي اعتذار من يلقى نجاسة يسيرة في كوز ماء، ويتعلل بأن أضعاف هذه النجاسة قد يلقى في البحر والبحر أعظم من الكوز، فما جاز للبحر فهو للكوز أجوز. ولا يدري المسكين أن البحر بقوته يحيل النجاسة ماء فتنقلب عين النجاسة باستيلائه إلى صفته، والقليل من النجاسة يغلب على الكوز ويحيله إلى صفته، ولمثل هذا جوز النبي صلى الله عليه وسلم ما لم يجوّز لغيره[1] «حَتَّى أُبِيحَ لَهُ تِسْعُ نِسْوَةٍ» إذ كان له من القوة ما يتعدى منه صفة العدل إلى نسائه وإن كثرن. وأما غيره فلا يقدر على بعض العدل بل يتعدى ما بينهن من الضرار إليه، حتى ينجر إلى معصية الله تعالى في طلبه رضاهن، فما أفلح من قاس الملائكة بالحدادين.

الوظيفة الخامسة: أن لا يدع طالب العلم فنّاً من العلوم المحمودة ولا نوعاً من أنواعه إلا وينظر فيه نظراً يطلع به على مقصده وغايته، ثم إن ساعده العمر طلب التبحر فيه، وإلا اشتغل بالأهم منه واستوفاه، وتطرف من البقية، فإن العلوم متعاونة، وبعضها مرتبط ببعض، ويستفيد منه في الحال الانفكاك عن عداوة ذلك العلم بسبب جهله، فإن الناس أعداء ما جهلوا قال تعالى: **﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾**. قال الشاعر:

---

(١) حديث: أبيح له صلى الله عليه وسلم تسع نسوة، وهو معروف. وفي الصحيحين من حديث ابن عباس: كان عند النبي صلى الله عليه وسلم تسع... الحديث.

ومــن يــك ذا فــم مــر مــريض يـجــدْ مُــرا بــه الـمــاء الــزلالا

فالعلوم على درجاتها إما سالكة بالعبد إلى الله تعالى أو معينة على السلوك نوعاً من الإعانة. ولها منازل مرتبة في القرب والبعد من المقصود، والقُوام بها حفظة كحفاظ الرباطات والثغور، ولكل واحد رتبة، وله بحسب درجته أجر في الآخرة إذا قصد به وجه الله تعالى.

الوظيفة السادسة: أن لا يخوض في فن من فنون العلم دفعة، بل يراعي الترتيب، ويبتدىء بالأهم، فإن العمر إذا كان لا يتسع لجميع العلوم غالباً فالحزم أن يأخذ من كل شيء أحسنه، ويكتفي منه بشمه، ويصرف جمام قوته في الميسور من علمه إلى استكمال العلم الذي هو أشرف العلوم وهو علم الآخرة، أعني قسمي المعاملة والمكاشفة، فغاية المعاملة المكاشفة، وغاية المكاشفة معرفة الله تعالى. ولست أعني به الاعتقاد الذي يتلقفه العامي وراثة أو تلقفاً، ولا طريق تحرير الكلام والمجادلة في تحصين الكلام عن مراوغات الخصوم كما هو غاية المتكلم، بل ذلك نوع يقين هو ثمرة نور يقذفه الله تعالى في قلب عبد طهّر بالمجاهدة باطنه عن الخبائث حتى ينتهي إلى رتبة إيمان أبي بكر رضي الله عنه[1] الذي «لَوْ وُزِنَ بِإِيمَانِ العَالَمِينَ لَرَجَحَ» كما شهد له به سيد البشر صلى الله عليه وسلم، فما عندي أن ما يعتقده العامي ويرتبه المتكلم الذي لا يزيد على العامي إلا في صنعة الكلام، ولأجله سميت صناعته كلاماً، وكان يعجز عنه عمر وعثمان وعلي وسائر الصحابة رضي الله عنهم، حتى كان يفضلهم أبو بكر بالسر الذي وقر في صدره. والعجب ممن يسمع مثل هذه الأقوال من صاحب الشرع صلوات الله وسلامه عليه ثم يزدري ما يسمعه على وفقه، ويزعم أنه من ترهات الصوفية، وأن ذلك غير معقول، فينبغي أن تتئد في هذا فعنده ضيعت رأس المال، فكن حريصاً على معرفة ذلك السر الخارج عن بضاعة الفقهاء والمتكلمين، ولا يرشدك إليه إلا حرصك في الطلب.

---

(١) حديث: لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان العالمين لرجح: ابن عدي من حديث ابن عم بإسناد ضعيف. ورواه البيهقي في الشِعَب موقوفاً على عمر بإسناد صحيح.

وعلى الجملة فأشرف العلوم وغايتها معرفة الله عز وجل، وهو بحر لا يدرك منتهى غوره. وأقصى درجات البشر فيه رتبة الأنبياء، ثم الأولياء، ثم الذين يلونهم. وقد روي أنه رئي صورة حكيمين من الحكماء المتقدمين في مسجد وفي يد أحدهما رقعة فيها: **إن أحسنت كل شيء فلا تظنن أنك أحسنت شيئاً حتى** تعرف الله تعالى وتعلم أنه مسبب الأسباب وموجد الأشياء، وفي يد الآخر: كنت قبل أن أعرف الله تعالى أشرب وأظمأ حتى إذا عرفته رويت بلا شرب.

الوظيفة السابعة: ان لا يخوض في فن حتى يستوفي الفن الذي قبله، فإن العلوم مرتبة ترتيباً ضرورياً، وبعضها طريق إلى بعض، والموفق من راعى ذلك الترتيب والتدريج، قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ﴾. أي لا يجاوزون فناً حتى يحكموه علماً وعملاً. وليكن قصده في كل علم يتحراه الترقي إلى ما هو فوقه، فينبغي أن لا يحكم على علم بالفساد لوقوع الخلف بين أصحابه فيه، ولا بخطأ واحد أو آحاد فيه، ولا بمخالفتهم موجب علمهم بالعمل، فترى جماعة تركوا النظر في العقليات والفقهيات متعللين فيها بأنها لو كان لها أصل لأدركه أربابها، وقد مضى كشف هذه الشبه في كتاب معيار العلم. وترى طائفة يعتقدون بطلان الطب لخطأ شاهدوه من طبيب، وطائفة اعتقدوا صحة النجوم لصواب اتفق لواحد، وطائفة اعتقدوا بطلانه لخطأ اتفق لآخر، والكل خطأ، بل ينبغي أن يعرف الشيء في نفسه، فلا كل علم يستقل بالإحاطة به كل شخص. ولذلك قال علي رضي الله عنه: لا تعرف الحق بالرجال أعرف الحق تعرف أهله.

الوظيفة الثامنة: أن يعرف السبب الذي به يدرك أشرف العلوم، وأن ذلك يراد به شيئان: أحدهما شرف الثمرة، والثاني وثاقة الدليل وقوته، وذلك كعلم الدين وعلم الطب، فإن ثمرة أحدهما الحياة الأبدية، وثمرة الآخر الحياة الفانية، فيكون علم الدين أشرف. ومثل علم الحساب وعلم النجوم، فإن علم الحساب أشرف لوثاقة أدلته وقوتها، وإنْ نسب الحساب إلى الطب كان الطب أشرف باعتبار ثمرته، والحساب أشرف باعتبار أدلته، وملاحظة الثمرة أولى، ولذلك كان الطب أشرف وإن كان أكثره بالتخمين. وبهذا تبين أن أشرف العلوم

بالعلم بالله عز وجل وملائكته وكتبه ورسله، والعلم بالطريق الموصل إلى هذه العلوم. فإياك وأن ترغب إلا فيه، وأن تحرص إلا عليه.

الوظيفة التاسعة: أن يكون قصد المتعلم في الحال تحلية باطنه وتجميله بالفضيلة، وفي المآل القرب من الله سبحانه والترقي إلى جوار الملأ الأعلى من الملائكة والمقربين، ولا يقصد به الرياسة والمال والجاه ومماراة السفهاء ومباهاة الأقران، وإذا كان هذا مقصده طلب لا محالة الأقرب إلى مقصوده وهو علم الآخرة. ومع هذا فلا ينبغي له أن ينظر بعين الحقارة إلى سائر العلوم، أعني علم الفتاوى وعلم النحو واللغة المتعلقين بالكتاب والسنّة، وغير ذلك مما أوردناه في المقدّمات والمتممات من ضروب العلوم التي هي فرض كفاية. ولا تفهمن من غلوّنا في الثناء على علم الآخرة تهجين هذه العلوم، فالمتكفلون بالعلوم كالمتكفلين بالثغور والمرابطين بها والغزاة المجاهدين في سبيل الله، فمنهم المقاتل، ومنهم الرِّدْء، ومنهم الذي يسقيهم الماء، ومنهم الذي يحفظ دوابهم ويتعهدهم. ولا ينفك أحد منهم عن أجر إذا كان قصده إعلاء كلمة الله تعالى دون حيازة الغنائم، فكذلك العلماء، وقال الله تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ . وقال تعالى: ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللهِ﴾. والفضيلة نسبية، واستحقارنا للصيارفة عند قياسهم بالملوك لا يدل على حقارتهم إذا قيسوا بالكناسين. فلا تظنن أن ما نزل عن الرتبة القصوى ساقط القدر، بل الرتبة العليا للأنبياء، ثم الأولياء، ثم العلماء الراسخين في العلم، ثم للصالحين على تفاوت درجاتهم. وبالجملة من يعملْ مثقال ذرة خيراً يَرَهُ، ومَنْ يعملْ مثقال ذرة شراً يره، ومن قصد الله تعالى بالعلم أيّ علم كان، نفعه، ورفعه لا محالة.

الوظيفة العاشرة: أن يعلم نسبة العلوم إلى المقصد، كيما يؤثر الرفيع القريب على البعيد، والمهم على غيره. ومعنى المهم ما يهمك، ولا يهمك إلا شأنك في الدنيا والآخرة. وإذا لم يمكنك الجمع بين ملاذ الدنيا ونعيم الآخرة كما نطق به القرآن وشهد له من نور البصائر ما يجري مجرى العيان، فالأهم ما يبقى أبد الآباد؛ وعند ذلك تصير الدنيا منزلاً، والبدن مركباً، والأعمال سعياً إلى

المقصد. ولا مقصد إلا لقاء الله تعالى، ففيه النعيم كله، وإن كان لا يعرف في هذا العالم قدره إلا الأقلون. والعلوم بالإضافة إلى سعادة لقاء الله سبحانه والنظر إلى وجهه الكريم، أعني النظر الذي طلبه الأنبياء وفهموه دون ما يسبق إلى فهم العوام والمتكلمين، على ثلاث مراتب، تفهمها بالموازنة بمثال: وهو أن العبد الذي علق عنقه وتمكينه من الملك بالحج وقيل له: إن حججت اتممت وصلت إلى العتق والملك جميعاً، وإن ابتدأت بطريق الحج والاستعداد له وعاقك في الطريق مانع ضروري فلك العتق والخلاص من شقاء الرق فقط دون سعادة الملك، فله ثلاثة أصناف من الشغل:

الأول - تهيئة الأسباب بشراء الناقة وخرز الراوية وإعداد الزاد والراحلة.

والثاني - السلوك ومفارقة الوطن بالتوجه إلى الكعبة منزلاً بعد منزل.

والثالث - الاشتغال بأعمال الحج ركناً بعد ركن، ثم بعد الفراغ والنزوع عن هيئة الإحرام وطواف الوداع استحق التعرض للملك والسلطنة. وله في كل مقام منازل، من أول إعداد الأسباب إلى آخره، ومن أول سلوك البوادي إلى اخره، ومن أول أركان الحج إلى آخره. وليس قرب من ابتدأ بالسلوك، بل هو أقرب منه. فالعلوم أيضاً ثلاثة أقسام: قسم يجري مجرى إعداد الزاد والراحلة وشراء الناقة، وهو علم الطب والفقه وما يتعلق بمصالح البدن في الدنيا. وقسم يجري مجرى سلوك البوادي وقطع العقبات، وهو تطهير الباطن عن كدورات الصفات وطلوع تلك العقبات الشامخة التي عجز عنها الأولون والآخرون إلا الموفقين، فهذا سلوك الطريق، وتحصيل علمه كتحصيل علم جهات الطريق ومنازله. وكما لا يغني علم المنازل وطرق البوادي دون سلوكها، كذلك لا يغني علم تهذيب الأخلاق دون مباشرة التهذيب، ولكن المباشرة دون العلم غير ممكن. وقسم ثالث يجري مجرى نفس الحج وأركانه، وهو العلم بالله تعالى وصفاته وملائكته وأفعاله وجميع ما ذكرناه في تراجم علم المكاشفة، وها هنا نجاة وفوز بالسعادة، والنجاة حاصلة لكل سالك للطريق إذا كان غرضه المقصد الحق وهو السلامة. وأما الفوز بالسعادة فلا يناله إلا العارفون بالله تعالى، وهم المقربون المنعمون في جوار الله تعالى بالرَّوْح والريحان وجنة النعيم. وأما

الممنوعون دون ذروة الكمال فلهم النجاة والسلامة، كما قال الله عز وجل: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرِيحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ ، وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ فَسَلامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾. وكل من لم يتوجه إلى المقصد ولم ينتهض له، أو انتهض إلى جهته لا على قصد الإمتثال والعبودية بل لغرض عاجل، فهو من أصحاب الشمال، ومن الضالين، فله نُزُل من حميم وتصلية جحيم.

واعلم أن هذا هو حق اليقين عند العلماء الراسخين، أعني أنهم أدركوه بمشاهدة من الباطن هي أقوى وأجلى من مشاهدة الأبصار، وترقوا فيه عن حد التقليد لمجرد السماع، وحالهم حال من أُخبر فصدّق، ثم شاهد فحقق، وحال غيرهم حال من قبل بحسن التصديق والإيمان ولم يحظ بالمشاهدة والعيان فالسعادة وراء علم المكاشفة، وعلم المكاشفة وراء علم المعاملة التي هي سلوك طريق الآخرة. وقطع عقبات الصفات وسلوك طريق محو الصفات المذمومة وراء علم الصفات. وعلم طريق المعالجة وكيفية السلوك في ذلك وراء علم سلامة البدن: ومساعدة أسباب الصحة وسلامة البدن بالاجتماع والتظاهر والتعاون الذي يتوصل به إلى الملبس والمطعم والمسكن، وهو منوط بالسلطان، وقانونه في ضبط الناس على منهج العدل والسياسة في ناصية الفقيه. وأما أسباب الصحة ففي ناصية الطبيب. ومن قال: العلم علمان: علم الأبدان وعلم الأديان، وأشار به إلى الفقه، أراد به العلوم الظاهرة الشائعة لا العلوم العزيزة الباطنة.

فإن قلت: لم شبهت علم الطب والفقه بإعداد الزاد والراحلة؟

فاعلم أن الساعي إلى الله تعالى لينال قربه هو القلب دون البدن، ولست أعني بالقلب اللحم المحسوس، بل هو سر من أسرار الله عز وجل لا يدركه الحس، ولطيفة من لطائفه تارة يعبر عنه بالروح، وتارة بالنفس المطمئنة. والشرع يعبر عنه بالقلب لأنه المطية الأولى لذلك السر، وبواسطته صار جميع البدن مطية وآلة لتلك اللطيفة. وكشف الغطاء عن ذلك السر من علم المكاشفة، وهو مضنون به بل لا رخصة في ذكره. وغاية المأذون فيه أن يقال: هو جوهر نفيس

ودر عزيز أشرف من هذه الأجرام المرئية، وإنما هو أمر إلهي، كما قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ وكل المخلوقات منسوبة إلى الله تعالى، ولكن نسبته أشرف من نسبة سائر أعضاء البدن، فلله الخلق والأمر جميعاً، والأمر أعلى من الخلق، وهذه الجوهرة النفيسة الحاملة لأمانة الله تعالى المتقدمة بهذه الرتبة على السموات والأرضين والجبال إذ أبين أن يحملنها وأشفقن منها، من عالم الأمر. ولا يفهم من هذا أنه تعريض بقدمها، فإن القائل بقدم الأرواح مغرور جاهل لا يدري ما يقول. فلنقبض عنان البيان عن هذا الفن، فهو وراء ما نحن بصدده. والمقصود أن هذه اللطيفة هي الساعية إلى قرب الرب لأنها من أمر الرب، فمنه مصدرها، وإليه مرجعها. وأما البدن فمطيتها التي تركبها وتسعى بواسطتها. فالبدن لها في طريق الله تعالى كالناقة للبدن في طريق الحج، وكالراوية الخازنة للماء الذي يفتقر إليه البدن، فكل علم مقصده مصلحة البدن فهو من جملة مصالح المطية، ولا يخفى أن الطب كذلك، فإنه قد يحتاج إليه في حفظ الصحة على البدن، ولو كان الإنسان وحده لاحتاج إليه، والفقه يفارقه في أنه لو كان الإنسان وحده ربما كان يستغني عنه، ولكنه خلق على وجه الأرض لا يمكنه أن يعيش وحده، إذ لا يستقل بالسعي وحده في تحصيل طعامه، بالحراثة والزرع والخبز والطبخ، وفي تحصيل الملبس والمسكن، وفي إعداد آلات ذلك كله، فاضطر إلى المخالطة والاستعانة، ومهما اختلط الناس وثارت شهواتهم تجاذبوا أسباب الشهوات، وتنازعوا وتقاتلوا، وحصل من قتالهم هلاكهم بسبب التنافس من خارج، كما يحصل هلاكهم بسبب تضاد الأخلاط من داخل، وبالطب يحفظ الاعتدال في الأخلاط المتنازعة من داخل، وبالسياسة والعدل يحفظ الاعتدال في التنافس من خارج، وعلم طريق اعتدال الأخلاط طب، وعلم طريق اعتدال أحوال الناس في المعاملات والأفعال فقه، وكل ذلك لحفظ البدن الذي هو مطية. فالمتجرد لعلم الفقه أو الطب إذا لم يجاهد نفسه ولا يصلح قلبه كالمتجرد لشراء الناقة وعلفها وشراء الراوية وخرزها إذا لم يسلك بادية الحج، والمستغرق عمره في دقائق الكلمات التي تجري في مجادلات الفقه كالمستغرق عمره في دقائق الأسباب التي بها تستحكم الخيوط التي تخرز بها الراوية للحج. ونسبة هؤلاء من السالكين لطريق إصلاح

القلب الموصل إلى علم المكاشفة كنسبة أولئك إلى سالكي طريق الحج أو ملابسي أركانه. فتأمل هذا أولاً، واقبل النصيحة مجاناً ممن قام عليه ذلك غالباً ولم يصل إليه إلا بعد جهد جهيد، وجراءة تامة على مباينة الخلق العامة والخاصة، في النزوع من تقليدهم بمجرد الشهوة. فهذا القدر كاف في وظائف المتعلم.

بيـان
وظائف المرشد المعلم

اعلم أن للإنسان في علمه أربعة أحوال، كحاله في اقتناء الأمـوال: إذ لصاحب المال حال استفادة فيكون مكتسباً، وحال ادخار لما اكتسبه فيكون به غنياً عن السؤال، وحال إنفاق على نفسه فيكون منتفعاً، وفي حال بذل لغيره فيكون به سخياً متفضلاً، وهو أشرف أحواله. فكذلك العلم يقتنى كما يقتنى المـال، فله حال طلب واكتسـاب، وحال تحصيـل يغني عن السؤال، وحـال استبصار وهو التفكر في المحصَّل والتمتع به، وحال تبصير وهو أشرف الأحوال. فمن علم وعمل وعلّم فهو الذي يدعى عظيماً في ملكوت السموات، فإنه كالشمس تضيء لغيرها وهي مضيئة في نفسها، وكالمسك الذي يطيّب غيره وهو طيب. والذي يعلم ولا يعمل به كالدفتر الذي يفيد غيره وهو خال عن العلم، وكالمسن الذي يشحذ غيره ولا يقطع، والإبـرة التي تكسو غيـرها وهي عـارية، وذبـالة المصباح تضيء لغيرها وهي تحترق، كما قيل:

مـا هـو إلا ذبـالـة وقـدت تـضـيء لـلنـاس وهـي تـحـتـرق

ومهما اشتغل بالتعليم فقد تقلد أمراً عظيماً وخطراً جسيماً، فليحفظ آدابه ووظائفه.

الوظيفة الأولى: الشفقة على المتعلمين، وأن يجريهم مُجرى بنيه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] «إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ مِثْلُ الْوالِدِ لِوَلَـدِهِ» بأن يقصد إنقاذهم من نار الآخرة، وهو أهم من إنقاذ الوالـدَين ولدهمـا من نار الـدنيا،

(١) حديث: إنما أنا لكم مثل الوالد لولده: أبو داود والنسائي وابن ماجة وابن حبـان من حديث أبي هريرة.

ولذلك صار حق المعلم أعظم من حق الوالدين، فإن الوالد سبب الوجود الحاضر والحياة الفانية، والمعلم سبب الحياة الباقية، ولولا المعلم لانساق ما حصل من جهة الأب إلى الهلاك الدائم، وإنما المعلم هو المفيد للحياة الأخروية الدائمة، أعني معلم علوم الآخرة، أو علوم الدنيا على قصد الآخرة لا على قصد الدنيا، فأما التعليم على قصد الدنيا هو هلاك وإهلاك، نعوذ بالله منه.
وكما أن حق أبناء الرجل الواحد أن يتحابوا ويتعاونوا على المقاصد كلها، فكذلك حق تلامذة الرجل الواحد التحاب والتوادد، ولا يكون إلا كذلك إن كان مقصدهم الآخرة، ولا يكون إلا التحاسد والتباغض إن كان مقصدهم الدنيا، فإن العلماء وأبناء الآخرة مسافرون إلى الله تعالى، وسالكون إليه الطريق من الدنيا، وسنوها وشهورها منازل الطريق، والترافق في الطريق بين المسافرين إلى الأمصار سبب التواد والتحاب، فكيف السفر إلى الفردوس الأعلى والترافق في طريقه ولا ضيق في سعادة الآخرة؟ فلذلك لا يكون بين أبناء الآخرة تنازع، ولا سعة من سعادة الدنيا، فلذلك لا ينفك عن ضيق التزاحم. والعادلون إلى طلب الرياسة بالعلوم خارجون عن موجب قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ وداخلون في مقتضى قوله تعالى: ﴿الأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾.

الوظيفة الثانية: أن يقتدي بصاحب الشرع صلوات الله عليه وسلامه، فلا يطلب على إفادة العلم أجرا، ولا يقصد به جزاء ولا شكراً، بل يعلّم لوجه الله تعالى وطلباً للتقرب إليه؛ ولا يرى لنفسه منّة عليهم وإن كانت المنة لازمة عليهم، بل يرى الفضل لهم إذ هذبوا قلوبهم لأن تتقرب إلى الله تعالى بزراعة العلوم فيها، كالذي يعيرك الأرض لتزرع فيها لنفسك زراعة فمنفعتك بها تزيد على منفعة صاحب الأرض، فكيف تقلد منه وثوابك في التعليم أكثر من ثواب المتعلم عند الله تعالى، ولولا المتعلم ما نلت هذا الثواب؟ فلا تطلب الأجر إلا من الله تعالى، كما قال عز وجل: ﴿وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللهِ﴾ فإن المال وما في الدنيا خادم البدن، والبدن مركب النفس ومطيتها، والمخدوم هو العلم، إذ به شرف النفس؛ فمن طلب بالعلم المال كان كمن مسح أسفل مداسه بوجهه لينظفه، فجعل المخدوم خادماً والخادم مخدوماً، وذلك هو الانتكاس على أم الرأس. ومثله هو الذي يقوم في العرض الأكبر مع

المجرمين ناكسي رؤوسهم عند ربهم. وعلى الجملة فالفضل والمنة للمعلم. فانظر كيف انتهى أمر الدين إلى قوم يزعمون أن مقصودهم التقرب إلى الله تعالى بما هم فيه من علم الفقه والكلام والتدريس فيهما وفي غيرهما، فإنهم يبذلون المال والجاه ويتحملون أصناف الذل في خدمة السلاطين لاستطلاق الجرايات، ولو تركوا ذلك لتركوا ولم يختلف إليهم، ثم يتوقع المعلم من المتعلم أن يقوم له في كل نائبة، وينصر وليه، ويعادي عدوه، وينتهض جهاراً له في حاجاته، ومسخراً بين يديه في أوطاره، فإنْ قصّر في حقه ثار عليه وصار من أعدى أعدائه، فأخْسِسْ بعالم يرضى لنفسه بهذه المنزلة ثم يفرح بها، ثم لا يستحي من أن يقول: غرضي من التدريس نشر العلم تقرباً إلى الله تعالى ونصرة لدينه! فانظر إلى الأمارات حتى ترى ضروب الاغترارات.

الوظيفة الثالثة: أن لا يدع من نصح المتعلم شيئاً، وذلك بأن يمنعه من التصدي لرتبة قبل استحقاقها، والتشاغل بعلم خفي قبل الفراغ من الجلي، ثم ينبهه على أن الغرض بطلب العلوم القرب إلى الله تعالى دون الرياسة والمباهاة والمنافسة، ويقدم تقبيح ذلك في نفسه بأقصى ما يمكن، فليس ما يصلحه العالم الفاجر بأكثر مما يفسده، فإنْ علم من باطنه أنه لا يطلب العلم إلا للدنيا نظر إلى العلم الذي يطلبه: فإن كان هو علم الخلاف في الفقه والجدل في الكلام والفتاوى في الخصومات والأحكام، فيمنعه من ذلك، فإن هذه العلوم ليست من علوم الآخرة ولا من العلوم التي قيل فيها: تعلمنا العلم لغير الله فأبى العلم أن يكون إلا لله، وإنما ذلك علم التفسير وعلم الحديث، وما كان الأولون يشتغلون به من علم الآخرة ومعرفة أخلاق النفس وكيفية تهذيبها، فإذا تعلمه الطالب وقصد به الدنيا فلا بأس أن يتركه، فإنه يثمر له طمعاً في الوعظ والاستتباع، ولكن قد يتنبه في أثناء الأمر أو آخره، إذ فيه العلوم المخوفة من الله تعالى المحقرة للدنيا المعظمة للآخرة، وذلك يوشك أن يؤدي إلى الصواب في الآخرة حتى يتعظ بما يعظ به غيره، ويجري حُب القبول والجاه مجرى الحب الذي ينثر حوالى الفخ ليقتنص به الطير، وقد فعل الله ذلك بعباده، إذ جعل الشهوة ليصل الخلق بها إلى بقاء النسل، وخلق أيضاً حب الجاه ليكون سبباً لإحياء العلوم. وهذا متوقع في هذه العلوم.

فأما الخلافات المحضة ومجادلات الكلام ومعرفة التفاريع الغريبة فلا يزيد التجرد لها مع الإعراض عن غيرها إلا قسوة في القلب، وغفلة عن الله تعالى، وتمادياً في الضلال، وطلباً للجاه، إلا من تداركه الله تعالى برحمته، أو مزج به غيره من العلوم الدينية، ولا برهان على هذا كالتجربة والمشاهدة. فانظر واعتبر، واستبصر لتشاهد تحقيق ذلك في العباد والبلاد، والله المستعان. وقد رئي سفيان الثوري رحمه الله حزيناً، فقيل له: ما لك؟ فقال: صرنا متجراً لأبناء الدنيا، يلزمنا أحدهم حتى إذا تعلم جعل قاضياً أو عاملاً أو قهرماناً.

والوظيفة الرابعة: وهي من دقائق صناعة التعليم ـ أن يزجر المتعلم عن سوء الأخلاق بطريق التعريض ما أمكن، ولا يصرح، وبطريق الرحمة لا بطريق التوبيخ، فإن التصريح يهتك حجاب الهيبة، ويورث الجرأة على الهجوم بالخلاف، ويهيج الحرص على الإصرار، إذ قال صلى الله عليه وسلم وهو مرشد كل معلم[1] «لَوْ مُنِعَ النَّاسُ عَنْ فَتِّ البَعْرِ لَفَتُّوهُ وَقَالُوا مَا نُهِينَا عَنْهُ إلاَّ وَفِيهِ شَيْءٌ»! وينبهك على هذا قصة آدم وحواء عليهما السلام وما نهيا عنه، فما ذكرت القصة معك لتكون سمرا، بل لتتنبه بها على سبيل العبرة، ولأن التعريض أيضاً يميل النفوس الفاضلة والأذان الذكية إلى استنباط معانيه، فيفيد فرح التفطن لمعناه رغبة في العلم به ليعلم أن ذلك مما لا يعزب عن فطنته.

الوظيفة الخامسة: أن المتكفل ببعض العلوم ينبغي أن لا يقبّح في نفس المتعلم العلوم التي وراءه كمعلم اللغة إذ عادته تقبيح علم الفقه، ومعلم الفقه عادته تقبيح علم الحديث والتفسير وأن ذلك نقل محض وسماع وهو شأن العجائز، ولا نظر للعقل فيه، ومعلم الكلام ينفّر عن الفقه ويقول: ذلك فروع وهو كلام في حيض النسوان، فأين ذلك من الكلام في صفة الرحمن. فهذه أخلاق مذمومة للمعلمين ينبغي أن تجتنب، بل المتكفل بعلم واحد ينبغي أن يوسع على المتعلم طريق التعلم في غيره؛ وإن كان متكفلاً بعلوم فينبغي أن يراعى التدريج في ترقية المتعلم من رتبة إلى رتبة.

---

(١) حديث: لو منع الناس عن فت البعر لفتوه ـ الحديث: لم أجده.

الوظيفة السادسة: أن يقتصرَ بالمتعلم على قدر فهمه، فلا يلقي إليه ما لا يبلغه عقله، فينفره أو يخبط عليه عقله، اقتداء في ذلك بسيد البشر صلى الله عليه وسلم حيث قال: (١) **«نَحْنُ مَعَاشِرَ الأَنْبِياءِ أُمِرْنَا أَنْ نُنْزِلَ النَّاسَ مَنَازِلَهُمْ وَنُكَلِّمَهُمْ عَلَى قَدْرِ عُقُولِهِمْ»**. فليبثّ إليه الحقيقة إذا علم أنه يستقل بفهمها. وقال صلى الله عليه وسلم: **«مَا أَحَدٌ يُحَدِّثُ قَوْماً بِحَدِيثٍ لا تَبْلُغُهُ عُقُولُهُمْ إلاَّ كَانَ فِتْنَةً عَلَى بَعْضِهِمْ»**. وقال علي رضي الله عنه وأشار إلى صدره: إن ها هنا لعلوماً جمّة لو وجدت لها حملة. وصدق رضي الله عنه، فقلوب الأبرار قبور الأسرار، فلا ينبغي أن يفشي العالم كل ما يعلم إلى كل أحد. هذا إذا كان يفهمه المتعلم ولم يكن أهلاً للانتفاع به، فكيف فيما لا يفهمه؟ وقال عيسى عليه السلام: لا تعلقوا الجواهر في أعناق الخنازير، فإن الحكمة خير من الجوهر، ومن كرهها فهو شر من الخنازير. ولذلك قيل: كِلْ لكل عبد بمعيار عقله، وزن له بميزان فهمه حتى تسلم منه وينتفع بك، وإلا وقع الإنكار لتفاوت المعيار. وسئل بعض العلماء عن شيء فلم يجب، فقال السائل: أما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم[٢] قال: «مَنْ كَتَمَ عِلْماً نَافِعاً جَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ مُلْجَماً بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ»! فقال: اترك اللجام واذهب فإن جاء من يفقهه وكتمته فليلجمني، فقد قال الله تعالى: **﴿وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمْ﴾** تنبيهاً على أن حفظ العلم ممن يفسده ويضره أولى، وليس الظلم في إعطاء غير المستحق بأقل من الظلم في منع المستحق:

أأنثر درًّا بين سارحة النَّعم ... فأصبح محزوناً براعية الغنمْ
لأنهم أمسوا بجهل لقدره ... فلا أنا أضحي أن أطوقه البَهم
فإن لَطف الله اللطيف بلطفه ... وصادفتُ أهلا للعلوم وللحكم
نشرت مفيداً واستفدت مودة ... وإلا فمخزون لديّ ومكتتم
فمن منح الجهال علماً أضاعه ... ومن منع المستوجبين فقد ظلم

---

(١) حديث: نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن ننزل الناس منازلهم... الحديث: رويناه في جزء من حديث أبي بكر بن الشخير من حديث عمر أخصر منه، وعند أبي داود من حديث عائشة: انزلوا الناس منازلهم.

(٢) حديث: من كتم علماً نافعاً جاء يوم القيامة ملجماً بلجام من نار: ابن ماجة من حديث أبي سعيد بإسناد ضعيف، وتقدم حديث أبي هريرة بنحوه.

الوظيفة السابعة: أن المتعلم القاصر ينبغي أن يلقى إليه الجلي اللائق به، ولا يذكر له أن وراء هذا تدقيقاً وهو يدخره عنه، فإن ذلك يفتر رغبته في الجلّي، ويشوّش عليه قلبه، ويوهم إليه البخل به عنه، إذ يظن كل أحد أنه أهل لكل علم دقيق، فما من أحد إلا وهو راض عن الله سبحانه في كمال عقله، وأشدهم حماقة وأضعفهم عقلاً هو أفرحهم بكمال عقله وبهذا يعلم أن من تقيد من العوام بقيد الشرع، ورسخ في نفسه العقائد المأثورة عن السلف من غير تشبيه ومن غير تأويل، وحسن مع ذلك سريرته، ولم يحتمل عقله أكثر من ذلك، فلا ينبغي أن يشوّش عليه اعتقاده، بل ينبغي أن يخلى وحرفته، فإنه لو ذكر له تأويلات الظاهر انحلّ عنه قيد العوام ولم يتيسر قيده بقيد الخواص، فيرتفع عنه السد الذي بينه وبين المعاصي، وينقلب شيطاناً مريداً يهلك نفسه وغيره، بل لا ينبغي أن يخاض مع العوام في حقائق العلوم الدقيقة، بل يقتصر معهم على تعليم العبادات، وتعليم الأمانة في الصناعات التي هم بصددها، ويملأ قلوبهم من الرغبة والرهبة في الجنة والنار، كما نطق به القرآن، ولا يحرك عليهم شبهة، فإنه ربما تعلقت الشبهة بقلبه ويعسر عليه حلها فيشقى ويهلك. وبالجملة لا ينبغي أن يفتح للعوام باب البحث، فإنه يعطل عليهم صناعاتهم التي بها قوام الخلق، ودوام عيش الخواص.

الوظيفة الثامنة: أن يكون المعلم عاملاً بعلمه، فلا يكذب قوله فعله، لأن العلم يدرك بالبصائر والعمل يدرك بالأبصار، وأرباب الأبصار أكثر، فإذا خالف العمل العلم منع الرشد، وكل من تناول شيئاً وقال للناس لا تتناولوه فإنه سم مهلك، سخر الناس به واتهموه؛ وزاد حرصهم على ما نهوا عنه، فيقولون: لولا أنه أطيب الأشياء وألذها لما كان يستأثر به. ومثل المعلم المرشد من المسترشدين مثل النقش من الطين والظل من العود، فكيف ينتقش الطين بما لا نقش فيه، ومتى استوى الظل والعود أعوج؟! ولذلك قيل في المعنى:

لا تنه عن خُلق وتأتي مثله   عار عليك إذا فعلت عظيم

وقال الله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾. ولذلك كان وزر العالم في معاصيه أكبر من وزر الجاهل، إذ يزل بزلّته عالم كثير ويقتدون

به، و«مَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا»، ولذلك قال علي رضي الله عنه: قَصَم ظهري رجلان: عالمٌ متهتك، وجاهل متنسّك، فالجاهل يغر الناس بتنسكه، والعالم يغرهم بتهتكه. والله أعلم.

القسم الثاني

كتـــاب

ميزان العمل(*)

(*) قارن: نشرة سلمان دنيا (مرجع مذكور) ونشرة ماجد فخري (مرجع مذكور).

بيان شرف العقل والعلم والتعليم.

قد عرفت فيما سبق أن العلم والعمل هما وسيلتا السعادة، وأن العمل لا يتصور إلا بعلم بكيفية العمل، وأن العلم الذي ليس بعملي، كالعلم بالله وصفاته وملائكته، مقصود، فقد استفدت منه أن العلم أصول الأصول، فلا بد أن نرشدك الآن إلى طريق التعلم والتعليم، ولننبّه أولاً على شرف هذه الأمور، وندل عليه، فنقول: أما التعليم، فهو أشرف الأعمال، والصناعات ثلاثة أقسام: إما أصول لا قـوام للعالم دونها وهي أربعة: الزراعة والحياكة والبناية والسياسة؛ وإما مهيئة لكل واحدة منها وخادمة لها. كالحدادة للزراعة. والحلاجة والغزل للحياكة، وإما متممة لكل واحدة من ذلك ومزينة لها، كالطحانة والخبز للزراعة، والقصارة والخياطة للحياكة. وذلك بالإضافة إلى قوام العالم الأرضي، مثل أجزاء الشخص بالإضافة إليه. فإنها ثلاثة أضرب: وإما أصول كالقلب والكبد والدماغ، وإما مرشحة لتلك الأصول وخادمة لها. كالمعدة والعروق والشرايين، وإما مكملة ومزينة لها، كالهدب والحاجب.

وأشرف أصول الصناعات السياسات. إذ لا قوام للعالم إلا بها وهي أربعة أضرب: الأول سياسة الأنبياء وحكمهم على الخاصة والعامة. في ظاهرهم وباطنهم، والثاني الخلفاء والولاة والسلاطين، وحكمهم على الخاصة والعامة جميعاً، لكن على ظاهرهم لا على باطنهم. والثالث العلماء والحكماء، وحكمهم على باطن الخواص فقط؛ والرابع الوعاظ والفقهاء وحكمهم على باطن العامة فقط، فأشرف هذه السياسات الأربع بعد النبوة إفادة العلم وتهذيب نفوس الناس. وبرهان ذلك أن شرف الصناعة، إنما يكون باعتبار النسبة إلى القوة المبرزة المظهرة لها، كفضل معرفة الحكمة على معرفة اللغات. فإن الأولى متعلقة بالقوة العقلية التي هي أشرف القوى، والأخرى متعلقة بالقوة الحسية، وهي السمع. وإما بحسب عموم النفع كفضل الزراعة على الصياغة، وإما بحسب شرف الموضوع

المعمول فيه، كفضل الصياغة على الدباغة. وليس يخفى أن العلوم العقلية تدرك بالعقل، الذي هو أشرف القوى، وبه يتوصل إلى جنة المأوى، وهو أبلغ نفع وأعمه. وموضوعه الذي يعمل فيه نفوس البشر. وهي أفضل موضوع، بل أشرف موجود في هذا العالم، فإفادة العلم من وجه صناعة، ومن وجه عبادة الله تعالى، ومن وجه خلافة الله هو أجل خلافة. فإن الله تعالى قد فتح على قلب العالم العلم، الذي هو أخصّ صفاته، فهو كالخازن لأنفس خزائنه. ثم هو مأذون له في الإنفاق على كل محتاج إليه، فأي رتبة أجلّ من كون العبد واسطة بين ربه وخلقه، في تقربهم إلى الله زلفى، وسياقتهم إلى جنة المأوى؟.

وأما شرف العلم والعقل فمدرك بضرورة العقل والشرع والحس، أما الشرع: فقد قال عليه السلام: «أول ما خلق الله العقل، فقال له أقبل فأقبل، ثم قال له أدبر فأدبر. ثم قال: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً أكرم عليّ منك، بك آخذ وبك أعطي وبك أثيب وبك أعاقب». وهذا العقل الذي يدرك به الإنسان الأشياء يجري من العقل الأول الذي خلق الله عز وجل مجرى النور من الشمس. فإن هذه العقول عقول بالإضافة إلى الأشخاص وذلك مطلق من غير إضافة. وأما دلالة العقل على شرف العقل، فهو ما لا ينال سعادة الدنيا والآخرة إلا به، فكيف لا يكون أشرف الأشياء؟ وبالعقل صار الإنسان خليقة الله وبه تقرب إليه وبه تم دينه. ولذلك قال عليه السلام: «لا دين لمن لا عقل له» وقال: «لا يعجبكم إسلام امرىء حتى تعرفوا عقله» ولهذا قيل: «من لم يكن عقله أغلب خصال الخير عليه، كان حتفه في أغلب خصال الشرّ عليه». وناهيك به شرفاً أن قد شبّه الله سبحانه العقل بالنور فقال: ﴿**الله نور السموات والأرض**﴾[1] أي منورهما. وأكثر ما يطلق النور والظلمات في القرآن على العلم والجهل، مثل قوله تعالى: ﴿**الله وليّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور**﴾[2]. وإنما كل ذلك بالعقل، ولذلك قال عليه السلام لعلي رضي الله عنه: «إذا تقرب الناس لخالقهم بأبواب البر، فتقرب أنت بعقلك، تتنعم بالدرجات والزلفى عند الناس في الدنيا، وعند الله في الآخرة». وسنذكر وجه التقرب بالعقل.

(١) قرآن ٢٤، ٣٥.
(٢) قرآن ٢، ٢٥٧.

وأما الحس بمجرده، فكاف في إدراك شرف العقل والعلم، حتى أن أكبر الحيوانات شخصاً، وأقواها بدناً، إذا رأى الإنسان احتشمه بعض الاحتشام، واستشعر الخوف منه، لإحساسه بأنه مستول عليه بجبلته. وأقرب الناس إلى البهائم أجلاف العرب والترك، ورعاة البهائم منهم. ولو وقع فيما بينهم راغ أوفر منهم عقلاً، وأكثر منهم دراية بصناعتهم، لوقروه طبعاً. ولذلك ترى الأتراك بالطبع يبالغون في توقير شيوخهم، لأن التجربة ميّزتهم عنهم بمزيد علم، ولذلك قال عليه السلام مطلقاً: «الشيخ في قومه كالنبيّ في أمته» وإنما وقار النبي في أمته بعلمه وعقله، لا بقوة شخصه وجمال بدنه، وكثرة ماله وقوة شوكته. ولذلك قصد كثير من المعاندين قتل رسول الله عليه السلام، فلما وقع طرفهم عليه هابوه وتراءى لهم نور الله في وجهه، معرباً عن تميّزه ملقياً للرعب في صدور معانديه. وقد سمى الله عز وجل العلم روحاً، فقال: ﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا﴾[1]. وسماه حياة فقال تعالى: ﴿أو من كان ميتاً فأحييناه﴾[2]، وقال عليه السلام: «ما خلق الله خلقاً أكرم من العقل». ولو جلبت الأخبار الواردة في الحث على طلب العلم، لطال المقال، وأيّ تشريف يزيد على قوله: «إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم إرضاء بما يصنع».

* * *

بيان وجوب التعلم لإظهار شرف العقل

اعلم أن شرف العقل، من حيث كونه مظنة العلم والحكمة وآلة له. ولكن نفس الإنسان معدن للعلم والحكمة، ومنبع لها، وهي مركوزة فيها بالقوة في أول الفطرة، لا بالفعل، كالنار في الحجر والماء في الأرض والنخل في النواة ولا بد من سعي في إبرازه بالفعل، كما لا بد من سعي في حفر الآبار لخروج الماء، ولكن كما أن من الماء ما يجري من غير فعل بشري، ومنه ما هو كامن محتاج في استنباطه إلى حفر وتعب، ومنه ما يحتاج فيه إلى تعب قليل، كذلك العلم في

---

(١) قرآن ٤٢، ٥٢.

(٢) قرآن ٦، ١٢٢.

النفوس البشرية، منه ما يخرج إلى الفعل من القوة بغير تعلم بشريّ، كحال الأنبياء عليهم السلام، فإن علومهم تظهر من جهة الملأ الأعلى، من غير واسطة بشريّ، ومنه ما يطول الجهد فيه كأحوال العامة من الناس، لا سيما ذوو البلادة، الذين كبر سنهم في الغفلة والجهل، ولم يتعلموا زمن الصبا، ومنه ما يكفي فيه السعي القليل، كحال الأذكياء من الصبيان.

ولكون العلوم مركوزة في النفوس. قال الله تعالى: **﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى﴾**[1]. فالمراد بإقرار نفوسهم المعنى الذي أشرنا إليه، من كونها موجودة بالقوة دون إقرار الألسنة. فإنها لم تحصل من كلّهم عند الظهور، بل من بعضهم، وكذلك قوله تعالى: **﴿ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله﴾**[2]. معناه لئن اعتبرت أحوالهم شهدت نفوسهم وبواطنهم بذلك. **﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها﴾**[3]. فكل آدمي فطر على الإيمان وما جاء الأنبياء إلا بالتوحيد، ولذلك قال: **«قولوا لا إله إلا الله»**[4]. فإنه لن يصادف إلا من هو مصدق بالإله، وإنما غلظ في عينه أو صفته. ثم لما كان الإيمان بالله مركوزاً في النفوس بالفطرة، انقسم الناس إلى من أعرض فنسي، وهم الكفار، وإلى من أجال خاطره، فتذكر وكان كمن حمل شهادة فنسيها بغفلة ثم تذكرها. ولذلك قال تعالى: **﴿لعلهم يتذكرون﴾**[5]. **﴿وليذكر أولو الألباب﴾**[6]. **﴿واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به﴾**[7]، **﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مُدَّكر﴾**[8]. والتذكر هو أكثر ما يعبر به، وتسمية هذا

---

(١) قرآن ٧، ١٧٢.
(٢) قرآن ٤٣، ٨٧.
(٣) قرآن ٣٠، ٣١.
(٤) حديث نبوي.
(٥) قرآن ٢، ٢٢١.
(٦) قرآن ١٤، ٥٢.
(٧) قرآن ٥، ٧.
(٨) قرآن ٥٤، ١٧ و٢٢.

النمط تذكراً ليس ببعيد، وكأن التذكير ضربان: أحدهما أن يتذكر صورة كانت مكتسبة في قلبه بالعقل، ثم غابت عنه، والآخر أن يكون تذكره لصورة مضمّنة بالفطرة في الإنسان، ولذلك قال المحققون: التعلم ليس يجلب للإنسان شيئاً من خارج، بل يكشف الغطاء عما حصل في النفوس بالفطرة، كحال مظهر الماء من الأرض، ومظهر الصور في المرآة بالجلاء، وهذه حقائق ظاهرة للناظرين بعين العقل، ثقيلة على من جمد به قصوره على أول رتبة صبيان المكتب، في اعتلاق طبعهم بسوابق الخيالات، من ظواهر الألفاظ، من غير تحقيق لها.

بيان أنواع العقل

اعلم أن العقل ينقسم إلى غريزي وإلى مكتسب فالغريزي هو القوة المستعدة لقبول العلم، ووجوده في الطفل، كوجود النخل في النواة. والمكتسب المستفاد هو الذي يحصل من العلوم، إما من حيث لا يدري، كفيضان العلوم الضرورية عليه، بعد التمييز من غير تعلم، وإما من حيث يعلم مدركه، وهو التعلم، ولانقسام العقل إلى قسمين؛ قال علي رضي الله تعالى عنه:

رأيت العقل عقلَيْنْ فمطبوعٌ ومسموعٌ
ولا ينفع مسموع إذاً لم يك مطبوع
كما لا تنفع الشمس وضوء العين ممنوع

والأول هو المراد بقوله: «ما خلق الله خلقاً أكرم عليه من العقل»، والثاني هو المراد بقوله عليه السلام لعلّي: «إذ تقرب الناس بأبواب البر، فتقرب أنت بعقلك». والأول يجري مجرى البصر للجسم، والثاني يجري مجرى نور الشمس، ولا منفعة في النور عند عمى البصر، ولا يجدي البصر عند عدم النور، فكذلك بصر الباطن، وهو العقل، وهو أشرف من البصر الظاهر إذ النفس كالفارس، والبدن كالفرس، وعمى الفارس أضرّ من عمى الفرس، ولمشابهة بصره الباطن الظاهر قال تعالى: ﴿**ما كذب الفؤاد ما رأى**﴾[1]، وقال: ﴿**وكذلك نُري**

(١) قرآن ٥٣، ١١.

ابراهيم ملكوت السموات والأرض﴾[1]. وسمى ضده عمى، قال تعالى: ﴿فإنها لا تعمي الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور﴾[2]. وقال: ﴿ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً﴾[3]. وبالجملة من لم يكن بصيرة عقله نافذة. فلا تعلق به من الدين إلا قشوره، بل خيالاته وأمثلته، دون لبابه وحقيقته، فلا تدرك العلوم الشرعية، إلا بالعلوم العقلية، فإن العقلية كالأدوية للصحة، والشرعية كالغذاء. والنقل جاء من العقل، وليس لك أن تعكس والنفس المريضة المحرومة من الدواء تتضرر بالأغذية ولا تنتفع. ولذلك قال تعالى: ﴿في قلوبهم مرض﴾[4]. لما كانوا لا ينتفعون بالقرآن. والمقلد الأعمى، إذا تأمل أمور مواد الشرع يتراءى له أموراً متناقضة، وهي كذلك بالإضافة إلى ما فهمه. ثم قد تجبن نفسه عن التأمل فيه لضعف عقله وخور طبعه، فيتكلف الغفلة عنه خيفة أن ينكسر تقليده، وقد يتأمله فيدرك تناقضه، فيتحير ويبطل يقينه. ولو نظر بعين البصيرة، لبطل التناقض ورأى كل شيء في موضعه. ومثاله مثال الأعمى، الذي دخل داراً فعثر بالكوز والطشت وأثاث الدار، فقال: لمَ وضعتم هذا على الطريق، لم لا تردونها إلى محلها؟ فقيل له: إن كلا في موضعه، ولكن الخلل في البصر. فهذا بيان نسبة العلم المستفاد من العقل.

واعلم أن المكتسب من العلوم بواسطة العقل ينقسم إلى المعارف الدنيوية والآخروية، وطريقاهما متنافيان، فمن صرف عنايته إلى أحدهما، قصرت بصيرته في الآخر على الأكثر. ولذلك صرب عليّ رضي الله عنه ثلاثة أمثلة، فقال: «إن مثل الدنيا. والآخرة ككفتي ميزان وكالمشرق والمغرب، وكالضرتين إذا أرضيت إحداهما أسخطت الأخرى». ولذلك نرى الأكياس في أمور الدنيا جهالاً في أمور الآخرة، وبالعكس. ولذلك قال عليه السلام: «الكيّس من دان نفسه وعمل لما بعد

---

(١) قرآن ٦، ٧٥.
(٢) قرآن ٢٢، ٤٦.
(٣) قرآن ١٧، ٧٢.
(٤) قرآن ٢، ٩.

الموت». وقال لمن نسب بعض الصالحين إلى البله: «أكثر أهل الجنة البله»، يعني في أمور الدنيا. ولذلك قال الحسن البصري: «أدركنا أقواماً لو رأيتموهم لقلتم مجانين، ولو رأوكم لقالوا شياطين» ومهما سمعت أمراً غريباً من أمور الدين، فلا يبعدنّك عن قبوله أنه لو كان حقيقياً لأدركه الأكياس من أرباب الدنيا ودقائق الصناعات الهندسية وغيرها، إذ من المحال أن يظفر سالك طريق المشرق بما يوجد في المغرب، فكذلك أمر الدنيا والآخرة، ولذلك قال تعالى: ﴿إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها﴾[1]. الآيتين. وقوله تعالى: ﴿يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون﴾[2] ولا يكاد يجمع بينهما إلا من رشّحه الله لتدبير الخلق في معاشهم ومعادهم وهم الأنبياء المؤيدون بروح القدس، المستمدون من قوة تتسع لجميع الأمور، ولا تضيع. فأما النفوس الضعيفة، إذا شغلت بأمر انصرفت عن غيره، ولن تقدر على الاستكمال منهما جميعاً.

* * *

بيان وظائف المتعلم والمعلم في العلوم المُسْعِدَة

أما المتعلم، فوظائفه كثيرة، وتجمع تفاصيلها عشر جمل:

الوظيفة الأولى: أن يقدم طهارة النفس على رديء الأخلاق، فكما لا تصح عبادة الجوارح في الصلاة، إلا بطهارة الجوارح، والعلم عبادة النفس، وفي لسان الشرع عبادة القلب، فلا يصح إلا بطهارة القلب عن خبائث الأخلاق وأنجاس الصفات. قال عليه السلام: «بني الدين على النظافة». وهو كذلك باطناً كما أنه كذلك ظاهراً، وقال تعالى: ﴿إنما المشركون نجس﴾[3]، فنبه به على أن الطهارة والنجاسة غير مقصورتين على الظاهر. ولذلك قال عليه السلام: «لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب». والقلب منزل الملائكة، ومحل نظرهم

(١) قرآن ١٠، ٧.
(٢) قرآن ٣٠، ٧.
(٣) قرآن ٩، ٢٨.

ومصب أثرهم، والصفات الردية كلاب مانعة، ومهما اعتقد في بيت من طين وحيوان، سمّي كلباً، وهو كسائر الحيوانات شكلاً. فبأن يعتقد في بيت الدين صفات لا تساوي سائر الصفات المحمودة أولى. وبيت الدين هو القلب، وعليه تغلب الكلاب مرة، والملائكة أخرى، فإن قلت: فكم طالب رديء الأخلاق، حصّل العلوم؟ فما أبعدك عن فهم العلم الحقيقي الديني، الجالب للسعادة. فما يحصّله صاحب الأخلاق الردية حديث ينظمه بلسانه مرة، وبقلبه أخرى، وكلام يردده. ولو ظهر نور العلم على قلبه، لحسنت أخلاقه. فإن أقل درجات العلم أن يعرف أن المعاصي سموم مهلكة، مبطلة للحياة الأبدية، فإن منشأها الصفات الردية. وهل رأيت من عرف السم فتناوله؟ ولهذا قال عليه السلام: «من ازداد علماً ولم يزدد هدى، لم يزدد من الله إلا بعداً». ولهذا قال بعض المحققين: معنى قولهم تعلمنا العلم لغير الله، فأبى العلم أن يكون إلا لله، أي العلم امتنع وأبى أن يحصل، وما حصل كان حديثاً ولم يكن علماً تحقيقياً. فإن قلت: إني أرى جماعة من فضلاء الفقهاء قد تبحروا فيها مع سوء أخلاقهم، فيقال لك: إذا عرفت مراتب العلوم ونسبتها إلى سلوك سبيل السعادة، عرفت أن ما يعرفه أولئك الفقهاء قليل الغناء في المقصود، وإن كان لا ينفك عن تعلق به في حق من يقصد به التقرب.

الوظيفة الثانية: أن يقلل علائقه من الأشغال الدنيوية، ويبعد عن الأهل والولد والوطن، فإن العلائق صارفة وشاغلة للقلوب، ﴿**وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه**﴾[1]. وكلما توزعت الفكرة قصرت عن درك الحقائق، ولهذا قيل: العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك، فإذا أعطيته كلك، فإنك من إعطائه إياك بعضه على خطر، والفكرة مهما توزعت على أمور، كانت كجدول ماؤه منكشف منبسط، فينشفه الهوى والأرض، ولا يبقى منه ما يجتمع ويبلغ المزرعة وينتفع به.

الوظيفة الثالثة: أن لا يتكبر على العلم وأهله ولا يتآمر على المعلم، بل

---

(١) قرآن ٣٣، ٤.

يلقي إليه بزمام أمره، في تفصيل طريق التعلم، ويذعن لنصحه إذعان المريض للطبيب. أما التكبر على العلم، فأن يستنكف من استفادته ممن يعرفه، وهو عين الحمق، بل الحكمة ضالة كل حكيم، فحيث يجدها، ينبغي أن يغتنمها، ويستفيدها، ويتقلد بها المنة.

فالعلم حرب للفتى المتعالي كالسيل حرب للمكان العالي

فلا بد من التواضع، ولذلك قال تعالى: ﴿**إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد**﴾[1]. أي يكون مشتغلاً بالعلم، وهو المراد بمن له قلب، أو كان فيه من العقل ما يحمله على القاء السمع وحسن الإصغاء والضراعة. **فما لم يكن المتعلم لمعلمه كأرض جدبة، نالت مطراً غزيراً فيلقاه بالقبول** من غير دفع، لم ينتفع به. ومهما أشار المعلم في طريق التعلم بما يراه المتعلم عين الخطأ ويعتقده قطعاً، فليتهم نفسه وليصبر، وليتبع معلمه، فإن خطأ معلمه خير من صواب نفسه، كسالك الطريق يكون قد استفاد بالتجربة ما يتعجّب المبتدىء منه. وعلى هذا نبّه الله تعالى في قصة الخضر وموسى فإنه قال: ﴿**هل أتبعك على أن تُعَلِّمَن مما عُلمت رشداً**﴾[2]، إلى قوله: ﴿**فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً**﴾[3]. ثم لم يصبر وراجعه وراده إلى أن قال: ﴿**هذا فراق بيني وبينك**﴾[4]. ثم نبّه على أسرار ما استبعده، كما ورد به القرآن، فعرف الله موسى أن المعلم يعلم ما لا ينتهي إليه عقل المتعلم ووهمه.

وبالجملة فكل متعلم لم يتبع مراسم معلمه في طريق التعلم، فاحكم عليه بالإخفاق وقلة النجح. فإن قلت فقد قال الله تعالى: ﴿**فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون**﴾[5]. فاعلم أن هذا ليس متناقضاً لمنع موسى من السؤال، ولا لما ذكرناه، لأن النهي هو منع عن طلب، ما لم يبلغ إلى حدّ يدركه. فإذا منعه

---

(١) قرآن ٥٠، ٣٦.
(٢) قرآن ١٨، ٦٥.
(٣) قرآن ١٨، ٧٠.
(٤) قرآن ١٨، ٧٧.
(٥) قرآن ١٦، ٤٣.

المعلّم من السؤال عنه، فليمتنع. والأمر هو حثّ على معرفة تفصيل ما تقتضيه رتبته من العلم.

الوظيفة الرابعة: إن الخائض في العلوم النظرية لا ينبغي أن يصغي أولاً إلى الاختلاف الواقع بين الفرق والشبه المشككة المحيرة، ما لم يكن بعد تمهيد قوانينه. فإن ذلك يفتر عزمه في أصل العلم، ويؤيسه عن حقيقة الدرك، لأسباب ذكرناها في كتاب «معيار العلم» فليتقن الأصول والرأي الذي اختاره استاذه وطريقه. ثم ليخض بعد ذلك في تعريف الشبه وتعقبها. ولهذا نهى الله تعالى من لم يقو في الإسلام عن مخالطة الكفار، حتى قيل كان أحد أسباب تحريم الخنزير ذلك، إذ كان أكثر أطعمة الكفار، فحرّم ذلك ليكون مزجرة للمسلمين عن مؤاكلتهم، التي كانت سبباً للمخالطة. ولهذا يجب صيانة العوام عن مجالس أهل الأهواء، كما يصان الحرم عن مخالطة المفسدين. فأما من قويت في الدين شكيمته، واستقر في نفسه برهانه وحجته، فلا بأس عليه بالمخالطة، بل الأحب المخالطة والإصغاء إلى الشبه والاشتغال بحلّها، ويكون به مجاهداً، فإن القادر يستحبّ له التهجم على صفّ الكفار، والعاجز يكره له ذلك. ومن هذا الأصل غلط من ظنّ أن وظائف الضعفاء كوظائف الأقوياء في الدين، حتى قال بعض مشايخ الصوفية: من رآني في الابتداء قال صديقاً، ومن رآني في الانتهاء قال زنديقاً، **يعني أن الابتداء يقتضي المجاهدة الظاهرة للأعين بكثرة العبادات، وفي** الانتهاء يرجع العمل إلى الباطن، فيبقى القلب على الدوام في عين الشهود والحضور، وتسكن ظواهر الأعضاء، فيظن أن ذلك **تهاون** بالعبادات، وهيهات! فذلك استغراق لمخّ العبادات ولبابها وغايتها، ولكن أعين الخفافيش تكلّ عن درك نور الشمس.

* * *

الوظيفة الخامسة للمتعلم: أن لا يدع فناً من فنون العلم، ونوعاً من أنواعه إلا وينظر فيه نظراً يطلع به على غايته ومقصده وطريقه. ثم ان ساعده العمر وأتته الأسباب طلب التبحّر فيه، فإن العلوم كلها متعاونة مترابطة بعضها ببعض، ويستفيد منه في الحال حتى لا يكون معادياً لذلك العلم بسبب جهله به. فإن

الناس أعداء ما جهلوا. قال تعالى: **﴿وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم﴾**[1]، قال الشاعر:

ومن يك ذا فم مر مريض   يجد مراً به الماء الزلالا

فلا ينبغي أن يستهين بشيء من أنواع العلوم، بل ينبغي أن يحصّل كل علم ويعطيه حقه ومرتبته، فإن العلوم على درجاتها إما سالكة بالعبد إلى الله، أو معينة على أسباب السلوك، ولها منازل مرتّبة في القرب والبعد من المقصد، والقوام بها حفظته كحفظة الرباطات والثغور على طريق الجهاد والحج، ولكل واحد منها رتبة.

الوظيفة السادسة: أن لا يخوض في فنون العلم دفعة، بل يراعي الترتيب، فيبدأ بالأهم فالأهم، ولا يخوض في فنّ حتى يستوفي الفن الذي قبله، فإن العلوم مرتّبة ترتيباً ضرورياً وبعضها طريق إلى بعض، والموفّق مراعي ذلك الترتيب والتدريج. قال تعالى: **﴿الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته﴾**[2]. أي لا يجاوزون فناً حتى يحكموه علماً وعملاً. وليكن قصده من كل علم يتحرّاه الترقي إلى ما فوقه. وينبغي أن لا تحكم على علم بالفساد لوقوع الاختلاف بين أصحابه فيه، ولا بخطأ واحد أو آحاد فيه. ولا بمخالفتهم موجب العلم بالعمل، فيرى جماعة تركوا النظر في العقليات والفقهيات، متعللين فيها بأنه لو كان لها أصل لأدركها أربابها، وقد مضى كشف هذه الشبهة في كتابنا «معيار العلم»، ويرى قوم يعتقدون صحة النجوم لصواب اتفق لواحد، وطائفة يعتقدون بطلانه لخطأ اتفق لواحد. والكل خطأ. بل ينبغي أن يعرف الشيء في نفسه. فلا كل علم يستقل به كل شخص. ولذلك قال علي رضي الله تعالى عنه: «لا تعرف الحق بالرجال، أعرف الحق تعرف أهله».

الوظيفة السابعة: أن العمر إذا لم يتسع لجميع العلوم، فينبغي أن يأخذ من كل شيء أحسنه، فيكتفي بشمة من كل علم، ويصرف الميسور من العمر

---

(١) قرآن ٤٦، ١١.
(٢) قرآن ٢، ١٢١.

إلى العلم الـذي هو سبب النجـاة والسعادة، وهـو غايـة جميع العلوم، وهي معرفة الله على الحقيقة والصدق. فالعلوم كلها خدم هذا العلم، وهذا العلم حرّ لا يخدم غيره، ولهذا قال تعالى: ﴿قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون﴾[1]. وليس المراد تحريك عضلات اللسان بهذه الحروف، ولذا قال: «من قال لا إله إلا الله مخلصاً دخل الجنة»[2]، فإن حركة الأطراف قليل الغناء، إذا لم يكن مؤثراً في القلب. أو لم يكن صادراً عن أثر راسخ في القلب، أو له اعتقاد يسمى إيماناً. ثم ينتهي ترتيبه إلى مثل إيمان أبي بكر. الذي لو وزن بإيمان العالمين لرجح. هذا مع التصريح بأنه ما فضلكم بكثرة صيام وصلاة ولكن بسرّ وقر في قلبه. فإن كان منتهى العلم بالله اعتقاد ما أعتقده المقلّد المتكلّم بتحرير الدليل، فما عندي أن هذا يعجز عنه عمر وعثمان وكافة الصحابة، حتى كان قد فضلهم أبو بكر به.

وبهذا يستبين للمنصف أن طريق الصوفية، وإن كان يرى مائلاً عن أكثر الظواهر، فمشهود له من الشرع بشواهد قوية. فلا ينبغي أن يعاديها الجـاهل لجهله وقصوره عنها. وعلى الجملة فمعرفة الله غاية كل معرفة، وثمرة كل علم، على المذاهب كلها. وقد روي أنه رئي صورتا حكيمين من الحكماء المتعبدين في مسجد، وفي يد أحدهما رقعة فيها: «إن أحسنت كل شيء، فلا تظنن أنك أحسنت شيئاً، حتى تعرف الله تعـالى، وتعلم أنـه مسبب الأسبـاب ومـوجـد الأشياء». وفي يد الآخر: «كنت قبل أن عرفت الله أشرب وأظمأ حتى إذا عرفته رويت بلا شرب».

الوظيفة الثامنة: أن تعرف معنى كون بعض العلوم أشرف من بعض. فإن شرف العلم يدرك بشيئين: أحدهما ثمرته، والآخر بوثاقة دلالته. وذلك كعلم الدين وعلم الطب، فإن ثمرة علم الدين الحياة الأبدية التي لا آخر لها، فكان أشرف من علم الطب، الذي ثمرته حياة البدن إلى غاية الموت. وأما الحساب إذا أضفته إلى الطب، فالحساب أشرف باعتبار وثاقة دلالته، فـإن العلوم بها

---

(١) قرآن ٦، ٩١.

(٢) حديث نبوي.

ضرورية غير متوقفة على التجربة بخلاف الطب. والطب أشرف باعتبار ثمرته، فإن صحة البدن أشرف من معرفة كمية المقادير. والنظر إلى شرف الثمرة أولى من النظر إلى وثاقة الدليل. وأشرف العلوم ثمرة العلم بالله وملائكته وكتبه ورسله وما يعين عليه، فإن ثمرته السعادة الأبدية.

الوظيفة التاسعة: أن تعرف أنواع العلوم بقول جملي، وهي ثلاثة: علم يتعلق باللفظ، من حيث يدل على المعنى، وعلم يتعلق بالمعنى المجرّد. أما المتعلق باللفظ، فهو ما عرف به المعاني بالحس وأريد أن تعرف الألفاظ الموضوعة بالاصطلاح للدلالة عليها وهي قسمان: أحدهما علم اللغات، والآخر لواحقها، كعلم الاشتقاق والاعراب والنحو والتصريف وعلم العروض والقوافي، وقد ينتهي إلى العلم بمخارج الحروف وما يتعلق به. وأما المتعلق بالمعنى من حيث يدل اللفظ عليه، فعلم الجدل والمناظرة والبرهان والخطابة. فإن الناظر في هذه العلوم عالم باللغة وموجب الألفاظ، وعالم بالمعاني، وعالم بترتيب إيرادها، وكيفية نظمها على وجه يؤدي إلى تحصيل العلم اليقيني، فيكون برهاناً، أو إلى افحام الخصم فيكون جدلاً، أو إلى إقناع النفس الإقناع الذي يبتغي الاستدراج والمجادلة[1]، فيسمى خطابة ووعظاً، ويسمى أيضاً دليلاً، فإنها تدل على المخاطبين على المقاصد، وتسوقهم إلى اعتقاداتهم، التي فيها نجاتهم. وعليه أكثر دلالات الأخبار والقرائن المستدّل بها على الكفار. وهو أكثر أنواع الأدلة نفعاً، وأعمقها في حق الجماهير جدوى.

فأما البرهان الحقيقي اليقيني، فلا يستقل بفهمه ودركه إلا أكابر العلماء المحققين الذين لا تسمح الأعصار بآحادهم. وأما الجدل فأقل الأقسام فائدة في الإرشاد، إذ المحقق لا يقنع بما يبني دلالته على تسليم الخصم، وليس مسلماً في نفسه. والعامي لا يفهمه بل يكلّ فهمه عن دركه، والمشاغب المناظر في أكثر الأمر، إذا أفحم استمر على اعتقاده ,أحال بالقصور على نفسه، وقال: لو كان صاحب مذهبي حياً وحاضراً، لقدر على الانفصال عنه. وأكثر ما ذكره

(١) في الأصل: والمجاملة.

المتكلمون في مناظراتهم مع الفرق جدليات، وهكذا ما يجري في مناظرات الفقه. ولذلك لا تنكشف مناظرة عن تنبه متنبّه برجوعه عن مذهبه إلى غيره.

وأما القسم الثالث المتعلق بالمعنى، فضربان: علمي مجرد وعملي. أما العلمي فمعرفة الله تعالى ومعرفة الملائكة والأنبياء، أي معرفة النبوة ومراتبها ومراتب الملائكة وملكوت السموات والأرض وآيات الآفاق والأنفس وما بثّ فيها من دابة، ومعرفة الكواكب السماوية والآثار العلوية، ومعرفة أقسام الموجودات كلها، وكيفية ترتُّب البعض منها على البعض، وكيفية ارتباط البعض منها بالبعض، وكيفية ارتباطها بالأول الحق المقدس عن الارتباط بغيره، ومعرفة القيامة والحشر والنشر والجنة والنار والصراط الميزان، ومعرفة الجن والشياطين، وتحقق أن ما سبق إلى الأفهام العاميّة من ظاهر هذه الألفاظ، حتى تخيلوا منها في الله تعالى أموراً، من كونه على العرش وفوق العالم بالمكان وقبله بالزمان، وما اعتقدوه في الملائكة والشياطين، وفي أحوال الآخرة من الجنة والنار، هل هي كما اعتقدوه من غير تفاوت، أو هي أمثلة وخيالات، ولها معان سوى المفهوم من ظاهرها؟ فتحقق هذه الأمور بالصدق والحقيقة الصافية عن الشك، ورجم الظنون المنفكة عن المرية والتخمين، هي العلوم النظرية المجردة عن العمل، وأما العملي فهي الأحكام الشرعية، والعلوم الفقهية، والسنن النبوية. وذلك معرفة سياسة النفس مع الأخلاق كما مضى، ومعرفة تدبير أهل البيت والولد والمطعم والملبس، وكيفية المعيشة والمعاملة. وهذا علم الفقه، ويشتمل على ربع المعاملات والنكاح والعقوبات[1]. ثم إذا عرف أنواعها، فينبغي أن يعرف مراتبها، كيلا يضيع العمر إلا في المقصود. أو فيما يقرب منه. وأما المقتنع بالقسم الأول المتعلق باللفظ، فمختصر على القشر المحض. والقانع منه بالنحو والإعراب والعروض ومخارج الحروف ، فقانع أيضاً من القشرة بأوجهها. وأما الخائض في تعرف الطريق الذي به يتميز الدليل الحقيقي عن الإقناع، فمشتغل بأمر مهم. فإن اقتصر عليه فهو مقتصر على الآلة والوسيلة،

---

(١) إشارة إلى ربع من أرباع احياء علوم الدين، وهو الربع الثاني.

كمن يقصد الحج فيشتري الجمل ويعدّ الزاد والراحلة، ويقعد في بيته. فذلك مهم وضروري لكونه آلة ضرورية، ولكن إذا لم يستعمل في المقصد، لا فائدة له. فلا خير في مجرد السلاح، إذا لم يستعمل في القتال.

وأما الخائض في العلوم العملية المقتصر عليها، أعني الفقهيات وتفصيلها، فحاله أقرب من حال المقتصر على اللغات، فهو بالإضافة إليه عظيم القدر، كما أن العلم باللغات أيضاً بالإضافة إلى العلم بالرقص والزّمر عظيم، ولكن إن أضيف إلى جانب المقصود، فهو في غاية البعد ولا يتشكل ذلك إلا بمثال. فإذا علّق السيد عتق عبده على أن يحج، ووعده بعد ذلك بما ينال به الرئاسة، فله ثلاث مقامات في الوصول إلى سعادة العتق وما بعده. الأول تهيئة الأسباب بشراء الناقة وخرز الراوية وإعداد الزاد، والآخر السلوك لمفارقة الوطن والتوجه إلى المقصد منزلاً بعد منزل، الثالث الاشتغال بالحج ركناً فركناً، ثم الغتق معه، مع التعرض لاستحقاق المال الموصل إلى السعادة، وله في كل مقام منازل من أول اعداد الأسباب إلى آخره، ومن أول سلوك الطريق إلى آخره. وليس قرب من ابتدأ بأركان الحج من السعادة كقرب من ابتدأ بالاستعداد، ولا كقرب من ابتدأ بالسلوك. فوزان الحج مما نحن فيه كمال النفس بطهارة الأخلاق، وقطع الرذائل كلها، وكمالها مع ذلك بانكشاف الحقائق لها. ومثال المال الموصل إلى الرئاسة ها هنا الموت الذي يكشف الحجاب الحائل بينه وبين رتبة مشاهدة نفسه، وكمالها وجمالها ليرى نفسه من الكمال في أعلى علّيين، فيفرح به ويسر سروراً مؤبداً. ومثال سلوك منازل الطريق منزلاً بعد منزل سلوك مهذّب الأخلاق في محو الأخلاق الرديئة عن نفسه خلقاً بعد خلق، وطالب العلوم النظرية التي ذكرناها دون سائر العلوم، علماً بعد علم. ومثال الاستعداد بخرز الراوية وشراء الزاد والناقة سائر العلوم، الخادمة للعلوم النظرية من الفقهيات واللغويات. فالمتعلّم للفقه كالخارز للراوية، والمقتصر عليه كالمقتصر على الراوية، والمقتصر على اللغة كالمقتصر على دباغة الجلد، الذي يتخذ منه الراوية مثلاً، فإن الحاج لا يستغني عن الدباغ ومستغرق أوقاته بمعرفة تفريعات الفقه، على ما يشتمل عليه الخلافيات في هذا العصر، مما لم يعهد

في عصر الصحابة، كمستغرق أوقاته في أحكام الراوية، بعد سلوك الخيوط التي يخرزها وتحسن الخرز.

فإن قلت: فهذا إن قلته عن اعتقاد فهو خلاف اجماع الفقهاء، وإن قلته حكاية، فمن المعتقد لهذا المذهب؟ فأقول: لست أقوله إلا حكاية عن هذا المذهب الذي مدار أكثر هذا الكتاب على وضعه، وهو مذهب التصوف. وقد اتفقوا على المعنى الذي يفهمه هذا المثال، وإن لم يكن هذا المثال بعينه من جهتهم. فإن قلت: فهل ما قالوه حق أم لا؟ فأقول ليس هذا الكتاب لبيان الحق والباطل بالبرهان في هذه الأمور، بل هي وصايا تنبّه على الغفلة وترشد إلى مواضع الطلب، كي لا يغفل الإنسان عمّا قالوه. فإن إمكانه ليس ببعيد في أول الأمر، فليبحث المتعلّم المسترشد عنه ليعرف سره وغائلته. فإن قلت: إني وإن كنت لا أعتقد مذهب التصوف، فلا تسمح نفسي أيضاً بعد أن استغرقت عمري في الفقه خلافاً ومذهباً أن أنحط عند الصوفية إلى هذه الرتبة الخسيسة، فأرى بهذه العين، فلم قلت أن مذهبهم يوجب هذا؟ فاعلم أنك تتحقق السبب إن علمت تفاصيل ما سبق من ارتباط السعادة بمحو وإثبات عن النفس. وفيها، وأن المحو لما لا ينبغي أن يكون تزكية لها، والإثبات لما ينبغي أن يكون تكميلاً لها بكشف الحقائق فيها. وذلك لا يحصل إلا بتهذيب الأخلاق، والتفكير في آلاء الله وملكوت السموات والأرض، حتى تنكشف أسرارها. والفقه إنما يحتاج إليه من حيث أنه محتاج إليه البدن. والبدن لا يبقى إلا بعلم الأبدان، وهو الطب. وعلم الأديان، وهو الفقه، إذ الآدمي خلق بحيث لا يمكن أن يعيش وحده كالبهيمة الوحشية، بل يفتقر إلى أن يكون بين جمع متعاونين على أشغال كثيرة، في تهيئة المطاعم والملابس وآلاتهما. ولا بد إذ كان لهم اجتماع من أن يكون بينهم عدل وقانون في المعاملة، عليه يترددون، ولولاه لتنازعوا وتقاتلوا وهلكوا. فالفقه هو بيان ذلك القانون، وتفصيله في ربع النكاح والمعاملات والعقوبات[1]. فالبدن في طريق السائرين إلى الله تعالى يجري مجرى الناقة الراوية في طريق الحج، ومصالح الأبدان كمصالح الناقة، والراوية والعلم

---

(١) من أحياء علوم الدين.

والمتكفل بمصالح البدن كالصناعة المتكفلة بخرز الراوية وتقديرها وتطهيرها، ورتبته من هذا المقصد كرتبتها من ذلك المقصد إن صحّ ما ذكروه في السلوك والاستعداد والمقصد، وإنهم يقولون لولا إرادة الله عمارة الدنيا، لارتفعت الحجب وزالت الغفلة وتوجه الخلق كلهم إلى سبيل الله، وترك كل فريق ما هو بعيد عن المقصود، ولكن كل حزب بما لديهم فرحون، وبه قوام العالم، بل لولاه لبطلت الصناعات. فلو لم يعتقد الخيّاط والحائك والحجام في صنعته ما يوجب ميله إليها، لتركها وأقبل الكل على أشرف الصنائع، ولبطلت كثرة الصنائع. فإن هذه الأسباب ضرورية في تهيئة الأسباب من أرباب الصنائع. فمن رحمة الله غفلتهم بوجه من الوجوه. وعليه حمل بعضهم قوله عليه السلام: «اختلاف أمتي رحمة»، يعني اختلاف هممهم. ولو عرف الكنّاس ما في صناعته لتركها، ولاضطر العلماء والخلفاء والأولياء أن يتولوها بأنفسهم. وكذلك الدباغة والحدادة والزراعة، وجميع الأمور. فلولا أن الله تعالى حبّب علم الفقه والنحو ومخارج الحروف والطب والفقه في قلوب طوائف، لبقيت هذه العلوم معطّلة، ولتشوش النظام الكلي. وليس من شرط المتجرّد لعلم أو صناعة أن يتطلّع على قدر رتبته ونسبته إلى من فوقه، بل إلى من تحته. وإنما المطّلع على جملة مراتب العلوم هم المتكفل بالعلوم كلها، وهو الذي آتاه الله الحكمة، وأراه الأشياء على ما هي عليه. فهذا جواب هؤلاء. وإليك الرأي بعد هذا في الاقتصار على ما أنت فيه، أو سلوك طريق هؤلاء والبحث عن هذا الفن، لتعرف حقيقة الحق فيه.

* * *

الوظيفة العاشرة للمتعلم: أن يكون قصده في كل ما يتعلمه في الحال كمال نفسه وفضيلتها، وفي الآخرة التقرب إلى الله عز وجل. ولا يكون قصده الرئاسة والمال، ومباهاة السفهاء، ومماراة العلماء، فقد قال عليه السلام: «من تعلم العلم ليباهي به السفهاء ويماري به العلماء دخل النار». وقد سبق أن العلوم لها منازل في الوصول بها إلى الله عز وجل، والقوّام بتلك العلوم كحفظة الرباطات في طريق الجهاد. فإذا عرف كل أحد رتبته ووفّاه حقه وقصد به

وجه الله تعالى، لم يضع أجره، فإن الله يرفعه بقدر علمه في الدنيا والآخرة. وقال تعالى: ﴿**يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات**﴾، وقال: ﴿**هم درجات عند الله**﴾. ولا ينبغي أن يفتر رأيك في العلوم بما حكيناه عن طريق الصوفية، فإنهم لا يعتقدون حقارة العلوم، بل يعتقد كل مسلم حرمتها وعظمتها. وما ذكروه، إنما أوردوه بالإضافة إلى مرتبة الأولياء والأنبياء، وذلك جار مجرى استحقارك الصيارفة عند قياسهم بالسلاطين والوزراء. وذلك لا يوجب نقيصتهم، مهما قستهم بالكناسين والدباغين. ولا تطالب من نزل عن الرتبة القصوى لسقاطة القدر بها، فإن الرتبة القصوى للأنبياء، ثم للأولياء، ثم للعلماء، على تفاوت مراتبهم، ثم للصالحين في الأعمال. وبالجملة ﴿**فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره**﴾. ومن قصد التقرب إلى الله بالعلوم، نفعه الله ورفعه لا محالة.

* * *

فهذه هي الوظائف للمتعلم. وأما وظائف المعلم المرشد فهي ثمان، واعلم قبل كل شيء أن للإنسان في العلم أربعة أحوال، كما في اقتناء الأموال، إذ لصاحب المال حال استفادة، فيكون مكتسباً، وحال ادخار لما اكتسبه، فيكون به غنياً عن السؤال، وحال انفاق على نفسه، فيكون منتفعاً، وحال إفادته غيره بالإنفاق، فيكون به سخياً متفضلاً، وهو أشرف أحواله. فمن أصاب علماً فاستفاده وأفاد، كان كالشمس تضيء لنفسها ولغيرها، وهي مضيئة، مستغن عن السؤال، وحال استبصار وهو تفكره في المحصّل، وحال تبصير وتعليم، وهو أشرف أحواله. فكذلك العلم كالمال، ولصاحبه حال استفادة، وحال تحصيل، وهو فيه محصل مستغن عن السؤال، وحال استبصار وهو تفكّره في المحصّل، وحال تبصير وتعليم، وهو أشرف أحواله. فمن أصاب علماً فاستفاده، وأفاد كان كالشمس تضيء لنفسها ولغيرها، وهي مضيئة، والمسك الذي يطيّب وهو طيب. ومن أفاد غيره ولم ينتفع به. فهو كالدفتر يفيد غيره، وهو خال عنه، وكالمسنّ يشحذ غيره ولا يقطع، أو كذبالة المصباح، تضيء غيرها وهي تحترق.

١ ـ **فأول وظائف المعلم**: أن يجري المتعلم منه مجرى بنيه، كما قال

عليه السلام: «إنما أنا لكم مثل الوالد لولده». وليعتقد المتعلم أن حق المعلم أكبر من حق الأب، فإنه سبب حياته الباقية، والأب سبب حياته الفانية. وكذلك قال الإسكندر، لما قيل له: أمعلمك أكرم عليك أم أبوك؟ فقال: «بل معلمي». وكما أن من حق بني الأب الواحد أن يتحابوا ولا يتباغضوا، فكذلك حق بني المعلم، بل حق بني الدين الواحد. فإن العلماء كلهم مسافرون إلى الله تعالى، وسالكون إليه الطريق. والترافق في الطريق يوجب تأكّد المودة، فأخوة الفضيلة فوق أخوة الولادة، إنما منشأ التباغض ارادتهم بالعلم المال والرياسة، فيخرجون به عن سلوك سبيل الله، ويخرجون عن قوله تعالى: **﴿إنما المؤمنون أخوة﴾**؛ ويدخلون تحت قوله: **﴿الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين﴾**.

٢ ـ **الوظيفة الثانية**: أن يقتدي بصاحب الشرع، فلا يطلب على إفادة العلم أجراً وجزاء. قال تعالى: **﴿قل لا أسألكم عليه أجراً﴾**. فإن من يطلب المال وأغراض الدنيا بالعلم، كمن نظف أسفل مداسه بوجهه ومحاسنه، فجعل المخدوم خادماً، إذ خلق الله الملابس والمطاعم خادمة للبدن، وخلق البدن مركباً، وخادماً للنفس، وجعل النفس خادمة للعلم، فالعلم مخدوم ليس بخادم، والمال خادم ليس بمخدوم. ولا معنى للضلال إلا عكس هذا الأمر. والعجب أن الأمر قد انتهى بحكم تراجع الزمان، وخلوّ الأعصار عن علماء الدين، إلى أن صار المتعلم يقلّد معلمه ليستفيد منّة، ويجلس بين يديه ويطمع في أغراض دنيوية، عوضاً عن استفادته، وهذا غاية الانتكاس ومنشأ ذلك طلب المعلمين للرياسة، والتجمل بكثرة المستفيدين، لقصور علمهم، وعدم ابتهاجهم بكمال علومهم الذاتية، فأطمع ذلك المستفيدين منهم فيهم.

٣ ـ **الوظيفة الثالثة**: الا يدخر شيئاً من نصح المتعلم وزجره عن الأخلاق الردية، بالتعريض والتصريح، ومنعه أن يتشوق إلى رتبة فوق استحقاقه، وأن يتصدى لاشتغال فوق طاقته، وأن ينبهه على غاية العلوم، وإنما هي السعادة الأخروية دون أغراض الدنيا. فإن رأى من لا يتعلم إلا لأجل طلب الرياسة، ومباهاة العلماء، لم يزجره عن التعلّم. فاشتغاله بالتعلم مع هذا القصد خير من

الاعراض، فإنه مهما اكتسب العلم تنبَّه بالآخرة لحقائق الأمـور، وأن الطالب بالعلم لأغراض الدنيا مغبون. وقد بيَّن العلمـاء هذا المعنى بقـولهم: «تعلمنا العلم لغير الله، فأبى العلم أن يكون إلا لِلَّهِ». بل أقـول: إن كان النـاس لا يرغبون في تعلّم العلم لله، فينبغي أن يدعوهم إلى نوع من العلم يستفاد بـه الرياسة بالأطماع في الرياسة، حتى يستدرجهم بعد ذلك إلى الحق. ولهذا رئي الرخصة في علم المناظرة في الفقهيـات، لأنها بـواعث على المواظبـة لطلب المباهاة أوّلاً. ثم بالآخرة يتنبه لفساد قصده، ويعدل عنه إلى المنهج القويم. ويجري هذا المجرى من قصدنـا في إرهاق الصبي إلى التعلم بـالأطماع في الرياسة أنا نطمعه فيه بالصولجان، وشراء الطيور، وأسباب اللعب، ونطلق له ذلك في بعض الأوقات، لتنبعث دواعيه إلى التعلم ابتداءً طمعاً فيما رعيناه آخراً تدريجاً. وقد جعل الله تعالى قصد الرياسة من تعلّم العلم حفظاً للشرع والعلم.

٤ ـ الوظيفة الرابعة: أنه ينبغي أن ينهى عما يجب النهي عنه بالتعريض لا بالتصريح، لأن التعريض يؤثر في الزجر، والتصريح بالزجر مما يغري بالنهي عنه. قال عليه السلام: «لو نهي الناس عن فتّ البعر لفتوه، وقالوا ما نهينا عنه إلا وفيه شيء». وينبه على هذا قصة آدم وحواء وما نهيا عنه. وقد قيل: رب تعريض أبلغ من تصريح. وذلك أن النفوس الفاضلة لميلها إلى الاستنباط والتنبه للخفيات، تميل إلى التعريض شغفاً باستخراج معناه بالفكر. والتعريض لا يهتك حجاب الهيبة، والتصريح يرفعه بالكلية، فيستفيد المنهي جراءة على المخالفة إذا اضطر إلى المخالفة مرة أخرى.

٥ ـ الوظيفة الخامسة: أن المتكفل ببعض العلوم، لا ينبغي له أن يقبح في نفس المتعلم العلم الذي ليس بين يديه، كما جرت عادة معلمي اللغة من تقبيح الفقه، عند المتعلمين وزجرهم عنه، وعادة الفقهاء من تقبيح العلوم العقلية والزجر عنها، بل ينبَّه على قدر العلم الذي فوقه ليشتغل به عند استكمال ما هو بصدده. وإن كان متكفلاً بعلمين مترتبين، فإذا فرغ من أحدهما رقي المتعلم إلى الثاني وراعى فيه التدريج.

٦ ـ الوظيفة السـادسة: أن يقتصـر بالمتعلمين على قـدر أفهامهم، فـلا

يرقّيهم إلى الدقيق من الجلي وإلى الخفي من الظاهر، هجوماً وفي أول رتبة، ولكن على قدر الاستعداد، اقتداء بمعلم البشر كافة ومرشدهم حيث قال: «إنا معشر الأنبياء أمرنا أن ننزل الناس منازلهم، ونكلم الناس بقدر عقولهم». وقال: «ما أحد يحدث قوماً حديثاً لا يبلغه عقولهم، إلا كان ذلك فتنة على بعضهم». وقال علي رضي الله عنه، وقد أومأ إلى صدره: «إن ههنا لعلوماً جمة، لو وجدت لها حملة». وقال عليه السلام: «كلموا الناس بما يعرفون، ودعوا ما ينكرون، أتريدون أن يكذب الله ورسوله». وقال تعالى: ﴿**ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم**﴾[1]. وسئل بعض المحققين عن شيء فأعرض، فقال السائل: أما سمعت قول رسول الله عليه السلام: «من كتم علماً نافعاً، جاء يوم القيامة ملجماً بلجام من نار». فقال: أترك اللجام واذهب فإن جاء من يفقه فكتمته فليلجمني به. ولما قال تعالى ﴿**ولا تأتوا السفهاء أموالكم**﴾[2]، نبّه على أن حفظ العلم وامساكه عمن يفسده العلم أولى. ولما قال تعالى: ﴿**فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم**﴾[3]، نبّه على أنِ من بلغ رشده في العلم، ينبغي أن يبث إليه حقائق العلوم، ويرقي من الجلي الظاهر، إلى الدقيق الخفي الباطن، فليس الظلم في منع المستحق، بأقل من الظلم في إعطاء غير المستحق. وقال المتقدم في مثل ذلك.

فمن منح الجهال علماً أضاعه ومن منع المستوجبين فقد ظلم

وادخار حقائق العلوم عن المستحق لها فاحشة عظيمة. قال الله تعالى: ﴿**وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه**﴾[4].

٧ ـ الوظيفة السابعة: إن المتعلم القاصر ينبغي أن يذكر له ما يحتمله فهمه، ولا يذكر له أن ما وراء ما ذكرت ذلك تحقيقاً وتدقيقاً أدخره عنك. فإن ذلك يفتّر رأيه في تلقف ما ألقي إليه، بل يخيل إليه أنه كل المقصود، حتى إذا

---

(١) قرآن ٨، ٢٣.
(٢) قرآن ٤، ٥.
(٣) قرآن ٤، ٦.
(٤) آل عمران الآية ١٨٧.

استقل به رقي إلى غيره بالتدريج. ومن هذا يعلم أن من تقيّد من العوام بقيد الشرع، واعتقد الظاهر وحسن حاله في السيرة، فلا ينبغي أن يشوش عليه اعتقاده وينبه على تأويلات الظواهر. فإن ذلك يؤدي إلى أن ينحلّ عنه قيد الشرع، ثم لا يمكن أن يقيّد بتحقيق الخواص فيرتفع السدّ الذي بينه وبين الشرور، فينقلب شيطاناً وشريراً، بل ينبغي أن يرشد إلى علم العبادات الظاهرة، والأمانة في الصناعة، التي هو بصددها، وأن يملأ نفسه من الرغبة والرهبة على الوجه الذي نطق به القرآن، وأن لا يولّد شبهة، فإن تولدت شبهة وتشوقت نفسه إلى حلها، فيعالج دفع شبهته بما يقنع به من كلام عامي، وإن لم يكن على حقائق الأدلة. ولا ينبغي أن يفتح له باب البحث والطلب، فإنه يعطل عليه الصناعة التي بها تعمر الأرض وينتفع الخلق. ثم يقصر عن درك العلوم، فإن وجد ذكياً مستعداً لقبول الحقائق العقلية، جاز أن يساعده على التعليم، إلى أن تنحل له الشبهات. وقد حكي عن بعض الأمم السالفة أنهم كانوا يختبرون المتعلم مدة في أخلاقه، فإن وجدوا فيه خلقاً ردّياً منعوه التعلم أشد المنع. وقالوا انه يستعين بالعلم على مقتضى الخلق الردي، فيصير العلم آلة شرّ في حقّه، وإن وجدوه مهذب الأخلاق قيّدوه في دار العلم، وعلّموه وما أطلقوه قبل الاستكمال، خيفة أن يقتصر على البعض، ولا تكمل نفسه، فيفسد به دينه ودين غيره. وبهذا الاختبار قيل: «نعوذ بالله من نصف متكلم ونصف طبيب. فذلك يفسد الدين وهذا يفسد الحياة الدنيا».

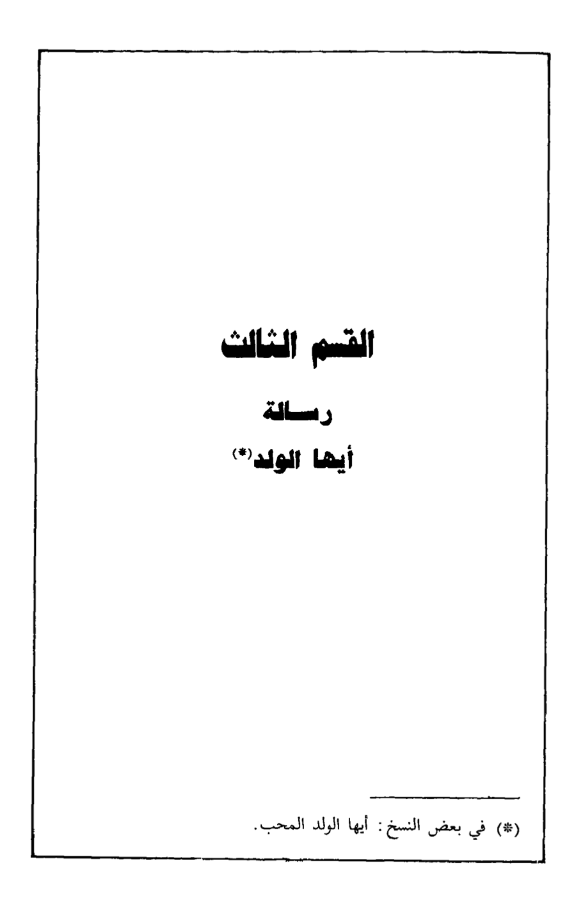
٨ ـ **الوظيفة الثامنة**: أن يكون المعلم للعلم العملي، أعني الشرعيات، عاملاً بما يعلمه، فلا يكذب مقاله بحاله، فينفر الناس عن الاسترشاد والرشد. وذلك أن العمل مدرك بالبصر، والعلم بالبصيرة، وأصحاب الأبصار أكثر من أرباب البصائر. فليكن عنايته بتزكية أعماله أكثر منه بتحسين علمه ونشره. وكل طبيب تناول شيئاً وزجر الناس عنه، وقال: «لا تتناولوه فإنه سمّ»، يحمل على الهزء والسفه. وإنما هو الذي اعتقد فيه أنه أنفع الأشياء يريد أن يستأثر به، فينقلب النهي اغراء وتحريضاً. والمتعظ من الواعظ يجري مجرى الطين من النقش، والظل من العود، وكيف ينتقش الطين بما لا نقش فيه، وكيف يستوي

الظل، والعود أعوج؟ ولذلك قيل:

لا تنه عن خلق وتأتي مثله   عار عليك إذا فعلت عظيم

بل قال الله تعالى: ﴿**أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم**﴾[1]. ولذلك قيل: وزر العلم في معاصيه أكثر من وزر غيره، لأنه يقتدى به، فيحمل أوزاراً مع أوزاره. كما قال عليه السلام: «من سنّ سنّة سيئة، فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة». فعلى كل عاص في كل معصية وظيفة واحدة، وهو تركها وترك الاظهار، كيلا يتبعه الناس. فإذا أظهر فقد ترك واجبين، وإن أخفى فقد ترك أحد الواجبين. ولذلك قال علي رضي الله عنه: «قصم ظهري رجلان، جاهل متنسك، وعالم متهتك، فالجاهل يغري الناس بنسكه والعالم يغريهم بتهتكه». . .

(١) قرآن ٢، ٤٤.



القسم الثالث

رسالة

أيها الولد(*)

(*) في بعض النسخ: أيها الولد المحب.

بسم الله الرحمن الرحيم

الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ. وَالصَّلاةُ والسَّلامُ عَلَى نَبِيِّهِ وَآلِهِ أَجْمَعِينَ.

اعْلَمْ أَنَّ وَاحِداً مِنَ الطَّلَبَةِ الْمُتَقَدِّمينَ لازمَ خِدْمَةَ الشَّيْخِ الإمامِ زَيْنِ الدِّينِ حُجَّةِ الإسْلامِ أَبِي حَامِدِ بْنِ مُحَمَّدٍ الْغَزَالِيِّ، قَدَّسَ الله رُوحَهُ، وَاشْتَغَلَ بِالتَّحْصِيلِ وَقِرَاءَةِ الْعِلْمِ عَلَيْهِ حتَّى جَمَعَ دَقَائِقَ العُلُومِ، واسْتَكْمَلَ فَضَائِلَ النَّفْسِ. ثُمَّ إنَّهُ تَفكَّرَ يَوْماً فِي حَالِ نَفْسِهِ، وَخَطَرَ عَلَى بَالِهِ، وَقَالَ: إنِّي قَرَأْتُ أَنْوَاعاً مِنَ العُلُومِ، وَصَرَفْتُ رَيْعَانَ عُمْري عَلَى تَعَلُّمِهَا وَجَمْعِهَا، وَالآن يَنْبَغِي لي أنْ أعْلَمَ أيّ نَوْعِهَا يَنْفَعُنِي غَداً وَيُؤْنِسُنِي فِي قَبْرِي؟ وَأَيُّهَا لا يَنْفَعُنِي حَتَّى أتْرُكَهُ، كَمَا قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «اللَّهُمَّ إنِّي أعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لا يَنْفَعُ» فَاسْتَمَرَّتْ هَذِهِ الفِكْرَةُ حَتَّى كَتَبَ إلى حَضْرَةِ الشَيْخِ حُجَّةِ الإسْلامِ مُحَمَّدٍ الْغَزَالِيِّ، رَحِمَهُ الله تَعَالَى، اسْتفتاءً. وَسَألَهُ مَسَائِلَ، والتَمَسَ نَصِيحَةً وَدُعَاءً، قَالَ: وَإنْ كَانَ مُصَنَّفَاتُ الشَّيْخِ كَالإحْيَاءِ وَغَيْرِهِ تَشْتَمِلُ عَلَى جَوَابِ مَسَائِلِي، لَكِنَّ مَقْصُودِي أنْ يَكْتُبَ الشَّيْخُ حَاجَتِي في وَرَقَاتٍ تَكُونُ مَعِي مُدَّةَ حَيَاتِي، وَأعْمَلُ بِمَا فِيهَا مُدَّةَ عُمُرِي، إنْ شَاءَ الله تَعَالَى. فَكَتَبَ الشَّيْخُ هَذِهِ الرِّسَالَةَ إلَيْهِ في جَوَابِهِ. والله أعْلَمُ.

اعْلَمْ، أَيُّهَا الولدُ والمُحبُّ العَزِيزُ ـ أطال الله بقاكَ بِطَاعَتِهِ، وسَلَكَ بك سَبيلَ أَحبَّائِهِ ـ أَنَّ مَنْشورَ النَّصيحةِ يُكْتَبُ مِن مَعدِنِ الرِّسالةِ، إن كان قد بلغك منه نصيحة فأيُ حاجةٍ لك في نصيحتي، إنْ لَمْ يبلُغْكَ فَقُلْ لي: ماذا حصَّلْتَ في هَذِهِ السِّنينَ الماضِيَةِ؟

أيُها الوَلَدُ مِنْ جُمْلَةِ ما نَصَحَ بِهِ رَسُولُ الله ﷺ، أُمَّتَهُ قَولُهُ، عَلَيْهِ السَّلامُ: «عَلامَةُ إعْراضِ الله تَعَالَى عَنِ العَبْدِ اشتِغَالُهُ بما لا يَعْنِيه، وإنَّ امرأً ذَهَبت ساعَةٌ مِنْ عُمُرِهِ في غَيْرِ ما خُلِقَ لهُ مِنَ العِبَادَةِ، لَجَديرٌ أن تَطولَ عَلَيْهِ حَسْرَتُهُ، ومَنْ جاوَزَ الأربَعينَ وَلَمْ يَغلِبْ خَيْرُهُ عَلى شَرّهِ فلْيَتَجَهَّزْ إلى النَّارِ» وفي هذِهِ النَّصيحةُ كِفايَةٌ لِأهْلِ العِلْمِ.

أيُهَا الوَلَدُ، النَّصيحَةُ سَهْلَةٌ والمُشْكِلُ قَبُولُها، لِأنَّها في مذَاق مُتَّبعي الهَوَى مُرَّةٌ، إذِ الْمَناهي مَحبُوبةٌ في قُلوبِهِمْ، وَعَلى الخُصُوص لمَنْ كانَ طالِبَ العِلْمِ الرسْميّ، ومُشْتَغلاً في فَضلِ النَّفسِ، وَمَنَاقِب الدُّنْيا، فإنَّهُ يَحْسَبُ أنَّ العِلْمَ المُجَرَّدَ لهُ سَيكُونُ نَجاتَهُ وخَلاصُهُ فيه، وأنَّهُ مُسْتَغْنٍ عنِ العَمَلِ. ـ وهَذا اعتِقادُ الفَلاسِفةِ. سُبْحَانَ الله العَظِيمِ! لا يَعْلَمُ هَذَا المَغْرُورُ أنَهُ حِينَ حَصَّلَ العِلْمَ، إذا لَمْ يَعْمَلْ بِهِ، تَكُونُ الحُجَّةُ عَلَيْهِ آكدَ كما قال رسُولُ الله ﷺ: «أشَدُّ النَّاسِ عَذاباً يوْمَ القِيَامَةِ عالِمٌ لا يَنفَعُهُ الله بِعِلْمِهِ».

ورُوِي أنَّ الجُنيْدَ، قَدَّس الله سِرَّهُ، رُئِيَ في الْمَنَامِ بَعْدَ مَوْتِهِ فقِيل لهُ: ما الخَبَرُ يا أبا القَاسِمِ؟ قال: طَاحَتْ تِلْكَ العِباراتُ، وفنيتْ تِلْكَ الإشَاراتُ، وما نَفَعَنا الَّا رُكَيْعاتٌ رَكَعْناها في جوْفِ اللَّيلِ.»

أيُهَا الولَدُ، لا تَكُنْ مِنَ الأعْمالِ مُفْلِساً، ولا مِنَ الأحْوال خالياً، وَتَيَقَّنْ، أنَّ العِلْمَ المُجَرَّدَ لا يأْخُذُ باليَدِ. مِثالُهُ لَوْ كانَ على رَجُلٍ في بَرّيَّةٍ عَشَرَةُ أسْيافٍ هِنْدِيَّةٍ مَعَ أسْلِحَةٍ أُخرَى، وَكَانَ الرَّجُلُ شُجاعاً وأهلَ حَرْبٍ، فحَمَلَ عَلَيْهِ أسَدُ عَظيمٌ مَهيبٌ، فما ظَنُّكَ؟ هَلْ تَدْفَعُ الأسْلِحَةُ شَرَّهُ عنهُ بلا اسْتِعمالها وَضَرْبِها؟ وَمِنَ المَعْلُومِ أنَّها لا تَدْفَعُ إلاَّ بِالتَّحْريكِ والضَّرْبِ. فَكَذا لو قَرأَ رَجُلٌ مئة الف مَسأَلَةٍ عِلْمِيَّةٍ وتَعَلَّمَها، ولَمْ يَعْمَلْ بها، لا تُفيدُهُ إلَّا بالْعَمَلِ. وَمِثْلُهُ أيْضاً لوْ كانَ لِرَجُلٍ حَرَارَةٌ وَمَرَضٌ صَفْراويٌ يَكونُ عِلاجُهُ بِالسِّكَنْجبين والكَشْكابِ، فَلا

يَحصُلُ البُرءُ إلاَّ باسْتِعْمَالِهما.

كـرمى دو هزار رطـل همي بيمـائي تـامي نخوري نبـا شدت شيـدائي[1]

وَلَـوْ قَـرَأْتَ العِلْمَ مئةَ سَنَـةٍ، وجَمَعْتَ ألفَ كِتَـابٍ، لا تَكُـونُ مُسْتَعِـدًّا لِرَحْمَةِ الله تَعَالَى إلاَّ بِالعَمَلِ، ﴿وَأَنْ لَيْسَ لَلإِنْسَانِ إلاَّ ما سَعَى﴾، **﴿فَمَنْ كانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً﴾**، **﴿جَزاءً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ﴾**، **﴿إِنَّ الَّذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ كانَتْ لَهُم جَنَّاتُ الفِرْدَوْسِ نُزُلاً خَالِدِينَ فِيهَا لا يَبْغُون عَنْهَا حوَلاً﴾**، **﴿فَخَلَفَ من بَعْدِهِم خلفٌ أضاعُوا الصلوات واتبعوا الشهـوات فسوفَ يلقَونَ غيًّاً إلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فأُولئكَ يدخلونَ الجنَّةَ ولا يُظلمونَ شَيئاً﴾**.

ومَا تَقُولُ فِي هَذا الحَدِيثِ: «**بُنِيَ الإسْـلامُ على خَمْسٍ: شَهَادةِ أنْ لا إلـهَ** إلاَّ الله، وأنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ الله، وَإِقَامِ الصَّلاةِ، وإيتَاءِ الزَّكاةِ، وصَوْمِ رَمَضَانَ، وحَجِّ البيْتِ لِمَن اسْتَطَاعَ إلَيْهِ سَبيلاً»؟.

والإيمَانُ قَولٌ باللّسَانِ وتَصْديقٌ بالجَنَانِ وعَمَلٌ بِالأَرْكَانِ، ودَلِيلُ الأعْمَالِ أكْثَرُ مِن أن يُحْصَى؛ وإن كانَ العَبْدُ يَبْلُغُ الجَنَّةَ بِفَضْلِ الله تَعَالَى وكَرَمِهِ. لَكِنْ بَعْدَ أن يَسْتَعِدَّ بِطَاعَتِهِ وَعِبَادَتِهِ، لأنَّ «رَحْمَةَ الله قَرِيبٌ مِنَ المُحْسِنِينَ». وَلَوْ قِيلَ أيْضاً: يَبْلُغُ بِمُجَرَّدِ الإيمـانِ قُلْنَا: نَعَمْ، لَكِنْ مَتَى يَبْلُغُ؟ وَكَمْ مِنْ عَقَبَـةٍ كَؤُودٍ يَقْطَعُهَا إلَى أنْ يَصِلَ؟ فَأَوَّلُ تِلْكَ العَقَبَاتِ عَقَبَةُ الإيمَانِ، وأَنَّهُ هَلْ يَسْلَمُ مِنْ سَلْبِ الإيمَـانِ أَمْ لاَ؟ وإذَا وَصَلَ هَل يَكُـونُ خَائِبـاً مُفْلِسَاً؟ وقَـالَ الحَسَنُ البَصْرِيُّ: «يَقُـولُ الله تَعَالَى لِعِبَـادِهِ يَوْمَ القِيَـامَةِ: «**ادْخُلُوا يَـا عِبَادِي الجَنَّـةَ واقْتَسِمُـوهَـا بِأَعمَالِكُمْ**».

---

(١) ترجم هذا البيت الشيخ أمين الكردي فقال:

لَـوْ كِلْتُ أَلفَي رطـلِ خمـرٍ لـم تَكُـنْ لِـتَـصِـيـرَ نَـشْـوَانـاً إذَا لَـم تَـشْـرَبِ

أَيُّهَا الوَلَدُ، مَا لَمْ تَعْمَلْ لَمْ تَجِدِ الأَجْرَ. حُكِيَ أَنَّ رَجُلاً مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَبَدَ اللهَ تَعَالَى سَبْعِينَ سَنَةً، فَأَرادَ اللهُ تَعَالَى أن يَجْلُوَه عَلَى المَلاَئِكَةِ، فَأَرْسَلَ اللهُ إِلَيْهِ مَلَكاً يُخْبِرُهُ أَنَّهُ مَعَ تِلْكَ العِبَادَةِ لاَ يَلِيقُ بِهِ دُخُولُ الجَنَّةِ، فَلَمَّا بَلَغَهُ قالَ العَابِدُ: نَحْنُ خُلِقْنَا لِلْعِبَادَةِ فَيَنْبَغِي لَنا أن نَعْبُدَهُ. فَلمَّا رَجَعَ الْمَلَكُ قَالَ: إلهي أَنْتَ أَعْلَمُ بما قَالَ. فَقَالَ اللَّهُ تَعَالى: «**إذا هُوَ لَمْ يُعْرِضْ عَن عِبَادَتِنا فَنَحْنُ مَعَ الكَرَمِ لا نُعْرِضُ عَنْهُ. اشْهَدُوا يَا مَلاَئِكَتِي أَنِّي قَدْ غَفَرتُ لَهُ**».

وَقَال رسُولُ الله، ﷺ: «حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا، وَزِنُوا أَعْمَالَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُوزَنُوا». وَقَالَ عَلِيٌّ، رَضيَ اللهُ عَنْهُ: «**مَنْ ظَنَّ أَنَّهُ بِدُونِ الْجَهْدِ يَصِلُ فَهُوَ مُتَمَنٍّ**». وَقَالَ الحَسَنُ، رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: «**طَلَبُ الجَنَّةِ بِلاَ عَمَلٍ ذَنْبٌ مِنَ الذُّنُوبِ**». وَقَالَ: «عَلاَمَةُ الحَقِيقَةِ تَرْكُ مُلاَحَظَةِ العَمَلِ لاَ تَرْكُ العَمَلِ». وَقَالَ رَسُولُ الله، ﷺ: «الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ المَوْتِ، والأَحْمَقُ مَنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ وَتَمَنَّى على اللهِ تَعَالَى الأَمَانِيَّ».

أَيُّهَا الوَلَدُ، كَمْ مِنْ لَيَالٍ أَحْيَيْتَهَا بِتِكْرارِ العِلْمِ، ومُطَالَعَةِ الْكُتُبِ، وَحَرَّمْتَ عَلَى نَفْسِكَ النَّوْمَ؟ لاَ أَعْلَمُ مَا كَانَ البَاعِثُ فِيهِ؟ إنْ كَانَ نَيْلَ عَرَضِ الدُّنْيَا وَجَذْبَ حُطَامِهَا وَتَحْصِيلَ مَنَاصِبِهَا والمُبَاهَاةَ عَلَى الأَقْرَانِ والأَمْثَالِ، فَوَيْلٌ لَكَ ثُمَّ وَيْلٌ لَكَ. وَإِنْ كَانَ قَصْدُكَ فِيهِ إِحْيَاءَ شَرِيعَةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَتَهْذِيبَ أَخْلاَقِكَ وكَسْرَ النَّفْسِ الأَمَّارَةِ بِالسُّوءِ، فَطُوبَى لَكَ ثُمَّ طُوبَى لَكَ. وَلَقَدْ صَدَقَ مَنْ قَالَ شِعْراً:

سَهَرُ العُيُونِ لِغَيْرِ وَجْهِكَ ضَائِعٌ وَبُكَاؤُهُنَّ لِغَيْرِ فَقْدِكَ بَاطِلُ

أَيُّهَا الوَلَدُ، عِشْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مَيِّتٌ، وأَحْبِبْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مُفَارِقُهُ، وَاعْمَلْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مَجْزِيٌّ بِهِ.

أَيُّهَا الوَلَدَ، أَيُّ شَيْءٍ حَاصِلٌ لَكَ مِنْ تَحْصِيلِ عِلْمِ الكَلاَمِ وَالخِلافِ والطِبِّ والدَّوَاوِينِ والأَشْعَارِ والنُّجُوم والعَرَوضِ والنَّحْوِ والتصْرِيفِ غَيْرُ تَضْيِيعِ

العُمْـرِ بِخِـلافِ ذي الجَـلالِ. إنّي رَأيْتُ فِي إنْجِيـلِ عِيسى، عَلَيـهِ الصَّـلاةُ والسَّلامِ: «مِن سَاعَةِ أن يُوضَعَ المَيْتُ على الجَنَازَة إلى أن يُوضَع على شَفِيـر القَبْرِ يَسْأَلُ الله بِعَظَمَتِهِ مِنْهُ أَرْبَعِينَ سُؤَالاً. أوَّلُها يَقُول: عَبْـدِي طَهَّرْتَ مَنْـظَرَ الخَلْقِ سِنينَ ومَا طَهَّرتَ مَنْظَرِي سَاعَةً. وكُلَّ يَوْمٍ يَنْظُرُ في قَلْبِكَ يَقُولُ: مَا تَصْنَعُ لِغَيْرِي وَأَنْت مَحْفُوفٌ بِخَيْرِي. أَمَّا أنتَ فَـأَصمٌّ لاَ تَسْمَعُ!»

أيُّهَا الوَلَدُ، العِلْمُ بِلاَ عَمَلٍ جُنُونٌ، والعَمَلُ بِغَيْرِ عِلْمٍ لاَ يَكُونُ. وَاعْلَمْ أَنَّ العِلْمَ الذي لا يُبْعِدُكَ اليَوْمَ عَنِ المَعَاصِي ولا يَحمِلُكَ على الطَّاعَةِ، لَنْ يُبْعِدَكَ غَداً عَنْ نَارِ جَهَنَّمَ، وَإذا لَمْ تَعْمَل بعلمكَ اليَوْمَ ولم تَدارَكِ الأيَّامَ المَاضِيَةَ تَقُولُ غَداً يَوْمَ القِيَامَةِ: «فَـارْجِعْنَا نَعْمَـلْ صَالِحـاً» فَيُقَالُ: «يَـا أَحْمَقُ أَنْتَ مِنْ هُنَاكَ تَجيءُ!»

أَيُّهَا الوَلَدُ، اجْعَل الهِمَّةَ في الرُّوحِ، والهَزِيمةَ في النّفْسِ، والمَوتَ في البَدَنِ، لأنَّ مَنزلَكَ القَبْرُ، وأَهلُ المَقَابِـرِ يَنْتَظِرُونَـكَ فِي كُلّ لَحْـظَةٍ مَتى تَصِلُ إلَيْهِمْ؟ إيّاكَ أَنْ تَصِلَ إلَيْهِم بلا زَادٍ. قال أَبو بَكْر الصّدِّيقُ، رَضِيَ الله عَنْهُ: «هذِه الأجسادُ قفصُ الطُّيورِ أو إصْطَبْلُ الدَّوابِّ، فَتَفَكَّرْ فِي نَفْسِكَ، مِنْ أيِهِمَا أَنْتَ؟ إن كُنتَ مِن الطُّيورِ العُلْوِيَّةِ فَحِينَ تَسْمَعُ طَنينَ طبْـلِ ﴿ارْجِعِي إلَى رَبِّكِ﴾ تَـطِيرُ صَاعِداً إلى أنْ تَقْعُدَ فِي أَعالِي بُرُوجِ الجنَانِ، كَمَا قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «اهتَزَّ عَرْشُ الرَّحْمَنِ مِنْ مَوْتِ سَعْدِ بنْ مُعَاذٍ». والعِيَاذُ بالله إنْ كُنْتَ مِنَ الدَّوابِّ، كما قال الله تَعالى: «أُولَئِكَ كالأنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ» فَلاَ تَأْمَنِ انتِقَالَكَ مِنْ زَاوِيَةِ الدَّارِ إلى هَاوِيَةِ النَّـار. وَرُوِيَ أنْ الحَسَنَ البَصْـريَّ، رَحِمَهُ الله تعالى، أُعْطِيَ شَرْبَةَ مَاءٍ، بَارِدٍ، فَأَخَذَ القَدَحَ وغُشِيَ عَليْهِ وَسَقَطَ مِنْ يَدِهِ، فَلَمَّا أَفاقَ قِيلَ ما لَكَ يَا أَبَا سَعِيدٍ. قال: ذَكَرْتُ أُمْنِيَّةَ أَهْلِ النَّارِ حِينَ يَقُولُونَ لأهْلِ الجَنَّةِ: ﴿أَن أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ المَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ الله﴾.

أَيُّهَا الوَلَدُ، لَوْ كَانَ العِلْمُ المُجَرَّدُ كافياً لَكَ ولا تَحْتاجُ إلى عَمَلٍ سِوَاهُ لَكَانَ نِدَاءُ «هَلْ مِن سائِلٍ؟ هَلْ مِن مُسْتَغْفِرٍ؟ هَلْ مِن تَائِبٍ؟» ضَائِعَاً بِلا فَائِدَةٍ. وَرُوِيَ أَنَّ جَمَاعَةً مِنَ الصَّحَابَةِ، رِضْوَانُ الله عَلَيْهِمْ أجْمَعِينَ، ذَكَرُوا عَبْدَ الله بنْ عُمَر، رَضِيَ الله عَنْهُمَا، عِنْدَ رَسُولِ الله، صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: نِعْمَ الرَّجُلُ هُوَ، لَوْ كَانَ يُصَلِّي باللَّيل. وقَالَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلام لِرَجُلٍ مِن أصْحابِهِ: «يَا فُلاَنُ، لا تُكْثِرِ النَّوْمَ بِاللَّيلِ فإنَّ كَثْرَةَ النَّوْمِ بِاللَّيْلِ يَدَعُ صَاحِبَهُ فقِيراً يَوْمَ القِيَامَةِ.».

أَيُّهَا الوَلَدُ، ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نافلة لك﴾ أمْرٌ، ﴿وبِالأسْحَارِ هُمْ يَستَغفرونَ﴾ شُكرٌ، «والمُستَغفِرُونَ بالأسحارِ» ذِكْرٌ. قال عَلَيْهِ السَّلاَمُ «ثَلاَثَةُ أصوَاتٍ يُحِبُّهَا الله تَعَالَى: صَوْتُ الدِيكِ، وصَوْتُ الَّذِي يَقْرأُ القُرْآنَ، وصَوْتُ المُسْتَغْفِرِينَ بالأسْحارِ». قالَ سُفْيَانُ الثَّوريُّ، رَحْمَةُ اللهِ تَعَالَى عَلَيْهِ: «إنَّ الله تَبَارَك وتَعَالَى خلَقَ رِيحاً تَهُبُّ بِالأسْحَارِ تَحْمِلُ الأذكارَ والاسْتِغْفَارَ إلَى المَلِكِ الجَبَّار». وقالَ أيْضاً: «إذا كانَ أوَّلُ اللَّيْلِ يُنَادِي مُنَادٍ من تحتِ العَرْشِ: ألاَ لِيقُمِ العَابِدُونَ. فَيَقُومُونَ وَيُصَلُّونَ مَا شَاءَ الله. ثُمَّ يُنَادِي مُنادٍ في شَطْرِ اللَّيْلِ: الا لِيَقُم القَانِتونَ. فَيَقُومُونَ ويُصَلُّونَ إلى السَّحَرِ. فَإذَا كانَ السَّحَرُ نَادَى مُنادٍ: ألاَ لِيَقُمِ المُسْتَغْفِرُون. فَيَقُومُونَ. مِنْ فُرُشِهِمْ كالمَوْتَى نُشِرُوا مِنْ قُبُورِهِمْ.».

أَيُّهَا الوَلَدُ، رُوِيَ فِي وَصَايَا لُقْمَانَ الحَكِيمِ لابْنِهِ أَنَّهُ قَالَ: «يَا بُنَيَّ، لا يَكُونَنَّ الدّيكُ أكْيَسَ مِنْكَ! يُنَادِي بالأسْحَارِ وأَنْتَ نَائِمٌ.» وَلَقَدْ أحْسَنَ مَنْ قَالَ شِعْراً.

لَقَدْ هَتَفَتْ فِي جُنْحِ لَيْلٍ حَمَامَةٌ ... عَلَى فَنَنٍ وَهْناً، وإنّي لَنَائِمُ
كَذبْتُ، وَبَيْت اللَّهِ، لَوْ كُنْتُ عَاشِقاً ... لَمَا سَبَقَتْنِي بِالبُكَاءِ الحَمَائِمُ
وَأزْعَمُ أنّي هَائِمٌ ذُو صَبَابَةٍ ... لِرَبّي، فَلاَ أبْكِي وتَبكي البَهَائِمُ

أَيُّهَا الوَلَدُ، خُلاصَةُ العِلْمِ أنْ تَعْلَمَ الطَّاعَةَ والعِبَادَةَ مَا هِيَ.

اعْلَمْ أنَّ الطَّاعَة والعِبَادَة مُتَابَعَةُ الشَّارِعِ فِي الأوَامِرِ والنَّوَاهِي بِالقَوْلِ وَالفِعْلِ. يَعْنِي: كُلُّ مَا تَقُولُ وَتَفْعَلُ وَتَتْرُكُ يَكُونُ بِاقْتِدَاءِ الشَّرْعِ، كَمَا لَوْ صُمْتَ يَوْمَ العِيدِ وأَيَّامَ التَّشْرِيقِ تكُونُ عَاصِياً، أو صَلَّيْتَ فِي ثَوْبٍ مَغْصُوبٍ، وَإِنْ كانَتْ صُورَةَ عِبَادَةٍ، تأْثَم.

أيُّهَا الوَلَدُ، يَنْبَغِي لَكَ أنْ يَكُونَ قَوْلُكَ وفِعْلُكَ مُوَافِقاً لِلشَّرْعِ، إذِ العِلْمُ والعَمَلُ بِلاَ اقتِدَاءِ الشَّرْعِ ضَلاَلَةٌ، وَيَنْبَغِي لَكَ ألاَّ تَغْتَرَّ بِالشَّطْحِ وَطَامَاتِ الصُّوفِيَّةِ، لأنَّ سُلُوكَ هَذَا الطَّرِيق يَكُونُ بِالمُجَاهَدَةِ وَقَطْعِ شَهْوَةِ النَّفْسِ وَقَتْلِ هَوَاهَا بِسَيْفِ الرِّيَاضَةِ، لاَ بِالطَّامَّاتِ والتُّرَّهَات.

واعلَمْ أنَّ اللِسانَ المطْلَقَ، والقَلْبَ المُطْبَقَ المَمْلُوءَ بِالغفْلَةِ والشَّهْوَةِ، عَلاَمَةُ الشَّقَاوَة، فَإذَا لَم تَقْتُلِ النَّفْسِ بِصِدْقِ المُجَاهَدَةِ فَلَنْ يَحْيَا قَلْبُكَ بِأنْوَارِ المَعْرِفَةِ.

واعْلَمْ أنَّ بَعْضَ مَسَائِلِكَ التي سَأَلْتَنِي عَنْهَا لا يَسْتَقِيمُ جَوَابُهَا بِالكِتَابَةِ والقَوْلِ، إن تَبْلُغْ تِلْكَ الحَالَةَ تَعْرِفْ ما هي، وإلاَّ فَعِلْمُهَا مِن المُسْتَحِيلاتِ لأَنَّهَا ذَوْقِيَّةٌ، وكُلُّ مَا يَكُونُ ذَوقِياً لا يَسْتَقِيمُ وَصْفُهُ بِالقَوْلِ كَحلاَوَةِ الحُلْوِ وَمَرارَةِ المُرِّ لا تُعرَفُ إلاّ بِالذَّوْقِ. كَمَا حُكِيَ أنَّ عِنِيناً كَتَبَ إلى صَحِبٍ لَهُ أنْ عَرِّفْنِي لَذَّةَ المُجَامَعَةِ كَيْفَ تَكُونُ. فَكَتَبَ لَهُ فِي جَوَابِهِ، يَا فُلاَنُ إنِّي كُنْتُ حَسِبْتُكَ عِنِّيناً فَقَطْ. والآنَ عَرَفْتُ أنَّكَ عِنِينٌ وأَحْمَقُ. لأَنَّ هَـذِهِ اللّذّةَ ذَوْقِيَّةٌ تَصِلُ إلَيْهَا تَعْرِفْ، وإلاَّ لا يسْتَقِيمُ وَصْفُهَا بِالقَوْلِ والكِتَابَةِ.

أيُّهَا الوَلَدُ، بَعْضُ مَسَائِلِكَ مِنْ هَذَا القبِيلِ، وأمَّا البَعْضُ الذي يَسْتَقِيمُ له الجوابُ فَقَدْ ذَكَرْنَاهُ فِي «إحْيَاءِ العُلوم» وَغيرِهِ، ونَذْكُرُ هَا هُنَا نُبَذاً مِنْهُ وَنُشِيرُ إليهِ فَنَقُولُ:

قدْ وَجَبَ على السَّالِكِ أرْبَعَةُ أُمورٍ:

الأَمْرُ الأَوَّلُ: اعتِقادٌ صَحيحٌ لا يكُونُ فِيهِ بِدْعَة.

والثَّاني: تَوْبَةٌ نَصُوحٌ لا يُرْجَعُ بَعْدَهَا إلى الزَّلَّةِ.

والثَّالثُ: اسْتِرْضَاءُ الخُصُومِ حَتَّى لا يَبْقَى لأَحَدٍ عَلَيْكَ حَقٌّ.

والرَّابعُ: تَحْصِيلُ عِلْمِ الشَّرِيعَةِ قَدْرَ ما تُؤَدى بِـهِ أَوامِرُ اللَّهِ تَعَالَى، ثُمَّ مِن العلُومِ الأخرَى ما تَكُونُ بِهِ النَّجَاةُ. حُكِيَ أَنَّ الشبلِيَّ، رَحِمَهُ الله، خَدَمَ أَرْبعَمائةِ أُسْتَاذٍ، وقال: قَرَأْتُ أَرْبَعَةَ آلافِ حَدِيثٍ، ثُمَّ اخْتَرْتُ مِنْهَا حَدِيثاً واحداً وَعمِلْتُ بِهِ، وَخَلَّيْتُ مَا سِوَاهُ، لأني تَأَمَّلْتُهُ فَوَجَدْتُ خَلاَصِي وَنَجَاتِي فيه، وكـانَ عِلْمُ الأَوَّلينَ والآخرينَ كُلُّهُ مُنْدَرِجاً فِيهِ فَاكْتَفَيْتُ بِهِ، وذَلِكَ أَنَّ رَسُول الله، ﷺ، قال لِبَعْضِ أصْحَابِهِ: «إعْمَـلْ لِـدُنْيَـاكَ بِقَدْرِ مُقَامِكَ فِيهَا، واعْمَلْ لآخِـرَتِكَ بِقَـدْرِ بَقَائِـكَ فِيها، واعْمَلْ للَّهِ بِقَدْرِ حَاجَتِكَ إليهِ، وَاعْمَلْ للنَّارِ بِقَدْرِ صبْرِكَ عَلَيْهَا».

أَيُّهَا الوَلَدُ، إذَا عَلِمْت هَذَا الحَدِيثَ، لا حَاجَة إلى العِلْمِ الكثِيرِ. وَتَأَمَّلْ في حِكَايَـاتٍ أُخْـرَىٰ، وذَلِـكَ أنَّ حَـاتِمـاً الأَصَمَّ كـانَ مِن أَصْحـابِ الشَّقِيـقِ الْبَلْخِي، رَحْمَةُ الله تَعالَى عَلَيْهِمَا، فَسَأَلَهُ يوْماً قالَ: صَـاحَبْتَنِي مُنْذُ ثَلاثِينَ سَنَةً مَا حَصَّلْتَ فِيها؟ قال: حَصَّلْتُ ثَمانِيَ فَوَائِدَ مِن العِلْمِ، وهِيَ تَكْفِيني مِنهُ، لأنّي أَرْجُو خَلاصِي ونَجَاتِي فِيهَا. فَقَالَ شَقِيقٌ ما هِيَ؟ قالَ حَاتِمٌ الأَصَم:

الفَائدَةُ الأولَى: أَنّي نَـظَـرْتُ إلى الخَلْقِ فَرَأيْتُ لكُلِّ مِنْهُمْ مِحبُوباً ومَعشُوقاً يُحبُّهُ ويَعْشَقُهُ، وَبَعْضُ ذلِـكَ المَحْبُوبِ يصاحبُه إلى مَرَضِ المَوْتِ، وَبَعْضُهُ إلى شَفِيرِ القَبْرِ، ثُمَّ يَرْجِعُ كُلُّهُ وَيَتْرُكُهُ فَرِيداً وَحيداً ولا يَدْخُلُ مَعَهُ في قَبْرِهِ ويُؤانِسُهُ فيهِ، فَمَا وجَدْتُهُ غَيْرَ الأعمَالِ الصَّالِحَةِ فَأخَذْتُها مَحْبُوباً لي لتَكُونَ سِراجاً لي في قَبْرِي، وتُؤَانِسَنِي ولا تَترُكَني فَرِيداً.

الفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنّي رَأيْتُ الخَلْقَ يَقْتَدُونَ بِأهْوائِهِمْ ويُبَادِرُونَ إلى مُرَادَاتِ أنْفسِهِم، فَتَأَمَّلْتُ قَوْلَهُ تَعَـالـى: ﴿وَأَمَّـا مَنْ خَافَ مَقَـامَ رَبّهِ ونَهَى النَّفْسَ عَنِ

الهَوَى فَإنَّ الجَنَّةَ هِي المَأْوَى﴾ وَتَيَقنتُ أن القُرآنَ حَقٌّ صَادِقٌ، فَبَادْرتُ إلى خِلافِ نَفْسِي وتَشَمَّرْتُ لمُجَاهَدَتِهَا وَمَنْعِهَا عن هَوَاهَا حَتَّى ارتاضتْ لِطَاعَةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وانقادَتْ.

الفَائِدَة الثَّالثَةُ: أنّي رَأيْتُ كُلَّ واحِدٍ مِن النَّاسِ يَسْعَى في جَمْعِ حُطَامِ الدُّنْيَا ثُمَّ يُمْسِكُهُ قَابِضاً يَدَهُ عَلَيْهِ، فَتَأَمَّلْتُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وما عِنْدَ الله باق﴾ فَبَذَلْتُ مَحصُولي مِن الدُّنيا لوَجْه اللهِ تَعَالَى فَفَرَّقْتُهُ بَيْنَ المَسَاكِينِ لِيَكُونَ ذُخْراً لي عِندَ الله تَعَالى.

الفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنّي رَأيْتُ بَعْضَ الخَلْقِ ظَنَّ شَرَفَهُ وَعِزَّهُ في كَثْرَةِ الأقوَامِ والعَشَائِر فَاغْتَر بِهِمْ، وزَعَمَ آخَرُونَ أنَّهُ في ثَرْوَةِ الأمْوَالِ وَكَثْرَةِ الأوْلَادِ فافْتَخَرُوا بِهَا، وَحَسِبَ بَعْضُهُمْ الشَّرَفَ والعِزَّ في غَصْبِ أمْوَالِ النَّاسِ وظُلْمِهِمْ وسفْكِ دِمَائِهِمْ، واعْتَقَدَتْ طَائِفَةٌ أنَّهُ في إتْلَافِ المَالِ وإسرافِهِ وتَبْذيرِهِ، وَتَأَمَّلْتُ في قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿إنَّ أكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أتْقَاكُمْ﴾. فاخْتَرتُ التَّقْوَى واعتقدْتُ أن القُرآنَ حَقٌّ صادِقٌ، وَظَنُّهُمْ وحِسْبَانَهمْ كُلُّهَا بَاطِلٌ زَائِلٌ.

الفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنّي رَأيْتُ النَّاسَ يَذُمُّ بَعْضُهُمْ بَعْضاً وَيَغْتَابُ بَعْضُهُم بعضاً فَوَجَدْتُ ذلكَ من الحَسَدِ في المَالِ والجَاهِ والعلْمِ، فَتَأمَّلتُ في قَولِهِ تَعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَينَهُم مَعِيشَتَهُمْ في الحَيَاة الدُّنْيَا﴾. فَعَلِمْتُ أنَّ القِسْمَةَ كانَتْ من اللَّه تعالَى في الأزلِ، فَما حَسَدْتُ أحداً ورَضِيتُ بِقِسْمَةِ الله تَعَالَى لِهِ

الفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنّي رأيْتُ النَّاسَ يُعَادِي بَعْضُهُمْ بَعْضاً لِغَرَضٍ وَسَبَبٍ، فَتَأَمَّلْتُ قَوْلَهُ تَعالى: ﴿إنَّ الشَّيطانَ لَكُمْ عَدُوٌ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾. فَعَلِمْتُ أنَّهُ لا تَجُوزُ عَدَاوَةُ أحَدٍ غَيْر الشَّيْطانِ.

الفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنّي رَأيْتُ كُلَّ أحَدٍ يَسْعَى بِجِدٍ وَيَجْتَهِدُ بِمُبَالَغَةٍ لِطَلَبِ

القوتِ والمَعَاشِ بحيثُ يَقَعُ بِهِ في شُبْهَةٍ وَحَرَامٍ، ويُذِلُّ نَفْسهُ، ويَنْقُصُ قَدْرُهُ، فَتَأَمَّلْتُ في قَوْلِهِ تَعَالَى: **﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ في الأرضِ إلاَّ عَلَى الله رِزْقُهَا﴾**. فَعَلِمْتُ أنَّ رِزقِي عَلَى اللهِ تَعَالَى وقَدْ ضَمِنَهُ، فاشْتَغَلْتُ بِعِبادَتِهِ وقَطَعْتُ طَمَعِي عَمّنْ سِوَاهُ.

الفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أني رأيتُ كُلَّ وَاحِدٍ مُعْتَمِداً على شَيْءٍ مَخْلُوقٍ: بَعْضُهُمْ إلى الدِّينارِ والدِّرْهَمِ، وَبَعْضُهُمْ إلى المَالِ والمُلْكِ، وبَعْضُهُمْ إلى الحِرفةِ والصِنَاعَةِ، وبَعْضُهُمْ إلى مَخْلُوقٍ مِثلِهِ، فَتَأَمَّلْتُ في قَوْلِهِ تَعَالَى: **﴿وَمَنْ يَتوكَّلْ عَلى الله فَهُوَ حَسْبُهُ إنَّ الله بَالِغُ أمرِهِ قَدْ جَعَلَ الله لِكُلِ شَيءٍ قَدَراً﴾**. فَتَوَكَّلْتُ عَلى الله تَعَالى فَهُوَ حَسْبِي ونِعْمَ الوَكِيلُ.

فَقالَ شَقيقٌ: وفَّقَكَ الله تَعَالَى، إني قَدْ نَظَرْتُ التَّوْرَاةَ والإنْجيلَ والزَّبُورَ والفُرْقَانَ فَوَجَدْتُ الكُتُبَ الأَرْبَعَةَ تَدُورُ عَلى هَذِهِ الفَوَائِدِ الثَّمَانِيَةِ. فَمن عَمِلَ بِهَا كانَ عَامِلاً بِهَذِهِ الكُتُبِ الأَرْبَعَةِ.

أيُّهَا الولَدُ، قَدْ عَلِمْتَ مِنْ هَاتَيْنِ الحِكَايَتَيْنِ أنَّكَ لا تَحْتَاجُ إلى تَكثيرِ العِلْمِ. والآن أُبَيّنُ لَكَ مَا يَجِبُ على سالِكِ سَبيلِ الحَقّ.

اعْلَمْ أنَّهُ يَنْبَغِي لِلسَالِكِ شَيْخٌ مُرْشِدٌ مُرَبٍّ لِيُخْرِجَ الأَخْلاقَ السَّيئَةَ منه بِتَرْبِيَتِهِ ويَجعلَ مَكَانَها خُلُقاً حَسَناً، وَمَعْنى التَّربيَةِ يُشْبِهُ فِعْلَ الفَلاّحِ الذي يَقْلَعُ الشَّوكَ ويُخْرِجُ النَّباتَاتِ الأَجْنَبيةَ مِن بَيْنَ الزَّرْعِ ليحْسُنَ نَبَاتُهُ ويَكْمُلَ رَيْعُهُ، ولا بُدَّ للسَّالِكِ من شيخٍ يُؤَدِّبُهُ ويُرشِدُهُ إلى سَبيلِ الله تَعَالَى، لأنَّ الله أرسَلَ لِلعِبَادِ رسولاً للإرشَادِ إلى سبيلِهِ. فَإِذَا ارْتَحَلَ، صَلَّى الله عَلَيْهِ وسَلَّمَ، فَقَد خَلَّفَ الخُلَفَاءَ في مَكَانِهِ حَتَّى يُرْشِدُوا إلى اللهِ تَعَالَى. وشَرْطُ الشَّيْخِ الذي يَصْلُحُ أن يَكُونَ نَائِباً لِرَسُولِ الله، صَلَوَاتُ الله وسَلامهُ عَلَيْهِ، أنْ يَكُونَ عَالِماً ولكِن لا كُلُّ عَالِمٍ يَصْلُحُ لِلخِلافَةِ. وإنّي أُبَينُ لَكَ بَعْضَ عَلامَاتِهِ على سبيل الإجمالِ حَتَّى لا

يَدَّعِي كُلُّ أحْدٍ أنَّهُ مُرْشِدٌ. فَنَقُولُ: مَنْ يُعْرِضْ عَن حُب الدّنيا وحُبِ الجَاهِ، وكانَ قَدْ تَابَعَ لِشَخْصٍ بَصِيرٍ تَتَسَلْسَلُ مُتَابَعَتُه إلى سَيِّدِ المُـرْسَلِينَ، صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان مُحْسِناً رِيَاضَةَ نَفسِه بِقِلَّةِ الأكلِ والقَوْلِ والنَّومِ، وكَثْرَةِ الصَّلَواتِ والصَّدَقَةِ والصَّومِ. وكان بِمُتَابَعَتِه ذلك الشَّيْخَ البَصيرَ جَاعِلاً مَحَاسِنَ الأخلاقِ لهُ سِيرَةً كالصَّبْرِ والصَّلاةِ والشُّكرِ والتَّوكُّلِ واليَقِينِ والقَنَاعَةِ وطُمَأْنِينَةِ النَّفْسِ والحلمِ والتَّواضُعِ والعِلْمِ والصِـدْقِ والحَيَاءِ والوَفَاءِ والوَقَارِ والسُّكُونَ والتَّأنّي وأمثالِهَا، فَهُوَ إذاً نُورٌ مِنْ أنْوَارِ النّبيِ، صَلَّى الله عَلَيهِ وسَلَّم، يَصْلُحُ لِـلاِقْتِدَاءِ بِهِ. ولكِنَّ وُجُودَ مِثْلِهِ نَادِرٌ أعَزُّ مِنَ الكِبْرِيتِ الأحمر. ومَن سَاعَدَتْهُ السَّعَادَةُ فَوَجَدَ شَيْخاً كما ذَكرنا، وقَبِلَهُ الشَّيخُ، يَنْبَغِي أن يَحْتَرِمَهُ ظَاهِراً وبَاطِناً. أما احترامُ الظَّاهِرِ فَهُوَ ألاَّ يُجَادِلَهُ ولا يَشْتَغِلَ بالاحْتِجَاجِ مَعهُ في كُلِ مَسْألةٍ، وَإن عَلِمَ خَطَأَهُ. ولا يُلْقِي بيْنَ يَدَيْهِ سجَّادَتَهُ إلاَّ وقْتَ أداءِ الصَّلاةِ فَإذَا فَرَغَ يَرْفَعُهَا. ولا يُكْثِرَ نَوَافِلَ الصَّلاةِ بِحَضْرَتِهِ. ويعْمَل ما يأْمُرُهُ الشَّيْخُ مِنَ العَمَلِ بِقَـدْرِ وسُعَهِ وطَاقَتِهِ. وأمَّا احترامُ البَاطِنِ فَهُوَ أنَّ كُلَّ ما يَسْمَعُ ويَقْبَلُ مِنهُ في الظَّاهِرِ لا يُنْكِرُهُ في الباطِنِ، لا فِعْلاً ولا قَوْلاً، لِئلَّا يَتَّسِمَ بِالنّفاقِ. وإنْ لَم يَسْتَطِعْ يترُك صُحْبَتَهُ إلى أنْ يُوَافِقَ بَاطِنُهُ ظَاهِرَهُ. ويحتَرِزُ عَنْ مُجَالَسَةِ صَاحِبِ السُّوءِ لِيَقْصُرَ ولايَةَ شَيَاطِيْنِ الجِنّ والإنْسِ عَنْ صَحْنِ قَلْبِهِ، فَيُصَفَّى مِنْ لَوْثِ الشَّيطَنَةِ، وعلى كل حَالٍ يخْتَارُ الفَقرَ على الغِنى.

ثُمَّ اعْلَمْ أنَّ التَّصوُّفَ لَهُ خَصلَتَانِ:

الاستِقَامَةُ مع الله تعالى، والسُّكونُ عن الخَلْقِ.

فَمَنْ استَقَامَ مَع الله، عَزَّ وَجَلَّ، وأحْسَنَ خُلُقهِ بِالنَّاس وعَامَلَهُمْ بِالحِلْمِ فَهُوَ صُوفيٌّ. والاستِقَامَةُ أنْ يَفْدِيَ حَظَّ نَفسِه على أمر الله تعالى. وحُسْنُ الخُلُقِ مَعَ النَّاسِ ألاَّ تَحْمِلَ النَّاسَ على مُرادِ نَفسِكَ، بَلْ تَحمِلَ نَفْسَكَ على مُرَادِهِمْ، ما لَمْ يُخالفُوا الشَّرعَ.

ثُمَّ إنَّكَ سَألْتَنِي عن العُبُودِيَّةِ وَهِيَ ثَلاثَةُ أشياءَ:

أحدُهَا مُحَافَظَةُ أمْرِ ٱلشَّرعِ.

وثَانِيهَا الرِضَاءُ بِالقَضَاءِ والقَـدرِ وقِسمَةِ الله تَعَالى.

وثَالِثُهَا تَرْكُ رِضَاءِ نَفْسِكَ في طَلَبِ رِضَاءِ الله تَعَالى.

وَسَألْتَنِي عَنْ التَّوَكُّلِ وهُوَ أنْ تَسْتَحْكِمَ اعتِقَادَكَ بالله تَعالى فِيما وَعَدَ، يَعْنِي تَعْتَقِد أنَّ ما قُدِرَ لكَ سَيَصِلُ إليك لا مَحالة، وإن اجْتَهَدَ كلُّ مَن فِي ٱلعالَمِ على صَرفِهِ عنكَ، وما لَم يُكْتَبْ لن يصل إليك وإن سَاعَدَكَ جَميعُ ٱلعَالَم.

وسألتَني عن الإخلاصِ، وهُو أن تكُونَ أعمالُك كُلُّهَا لِلّهِ تَعالى ولا يَرْتاحَ قَلبُكَ بِمحَامِدِ ٱلنَّاسِ ولا تُبَالي بمَذَمَّتِهِمْ. وٱعْلَمْ أَنَّ الرِيَّاءَ يَتَـوَلَّدُ مِن تَعْـظيمِ الخَلْقِ. وعِلاجُهُ أن تَراهم مُسخَّرِينَ تَحْتَ القُدْرَةِ وتَحْسَبُهمْ، كالجَمادَاتِ في عَدَمِ قُدْرَةِ إيصالِ الرَّاحَةِ وٱلمَشَقَّةِ لِتَخْلُصَ مِنْ مُرَاءَاتِهِمْ. ومَتَى تَحسَبْهُمْ ذَوِي قُدْرَةٍ وإرَادةٍ لَنْ يَبْعُدَ عَنْكَ الرِيَّاءُ.

أَيُّهَا ٱلْوَلَدُ، والبَاقِي مِنْ مَسَائِلكَ بَعْضُهَا مَسْطُورٌ في مُصَنَّفاتِي فَاطْلُبْهُ ثَمَّةَ، وكِتَابَةُ بَعْضِهَا حَرَامٌ. اعْمَل أَنْتَ بِما تَعْلَمُ لِيَنْكَشِفَ لَكَ مَا لَم تَعلَم.

أَيُّها الوَلَدُ، بَعْدَ ٱليَوْمِ، لا تَسْأَلْنِي ما أُشْكِلَ عَلَيْكَ إلاّ بِلِسَانِ الجنَانِ لقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ولوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ﴾. واقْبَلْ نَصِيحَةَ الخَضِرِ، عليه ٱلسَّلامُ، حِينَ قَالَ: ﴿فَلا تَسأَلْنِي عَنْ شَيءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَـكَ مِنْهُ ذكْـراً﴾ ولا تَستَعْجِلْ حَتّى تَبْلُغَ أَوانَـهُ يُكْشَفْ لَكَ وتَـرَاهُ ﴿سَأُرِيكُم آيَـاتي فلا تَستَعجلونِ﴾. فلا تَسأَلْني قَبْلَ الوَقْتِ، وَتَيَقَّن أَنَّكَ لا تَصِلُ إلاّ بِالسَّيْرِ، لِقَـوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ولَم يَسِيروُا فِي الأَرْضِ فينظُرُوا﴾.

أَيُّهَا الوَلَدُ، باللَّهِ إنْ تَسِـر تَرَ ٱلعَجَـائِبَ في كُلِّ مَنْـزِل، وَٱبْذُل رُوْحَـكَ فَإِنَّ رَأْسَ هَذَا ٱلأَمرِ بَذْلُ الرُّوحِ، كما قَالَ ذُو ٱلنُّونِ ٱلمِصْرِيُّ، رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعالَى، لِأَحَدِ

تَـلامِذَتِـهِ: «إنْ قَدَرْتَ عَلى بَـذْلِ ٱلرُّوحِ فَتَعَـالَ، وإلاَّ فـلا تَشتَغِـلْ بِتُـرَّهَـاتِ ٱلصُّوفِيَّةِ».

أَيُّهَا الوَلَدُ، إنّي أَنْصَحُكَ بِثَمَانِيَةِ أَشْيـاءَ. اقْبَلْهَا مِنّي لِئَـلاَّ يَكُونَ عِلْمُـكَ خَصْماً عَلَيْكَ يَوْمَ ٱلقِيَامَةِ. تَعْمَلُ مِنْهَا أَرْبَعَةً، وتَدَعُ مِنْهَا أَرْبَعَةً.

أَمَّا ٱللَّوَاتي تَدَعُ:

فَأَحَدُهَا: أَلاَّ تِناظِرَ أَحداً في مَسْأَلَةٍ ما ٱسْتَطَعْتَ، لأَنَّ فِيها آفاتٍ كَثيرَةً. فإثْمُهَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهَا، إذْ هِيَ مَنْبَعُ كُلِّ خُلُقٍ ذَمِيمٍ كـالرِيـاءِ والحَسَدِ وٱلكِبْـرِ والحِقْدِ وٱلعَدَاوةِ والمُباهاةِ وغَيْرِهَا. نَعم لو وقَعَ مَسْأَلَةٌ بَينَـكَ وبَيْنَ شَخْصٍ أَوْ قَومٍ، وكانَتْ إرادَتُكَ فِيهَا أَنْ يَظْهَرَ ٱلحَقُّ ولا يَضِيعَ، جَازَ ٱلبَحْثُ لَكِن لِتِلْكَ ٱلإِرَادة عَلامتانِ:

إحْدَاهما ألا تَفرِّق بَيْن أن يَنكَشِفَ الحَقُّ على لِسانِكَ أَو على لِسَانِ غَيْرِكَ.

والثَّانِيَةُ أَن يَكُونَ ٱلبَحثُ في الخَلاءِ أَحَبَّ إليكَ مِن أَن يَكُونَ في المَلإِ. واسْمَعْ إنّي أَذكُرُ لَكَ هَا هُنـا فَائِـدَةً واعْلَمْ أَنَّ السُّؤَالَ عَنِ المُشْكِلاتِ عَـرْضُ مَرَضِ ٱلقَلبِ إلى ٱلطَبيبِ، والجـوابُ لَهُ سَعْيٌ لإِصْـلاحِ مَرَضِـهِ. واعْلَمْ أنَّ الجَـاهِلِين ٱلمَـرْضَى قُلُوبُهُمْ، وٱلعُلَمـاءَ الأَطِبَّـاءُ، وٱلعـالِمَ ٱلنَّـاقِصَ لاَ يُحْسِنُ المُعَالَجة. والعَالِمَ الكَامِلَ لا يُعَالِجُ كُلَّ مَرِيضٍ، بَلْ يُعَالِجُ مَنْ يَرجُو فِيهِ قَبُولَ ٱلمُعَالَجَةِ والصَّلاَحِ، وإذَا كانَتِ العِلَّةُ مُزْمِنَةً أَو عَقِيماً لا تَقْبَلُ العِلاجَ، فَحَذَاقَةُ الطَّبِيبِ فِيهِ أَن يَقُولَ هَذا لا يَقبَلُ ٱلعِلاجَ فَلا تَشْتَغِلْ فِيه بِمُداواتِهِ لأَنَّ فِيهِ تَضييعَ ٱلعُمُرِ. ثُمَّ ٱعْلَمْ أَنَّ مَرَضَ ٱلجهلِ على أَربَعَةِ أَنواعٍ:

أَحدُها يَقَبلُ ٱلعِلاجَ وٱلباقي لا يَقبَلُ. أَما ٱلذي لا يَقبَلُ العلاج فأَحَدُها مَن كان سُؤَالُهُ واعتراضُهُ عَن حَسدِه وبُغْضِهِ، فَكلَّمَا تُجيبُهُ بِأَحسَنِ ٱلجَواب وأَفْصَحِهِ

وأوضحِه، فَلا يَزِيدُ لَهُ ذلك إلاَّ بُغْضاً وعداوةً وحسَداً. فالطَّرِيقُ أَلَّا تَشْتَغِلَ بِجَوابِهِ فَقَد قِيل:

كُلُّ ٱلعَدَاوَةِ قَدْ تُرْجَى إزالَتُهَا ... إلاَّ عَدَاوَةَ مَنْ عَادَاكَ عَنْ حَسَدِ

فَيَنْبَغي أَنْ تُعْرِضَ عَنْهُ وتَتْرُكَهُ مَعَ مَرَضِهِ. قالَ ٱللَّهَ تَعالَى ﴿**فَأَعْرِضْ عَمَّنْ تَوَلَّى عنْ ذِكرِنا ولَمْ يُرِدْ إلاَّ ٱلحَياةَ ٱلدُّنيا**﴾ وَٱلحَسُودُ بِكُلِّ ما يَقُولُ ويَفْعَلُ يُوقِدُ ٱلنَّارَ فِي زَرْعِ عَمَلِهِ. كما قَالَ النبي عليه السلام «ٱلحسَدُ يأْكُلُ ٱلحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ ٱلنَّارُ ٱلحطَبَ».

وَٱلثَّاني أَنْ تَكُونَ عِلَّتُهُ مِنَ ٱلحَمَاقةِ وهُوَ أَيْضاً لاَ يَقْبَلُ ٱلْعِلاَجَ، كَمَا قَالَ عِيسى، علَيْهِ ٱلسَّلامُ: «إنّي ما عَجَزْتُ عنْ إحْياءِ ٱلمْوْتَى وقَدْ عَجَزْتُ عَنْ معَالَجَةِ ٱلأَحْمَقِ». وَذَلِكَ رَجُلٌ يَشْتَغِلُ بِطَلَبِ الْعِلْمِ زَمَناً قَلِيلاً وَيَتَعَلَّمُ شَيْئاً مِنَ ٱلْعِلْمِ ٱلْعَقْلِي وَٱلشَّرْعِي فيَسْأَلُ وَيَعْتَرِضُ مِنْ حَمَاقَتِهِ عَلى الْعَالِمِ ٱلْكَبِيرِ ٱلَّذِي مَضَى عُمْرَهُ فِي ٱلْعُلومِ ٱلْعَقْلِيَّةِ وَٱلشَّرْعِيَّةِ، وَهٰذَا ٱلأَحمقُ لا يَعْلَمُ وَيَظُنُّ أَنَّ ما أَشْكَلَ عَلَيْهِ هُوَ أَيْضاً مُشْكِلٌ عَلَى ٱلْعَالِم ٱلْكَبِيرِ. فَإذا لَمْ يَعْلَمْ هَذَا ٱلْقَدْرَ يَكونُ سُؤَالُهُ مِنَ ٱلحَمَاقَةِ. فيَنْبَغِي أَلَّا تَشْتَغِلَ بِجَوابِهِ.

وٱلثَّالِثُ أَنْ يَكُونَ مُستَرْشِداً، وَكُلَّ ما لا يُفْهَمُ مِنْ كَلام ٱلأكابِر يُحْمَلُ عَلَى قُصُورِ فَهْمِهِ، وكَانَ سُؤَالُهُ لِلاسْتِفَادَةِ، لَكِن يَكُونُ بَلِيداً لا يُدْرِكُ ٱلحَقائِق، فَلاَ يَنْبَغِي ٱلإِشْتِغَالُ بِجَوابِهِ أَيْضاً كَمَا قَالَ رَسُولُ ٱللّهِ، صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وسَلّم: «نَحْنُ مَعَاشِر ٱلأَنْبِياء أُمِرْنا أَنْ نُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ عَلى قَدْرِ عُقُولِهِمْ».

وَأَمَّا ٱلْمَرَضُ ٱلَّذِي يَقْبَلُ ٱلْعِلاَجَ فَهُوَ أَنْ يَكُون مُسْتَرْشِداً عَاقِلاً فَهِماً، لا يَكُونُ مَغْلُوبَ ٱلحَسَدِ وَٱلْغَضَبِ وَحُبِّ ٱلشَّهْوَةِ وَٱلْجَاهِ وٱلْمَالِ. وَيَكُونُ طَالِبَ ٱلطَّرِيقِ ٱلْمُسْتَقِيم، وَلَمْ يَكُنْ سُؤَالُه وَٱعْتِراضُهُ عَنْ حَسَدٍ وَتَعَنُّتٍ وٱمْتِحَانٍ، وهذا يقبَلُ ٱلعِلاَجَ فَيجُوزُ أَنْ تشتَغلَ بِجَوابِ سُؤَالِهِ، بَلْ يَجِبُ عَلَيْكَ إجابَتُهُ.

والثّاني: مِمَّا تَدَعُ هو أن تَحْذَرَ مِن أن تَكُونَ واعِظاً ومُذكِّراً لِأنَّ فِيهِ آفاتٍ كَثِيرَةً، إلَّا أَن تَعمَلَ بِما تَقُولُ أَوَّلاً ثُمَّ تَعِظَ بِهِ ٱلنَّاسَ. فَتَفَكَّر فِيما قِيلَ لِعيسَى عَلَيْه ٱلسَّلامُ: «يا ٱبْنَ مَرْيَمَ عِظْ نَفْسَكَ فَإِنِ ٱتَّعظْتَ فَعِظِ ٱلنَّـاسَ وإلَّا فَٱسْتَحِ مِن رَبِّكَ». وإنِ ٱبْتُلِيتَ بِهَذَا ٱلعَمَلِ فَاحْترِز عَن خصلَتَيْن:

الأُولى: عَنِ ٱلتَّكلُّفِ في ٱلكلامِ بالعِبَارَاتِ وٱلإِشارَاتِ وَالطَّاماتِ وٱلأَبْيَاتِ والأَشْعَارِ، لأَنَّ ٱللَّهَ تعَالَى يُبْغِضُ ٱلمُتَكلِّفينَ، وٱلمُتكَلِّفُ ٱلمُتَجاوِزُ عَنِ ٱلحَدِّ يَدُلُّ على خَرَابِ ٱلبَاطِنِ وغَفلَةِ ٱلقَلْبِ، ومَعنى ٱلتَّذكيرِ أَن يَذكُرَ ٱلعَبْدُ نَارَ الآخِرَةِ وتَقْصِيرَ نَفسِه في خِدْمَةِ ٱلخالِقِ، ويَتَفَكَّرَ في عُمُره ٱلمَاضِي ٱلذي أَفْنَاهُ فِيما لا يُعينه، ويَتَفَكَّرَ فِيما بَيْنَ يَدَيْهِ مِن ٱلعَقَباتِ مَنْ عَدَمِ سَلامَةِ ٱلإيمانِ في الخَاتمةِ، وكَيفيَّةِ حَالِه في قَبضِ مَلَكِ المَوتِ، وهل يَقدرُ على جَوابِ منْكَرٍ ونَكِيرٍ. ويهتَمَّ بِحالِهِ في ٱلقِيامَةِ ومَواقِفِهَا، وهل يَعبُرُ عن ٱلصِّرَاطِ سَالِماً أَمْ يَقَعُ في ٱلهاوِيَةِ؟ ويَستَمِر ذِكْرُ هذهِ الأَشياءِ في قلبِه فَيُزْعِجَهُ عَن قَرارِهِ. فَغَلَيَانُ هذه ٱلنِّيرَانِ، ونَوْحَةُ هذهِ ٱلمَصائِبِ يُسَمَّى تَذكِيراً.

وإعْلامُ ٱلخَلْقِ، وإطْلاعُهُمْ على هذه الأَشياءِ، وتَنبيهُهُمْ على تَقْصِيرِهم وتفريطِهم، وتبصِيرُهم بِعُيُوبِ أَنْفُسِهِمْ لِتَمَسَّ حَرَارَةُ هذِه ٱلنِّيرانِ أَهْلَ المَجلسِ وتُجزِعَهُمْ تِلك المَصائِبُ، لِيَتَداركوا ٱلعُمُرَ ٱلماضِيَ بِقَدْرِ ٱلطَّاقَةِ ويتحسَّرُوا على الأيام الخَالِيةِ في غَيْرِ طَاعَةِ ٱللَّهِ تَعالى. وهذه الجُمْلَةُ على هذا ٱلطَّرِيق يُسمى وَعْظاً. كما لو رَأَيتَ أَنَّ ٱلسَّيْلَ قَد هَجَمَ على دَارِ أَحدٍ، وكان هُو وأهلُهُ فيها، فَتقُولُ: الحَذَرَ الحَذَر، فرُّوا من ٱلسَّيلِ، وهل يَشتَهي قَلبُكَ في هذه الحالةِ أن تُخْبرَ صَاحِبَ ٱلدَّارِ خَبَرَكَ بَتكلُّفِ العِبَارَاتِ وٱلنكَتِ والإشارَات فلا تَشْتهي ٱلبَتَّةَ، كَذلكَ حالُ ٱلواعِظَ فينَبغي أن يجتنبها.

والخصْلَةُ ٱلثَّانِيَةُ: أَلَّا تَكونَ هِمَّتُكَ في وَعْظِكَ أَن يَنعَرَ ٱلخَلْقُ في مَجْلِسِكَ

أو يُظهِروا الوَجْدَ، ويَشُقُّوا آلثِّيابَ لِيُقَالَ: نعْمَ المَجلِس هذا! لأن كُلَّه مَيْلٌ لِلدُّنيا، وهو يَتَوَلَّدُ مِن آلغَفْلَةِ. بَلْ يَنبَغي أن يَكونَ عَزْمُكَ وَهِمَّتُكَ ان تَدْعُوَ آلنَّاسَ مِن آلدُّنيا إلى الآخِرَة، وَمِنَ المعصِيَةِ إلى الطاعة، ومِنَ الحرص إلى الزهد، ومن آلبُخْلِ إلى آلسَّخاءِ، وَمِنَ الشَكِّ إلىَ اليَقِينِ، وَمِنَ آلغفلَةِ إلى اليَقْظَة، ومِن آلغُرُورِ إلى التَّقْوى، وتُحَبِّبَ إليهم آلآخِرَةَ وتُبَغِّضَ إلَيهِم آلدُّنيا، وتُعلِّمَهُمْ عِلْمَ آلعِبادَةِ وآلزُّهد، وَلَا تغرّهم بكَرَمِ اللَّهِ تَعالَى عزَّ وَجلَّ وَرَحْمَتِهِ. لأن آلغالِبَ في طَبَاعِهِم آلزَّيْغُ عن منهَجِ آلشَّرْعِ، وآلسَّعْيُ فِيما لا يَرْضى آللَّهُ تَعالى بِهِ، والاستِعْثَارُ بِالأَخلاقِ آلردِيَّةِ. فَأَلْقِ في قُلُوبِهِم آلرُّعْبَ ورَوِّعْهُمْ وحَذِّرْهم عَمَّا يَستقبِلُونَ من المَخاوِفِ، ولَعَلَّ صِفاتِ بَاطِنِهِمْ تَتَغَيَّرُ ومُعامَلَةَ ظاهِرِهِم تَتَبَدَّلُ، ويَتَظَهَّرُوا آلحِرْصَ وآلرَّغبةَ في آلطَّاعَةِ، وآلرُّجُوعِ عَنِ آلمَعصِيةِ. وهذا طَريقُ آلوَعْظِ وآلنَّصِيحَةِ، وكُلُّ وَعْظٍ لا يَكونُ هَكذا فَهُوَ وبَالٌ على مَن قالَ وسَمِعَ، بَل قِيل: إنَّهُ غُولٌ وشَيطانٌ يَذهَبُ بالخَلْقِ عن آلطَّريقِ ويُهْلِكُهُمْ، فَيَجِبُ عَليهِم أن يَفِرُّوا مِنه لأَنَّ ما يُفسدُ هذا آلقائِلُ مِن دِينِهم لا يَستَطِيعُ بِمثلِه آلشَّيطانُ. ومَن كانَت لهُ يَدٌ وقُدْرَةٌ يَجبُ عَليهِ أن يُنزِلَهُ عَن مَنابِرِ المَواعِظِ، ويَمنَعَه عَمَّا بَاشَرَ فإِنَّهُ من جُمْلَةِ آلأَمرِ بالمَعروفِ وآلنَّهيِ عَن المُنكرِ.

وَآلثَّالِثُ: مِمَّا تَدَعُ الَّا تُخَالِطَ آلأُمَرَاءَ وآلسَّلاطِينَ ولا تَرَاهُمْ، لأَنَّ رُؤْيَتَهُمْ ومُجالَستهم ومُخالطَتَهُم آفَةٌ عَظِيمَةٌ، ولو ابْتُلِيتَ بِها، دَعْ عَنْكَ مَدْحَهُمْ وثَناءَهُمْ، لأَنَّ آللَّهَ تَعَالَى يَغْضَبُ إذا مُدِحَ آلفاسِقُ وآلظَّالِمُ. ومَن دَعَا لِطُولِ بَقَائِهِم فَقَد أَحَبَّ ان يُعْصَى اللَّهُ في أرْضِهِ.

وآلرَّابعُ: مِمَّا تَدَعُ الا تَقبلَ شَيئاً مِنَ عَطاءِ الأُمَرَاءِ وهَدَايَاهُمْ، وَإنْ عَلِمْتَ انّها مِن الحَلالِ، لأَنَّ آلطَّمَعَ مِنْهُمْ يُفْسِدُ آلدِّينَ، لأَنَّهُ يَتَوَلَّدُ مِنْهُ آلمُداهَنَةُ، ومَرَاعَاةُ جَانِبِهِم والمُوافَقَةَ في ظُلْمِهِم. وهذا كُلُّهُ فَسَادٌ في آلدِّينِ، وَاقَلُّ مَضَرَّتِهِ أَنَّكَ إذا قَبِلْتَ عُطايَاهُم وانْتَفَعْتَ مِن دُنْياهُم أَحْبَبْتَهُم، ومَن أَحبَّ أَحداً يُحبُّ طُولَ عُمرِهِ

وبَقائِه بِالضَّرورَةِ، وفي مَحَبَّةِ بَقَاءِ ٱلظَّالِمِ إرادَةٌ في ٱلظُّلْمِ عَلى عِبادِ اللَّهِ تَعَالَى. وإرَادَةُ خَرَاب ٱلعَالَمِ. فَأَيُّ شَيءٍ يَكونُ أَضَرَّ مِن هذا للدِّينِ والعَاقِبَةِ؟ وَإياكَ إيَّاكَ أَن يخدَعَك ٱسْتِهْوَاءُ ٱلشَّياطِينِ، أو قَوْلُ بَعْضِ ٱلنَّاسِ لَكَ بأنَّ الأَفْضَلَ والأَوْلى أَن تَأخُذَ الدِّينارَ والدِّرهمَ مِنْهُم وتُفَرِّقَهما بَيْنَ الفُقَرَاءِ والمَساكِينِ. فَإِنَّهُمْ في ٱلفِسْقِ والمَعصِيةِ، وإنْفَاقُكَ على ضُعَفَاءِ ٱلنَّاس خَيْرٌ مِنْ إنفاقِهِمْ، فإنَّ ٱللَّعينَ قَدْ قَطَعَ أَعناقَ كَثِيرٍ مِنَ ٱلنَّاس بِهَذهِ الوَسْوَسَةِ، وقَدْ ذَكَرْنَاهُ في إحياءِ ٱلعُلُومِ فَاطْلُبْهُ ثَمَّةَ.

وأَمَا ٱلأَربَعَةُ التي يَنبغي لكَ أَن تَفعلَها:

فالأَوَّلُ: أَن تَجعلَ مُعامَلَتَكَ مَعَ ٱللَّهِ تَعالى بِحيثُ لو عَاملَ مَعَكَ بِها عَبْدُكَ تَرْضى بِهَا مِنه، ولا يَضيقُ خَاطِرُكَ عَلَيْهِ ولا تَغْضَبُ، وٱلَّذي لا تَرْضى لِنَفْسِكَ مِنْ عَبْدِكَ المَجازِيِّ فَلاَ تَرْضَى أَيْضاً لِلَّهِ تَعالى وهُو سَيِّدُكَ الحَقِيقِي.

والثَّاني: كُلَّمَا عَمِلْتَ بِالنَّاسِ اجْعَلْهُ كَمَا تَرْضى لِنَفْسكَ مِنْهُمْ لأَنَّهُ لا يَكْمُلُ إيمانُ عَبْدٍ حَتَّى يُحبَّ لسائِرِ ٱلنَّاسِ مَا يُحبُّ لِنَفسِهِ.

والثَّالِثُ: إذا قَرَأتَ ٱلْعِلْمَ أَو طَالعْتَهُ يَنبغي أَن يَكونَ عِلمُكَ يُصْلِحُ قَلْبَكَ، ويُزَكي نَفسَكَ، كَمَا لوْ عَلِمْتَ أَنَّ عُمُرَكَ مَا يَبقى غَيْرَ أُسبُوعٍ، فبالضَّرُورَةِ لا تَشتَغِلُ فِيهَا بِعِلْمِ ٱلفِقْهِ وٱلأَخلاقِ والأُصُولِ وٱلكلامِ وأَمثالِها، لأَنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّ هذه ٱلعُلُوم لا تُغنيكَ. بَل تَشتغِلُ بِمُرَاقَبَةِ ٱلقَلْبِ ومَعْرِفَة صِفاتِ ٱلنَّفسِ، وٱلإعْـرَاضِ، عَن عَلائِقِ ٱلدُّنيا، وتُزَكّي نَفْسَكَ عَن الأَخلاقِ ٱلذَّمِيمَةِ، وتَشْتَغِلُ بِمَحَبَّةِ ٱللَّهِ تعالى وعبادَتِهِ، والاتِّصافِ بِالأَوصافِ الحَسَنةِ، ولا يَمُرُّ على عَبْدٍ يَوْمٌ ولَيلَةٌ إلَّا ويُمكنُ أَنْ يَكونَ مَوتُهُ فِيهِ.

أَيُّها الوَلَدُ، اسْمَعْ مِنّي كَلاماً آخَرَ وتَفَكَّرْ فِيهِ حَتَّى تَجِدَ خَلاصاً: لَوْ أَنَّكَ أُخبِرْتَ أَنَّ ٱلسُّلْطانَ بَعد أُسْبُوعٍ يَجيئكَ زَائِراً، فأَنا اعْلَم أَنَّكَ في تِلْكَ المُدَّةِ لا تَشْتَغلُ إلاّ بإصلاحِ ما عَلِمْتَ أَنَّ نَظَرَ ٱلسُّلْطانِ سيَقَعُ عَلَيهِ من ٱلثِّيابِ وٱلبَدَنِ

وَٱلدَّارِ وَٱلفِرَاشِ وغَيرِها، والآنَ تَفكَّرْ إلى ما أَشرْتُ بِهِ فَإنّكَ فَهِمٌ، وَٱلكَلامُ ٱلفَرْدُ يَكفي ٱلكَيِّسَ، قَال رَسُولُ اللَّه، عَليهِ ٱلصَّلاةُ وَٱلسَّلامُ: «إنَّ اللَّهَ لا يَنظُرُ إلى صُوَرِكُم ولا إلى أَعْمَالِكُمْ ولكن يَنظُرُ إلى قلُوبِكُم ونِيَّاتِكُم» وإن أَرَدْتَ عِلْمَ أَحْوالِ ٱلقَلْبِ فَانْظُرْ «الإِحْياءِ» وغيرِهِ من مُصَنفاتِي. وهذا ٱلعِلْمُ فرْضُ عَيْنٍ، وغَيْرُهُ فَرْضُ كِفَايَةٍ، إلاَّ مِقْدَارَ ما يُؤَدَّى بِهِ فَرَائِضُ ٱللَّه تَعالى، وهو يُوَفِّقُكَ حَتَّى تُحَصِّلَهُ.

وَٱلرَّابعُ: أَلا تَجمَعَ مِن الدُّنيا أَكثَرَ مِن كِفايَةِ سَنَةٍ، كمَا كانَ رَسُولُ ٱللَّهِ، عَليهِ الصَّلاةُ وَٱلسَّلاَمُ، يُعِدُّ ذَلِكَ لِبَعْضِ حُجُرَاتِهِ وقال: «ٱللَّهُمَّ ٱجَعَلْ قُوتَ آلِ مُحمَّدٍ كَفَافاً». ولَم يَكُنْ يُعدُّ لَها أكثرَ مِنْ قُوتِ يَوْمٍ أو نِصْفٍ.

أيها الوَلَدُ، إنّي كَتَبتُ في هذا ٱلفَصْلِ مُلْتَمَساتِكَ فَيَنبَغي لَكَ أن تَعمَلَ بِهَا ولا تنسني فِيه مِن أن تَذكُرَني في صَالِحِ دُعَائِكَ. وأمَّا الدُّعاءُ الَّذي سَأَلْتَ مِنّي فَاطْلُبْهُ مِن دَعَواتِ ٱلصِّحاحِ، وَٱقْرَأْ هذا ٱلدُّعاءَ في جَميعِ أوقاتِكَ خُصوصاً أعْقاب صَلَوَاتِكَ:

«ٱللَّهُمَّ إني أَسْأَلُكَ مِن ٱلنِّعمَةِ تَمامَها، ومِنَ ٱلعِصْمَةِ دَوَامَهَا، ومِن الرَّحْمَةِ شُمُولَها، ومِن ٱلعَافِيَةِ حُصُولَها، ومِنَ ٱلعَيشِ أرغَدَهُ، ومِن ٱلعُمُرِ اسعَدَهُ، ومِن الإِحسانِ أَتَمَّهُ، ومِن الإِنعام أعمَّهُ، ومِن الفَضْلِ أَعْذَبَهُ، ومِن ٱللُّطْفِ أَقْرَبَهُ.

ٱللَّهُمَّ كُنْ لنا ولا تَكنْ عَلَينا.

ٱللَّهُمَّ ٱخْتِمْ بِالسَّعادَةِ آجالَنَا. وحَقِّقْ بِالزِّيَادَةِ آمَالَنَا، وَٱقْرِن بِالعَافِيَةِ غُدُوَّنَا وآصَالَنَا، وَٱجْعَل إلى رَحْمَتِكَ مَصِيرَنَا ومَآلَنا، وَٱصْبُبْ سِجَالَ عَفْوِكَ عَلى ذنوبنا، ومُنَّ عَلَيْنا بإصْلاحِ عُيُوبِنا، وَٱجْعَل ٱلتَّقوَى زَادَنَا، وفي دينِكَ اجْتِهادَنَا، وعَليكَ تَوَكُّلَنَا واعتِمَادَنا. ٱللَّهُمَّ ثبتنا على نَهْجِ ٱلاستِقَامَة، وأَعِذْنَا في ٱلدُّنْيا من مُوجِبَاتِ ٱلنَّدَامَة يَوْمَ ٱلقِيامَةِ، وخفِّف عَنَّا ثِقلَ الأَوْزَارِ، وَٱرْزُقْنَا عِيشَةَ الأَبْرَارِ، وَٱكْفِنَا

وَاصْرِفْ عَنَّا شَرَّ الأَشرَارِ، وَٱعْتِقْ رِقَابَنَا ورِقَابَ آبائِنا وأُمَّهاتِنا وإِخْوَانِنا وأَخوَاتِنا مِن ٱلنَّارِ، بِرَحْمَتِكَ يَا عَزِيزُ يَا غَفَّارُ، يَا كَرِيمُ يَا سَتَّارُ، يَا عَلِيمُ يَا جَبَّارُ، يَا اللَّهُ يا اللَّهُ يا اللَّهُ، بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ ٱلرَّاحِمينَ، ويا أَوَّلَ ٱلأَولينَ، ويَا آخرَ الآخِرِينَ، ويا ذَا ٱلقُوَّةِ ٱلمَتِينِ، ويا رَاحِمَ المَسَاكِينَ، ويا أَرْحَمَ ٱلرَّاحِمِينَ، لا إِلٰهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنّي كُنْتُ مِن الظَّالِمِينَ. وصَلَّى ٱللَّهُ على سَيِّدِنَا مُحمَّدٍ وآلِهِ وصَحْبِهِ أَجْمعِينَ، وٱلحَمدُ للَّهِ رَبِّ ٱلعَالَمين».

القسم الرابع

رسالة الأدب في الدين(*)

أبو حامد الغزالي

(*) مجموع الرسائل، القاهرة، مطبعة كردستان العلمية ١٣٢٨ راجع: نشرة دار الشروق.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله الذي خلقنا، وأدَّبنا فأحسن أَدَبنا، وشرفنا بنبيِّه محمد ﷺ، فأحسن تشريفنا. ثم أقول، وبالله التوفيق:

إن أكمل الأخلاق وأعلاها، وأحسن الأفعال وأبهاها، هو الأدب في الدين، وما يقتدي به المؤمن من فعل رب العالمين، وأخلاق النبيين والمرسلين. وقد أدَّبنا الله تعالى في القرآن بما أرانا فيه من البيان، وأدبنا بنبيِّه محمد ﷺ في السنَّة بما أوجب علينا فله المنة، وكذلك الصحابة علينا من الاقتداء بهم. وذلك جليل خطره، كثير عدده؛ نذكر بعضه، لئلا يطول شرحه فيعسر فهمه.

١ ـ أَدَبُ المؤمِنِ بِين يَدَي الله تعالى

إطراقُ الطرف، وجمع الهم، ودوام الصمت، وسكون الجوارح، ومبادرة امتثال الأوامر، واجتناب المناهي، وقلة الأعتراض، وحسن الخلق، ودوام الذكر، وتنزيه الفكر، وتقييد الجوارح، وسكون القلب، وتعظيم الرب وقلة الغضب، وكتمان الحب، ودوام الإخلاص، وترك النظر إلى الأشخاص وإيثار الحق، والإياس من جميع الخلق، وإخلاص العمل، وصدق القول، وتنزيه الاطلاع، وإحياء القرب، وقلة الإشارة، وكتمان الفائدة والغيرة على تبديل الاسم، والغضب عند انتهاك المحارم، ودوام الهيبة، واستشعار الحياء، واستعمال الخوف، والسكون ثقة بالضمان، والتوكل معرفة بحسن الاختيار، وإسباغ الوضوء على المكاره، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، وارتعاش القلب خوف فوت الفرض، ودوام التوبة خوف الإصرار، ودوام التصديق بما غاب، ووجل القلب عند الذكر، وزيادة الأنوار عند الوعظ، واستشعار التوكل عند الفاقة، وإخراج الصدقةِ من غير بخل مع الإمكان.

٢ ـ آدابُ العالم

لزوم العلم، والعمل بالعلم، ودوام الوقار، ومنع التكبير، وترك الدعاءِ به، والرفق بالمتعلم والتأني بالمتعجرف وإصلاح المسألة للبليد، وترك الآنفة من قول: لا أدري، وتكون همته عند السؤال خلاصة من السائل لإخلاص السائل، وترك التكلف، واستماع الحجة والقبول لها وإن كانت من الخصم.

٣ ـ آدابُ المتعلم مع العالم

يبدؤه بالسلام، ويقل بين يديه الكلام، ويقوم له إذا قام. ولا يقول له: قال فلان خلاف ما قلت، ولا يسأل جليسه في مجلسه، ولا يبتسم عند مخاطبته، ولا يشير عليه بخلاف رأيه، ولا يأخذ بثوبه إذا قام، ولا يستفهمه عن مسألة في طريقه حتى يبلغ إلى منزله، ولا يكثر عليه عند مَلَله.

٤ ـ آداب المقرىء

يجلس جلسة الخشية، واستماع الأمر، وإنْصات الفهم وانتظار الرحمة، والإصغاء إلى المتشابه، وإشارة الوقف وتعريف الابتداء، وبيان الهمزة، وتعليم العدد، وتجويد الحرف، وفائدة الخاتم، والرفق بالبادي والسؤال عن المتعلم إذا غاب والحث له إذا حضر، وتَرْك الحديث، ويبدأ بالمتلقن يلقنه ما يصلي به لنفسه، أو احتاج إلى أن يؤم غيره.

٥ ـ آداب القارىء

يجلس بين يديه جلسة التواضع. وجمع الفهم، وخفض الرأس والإستئذان قبل القراءة، ثم الاستعاذة والتسمية، والدعاء عند الفراغ.

٦ ـ آداب معلّم الصبيان

يبدأ بصلاح نفسه؛ فإنَّ أعْينهم إليه ناظرة، وآذانهم إليه مصغية، فما

استحسنه فهو عندهم الحسن وما استقبحه فهو عندهم القبيح، ويلزم الصمت في جلسته، والشزر في نظره، ويكون معظم تأديبه بالرهبة، ولا يكثر الضرب والتعذيب، ولا يحادثهم فيجترئوا عليه، ولا يدعهم يتحدثون فينبسطون بين يديه، ولا يمازح بين أيديهم أحداً، ويتنزه عما يعطونه ويتورع عما بين يديه يطرحونه، يمنعهم من التحريش، ويكفهم من التفتيش، ويقبح عندهم الغيبة، ويوحش عندهم الكذب والنميمة، ولا يسألهم عن أمر ينوبهم فيثقلوه، ولا يكثر الطلب من أهلهم فيملوه. ويعلمهم الطهارة والصلاة، ويعرفهم بما يلحقهم من النجاسة.

٧ ـ آداب المحدّث

يقصد الصدق، ويجتنب الكذب، ويحدث بالمشهور، ويروي عن الثقات، ويترك المناكير ولا يذكر ما جرى بين السلف ويعرف الزمان، ويتحفظ من الزلل والتصحيف، واللّحن والتحريف ويدع المداعبة، ويقل المشاغبة، ويشكر النعمة، إذ جعل في درجة الرسول ﷺ، ويلزم التواضع، ويكون معظم ما يحدث به ما ينتفع المسلمون به من فرائضهم وسننهم، وآدابهم في معاني كتاب ربهم عز وجل، ولا يحمل علمه إلى الوزراء ولا يغشى أبواب الأمراء، فإن ذلك يزري بالعلماء، ويذهب بهاء علمهم إذا حملوه إلى ملوكهم ومياسيرهم، ولا يحدث بما لا يعلمه في أصله، ولا يقرأ عليه ما لا يراه في كتابه، ولا يتحدث إذا قرىء عليه، ويحذر أن يدخل حديثاً في حديث.

٨ ـ آداب طالب الحديث

يكتب المشهور ولا يكتب الغريب، ولا يكتب المناكير ويكتب عن الثقات، ولا يغلبه شهرة الحديث على قرينه، ولا يشغله طلبه عن مروءته وصلاته، يجتنب الغيبة، وينصت للسماع، ويلزم الصمت بين يدي محدثه، ويكثر التلفت عند إصلاح نسخته: ولا يقول: سمعت، وهو ما سمع، ولا ينشره لطلب العلو فيكتب من غير ثقة، ويلزم أهل المعرفة بالحديث من أهل الدين، ولا يكتب عمن لا يعرف الحديث من الصالحين.

٩ ـ آدابُ الكاتب

حسن الخط، وجودة البَرْي، وإعرابُ اللفظ، ومعرفة الحساب، وسداد الرأي، وحسن اللباس، وطيب الرائحة، والمعرفة بأخبار المتقدمين من الوزراء المتصرفين، والتخوف من المصادرات، والعلم بأمر الخراج، والمسامحة والخبرة في السدادات، وترك الانخرام والتنزه عن الحرام، واستعمال المروءة وحسن العِشرة والتحفظ عن الذِّلة، وترك الرفث في المجالس، ونفي المداعبة والمحادثة والمداراة للحاشية.

١٠ ـ آدابُ الواعظ

ترك التكبر، ودوام الحياء من سيده وإظهار الفاقة إلى خالقه، وشهوة المنفعة لمستمعه، والازدراء على نفسه لمعرفة عيبه، والنظر إلى المستمعين إليه بعين السلامة، وحسن الظن بهم بباطن الديانة، والإياس منهم طلباً للصيانة، والرفق بالتأديب، والعطف على المبتدي واعتقاد فعل ما يقول، لينتفع الناس بما يقُول.

١١ ـ آداب المستمع

إظهار الخشوع، ودوام الخضوع، وسلامة الصدر وحسن الظن، واعتقاد القول، ودوام السكوت، وقلة التقلب، وجمع الهم، وترك التهمة.

١٢ ـ آداب الناسك

يكون وقته معلوماً، ووِرده مفهوماً، وكلامه مقسوماً، ودمعه مسجوماً، دائما خشوعه، لازماً خضوعه، غاضاً لطرفه، عافاً لقلبه، مفكراً في دينه مراقباً لوقته، مداوماً لصومه، ساهراً في ليله، متورعاً في مسكنه، متقللاً في مطعمه ومشربه، متوقعاً لنزول أجله، مجانباً لقرنائه، تاركاً لشهواته، محافظاً على صلواته، عالماً بزيادة حاله ونقصانه، لا يحتاج إلى علم غيره، مع علمه بحاله.

١٣ ـ آداب اعتزال الناس

يكون فقيهاً في دينه، عارفاً بأمر صلاته، وصيامه وزكاته وحجّه، ويشهد الجنائز، ويعود المرضى، ولا يخوض في حديثهم ولا يسأل عما يفسد قلبه من أخبارهم، ولا يطمع نفسه في نائلهم، حتى لا يكون له حاجة إلى جيرانه، تكون أوقاته ثلاثة: إما أن يصلي ويدرس فيغنم، أو ينظر في كتبه فيتعلم، أو ينام فيسلم، يدمن الذكر، ويكثر الشكر في خلوته حتى يرى ميزان عزلته.

١٤ ـ آداب الصوفي

قلة الإشارة، وترك الشطح في العبارة، والتمسك بعلم الشريعة، ودَوام الكد واستعمال الجد والاستيحاش من الناس، وترك الشهرة في اللباس، وإظهار التجمل، واستشعار التوكل، واختيار الفقر، ودوام الذكر، وكتمان المحبة، وحسن العشرة في الصحبة، والغض عن المردان وترك مؤاخاة النسوان، ودوام درس القرآن.

١٥ ـ آداب الشريف

يصون شرفه، ولا يأكل بنسبه، ولا يتعدى بحسبه، همته التواضع لربه، والخوف من سيده، ويأخذ بالفضل لأهل العلم وإن كان مثلهم في العلم أو أعلم، يلازم أهل الدين من أهل الفقه والقرآن، ويهذب أخلاقه، ويتحفظ في ألفاظه عند غضبه وخطابه، يكرم جلساءه ويواصل إخوانه، ويصون أقاربه، ويعين جيرانه، ويزين بنفسه أخدانه.

١٦ ـ آداب النوم

يتطهّر قبل النوم، وينامُ على يمينه، ويذكر الله عز وجل حتى يأخذه النوم، ويدعو إذا استيقظ، ويحمد الله تعالى.

١٧ ـ آداب التهجّد

تقليل الغذاء، ونقصان الماء، وإصلاح النهار باجتناب الغيبة والكذب واللغو، وترك النظر في المحرمات، والقيام من النوم بفزع وخوف، وإسباغ الوضوء، والنظر في ملكوت السموات، والدعاء والحضور في الصلاة لفهم التلاوة.

١٨ ـ آداب الخلاء

التسمية ثم الاستعاذة قبل الدخول، وكشف الثوب برفق بعد قربه من الأرض، ومسح اليد بالتراب بعد الاستنجاء مع الغسل، والاستتار قبل الخروج، والحمد والشكر بعد الخروج.

١٩ ـ آداب الحمام

ستر العورة، وغض البصر عن العورات، وطلب الخلوة، وترك التكلم، وقلة التلفت، ومنع السلام، وقلة الجلوس، وغسل الجنابة من قبل الدخول، وغسل القدمين إذا خرج الماء البارد فإنه يذهب الصداع.

٢٠ ـ آداب الوضوء

السواك ودوام الذكر مع الغسل، واستشعار الهيبة ممن يقصد والتوبة مما كان، والسكوت بعد الطهارة حتى يدخل في الصلاة، والطهارة في إثر الطهارة، وأخذ الشارب، ونتف الإبط، وحلق العانة، وتقليم الأظافر والاختتان، وغسل البراجم، وتعاهد الأنف، ونظافة الثوب والبدن.

٢١ ـ آداب دخول المسجد

يبدأ باليمنى، ويزيل ما في نعله من الأذى، ويذكر اسم الله عز وجل، ويسلم على من حضر، فإن كان خالياً سلم على نفسه، ويسأل الله تعالى أن

يفتح له أبواب رحمته، ويجلس في مواجهة القبلة، ويلزم المراقبة، ويقل المخاطبة، ويترك الملاعنة، ولا يرفع فيه صوته ولا يشهر فيه سيفه، ويمسك بنصال نبله، ولا يصنع صنعة، ولا ينشد ضالة، ولا يبايع ولا يشاري ولا يمانع، فإذا انصرف بدأ باليسرى، وسأل الله تعالى من فضله ما يعطي.

٢٢ ـ آداب الاعتكاف

دوام الذكر، وجمع الهم، وترك الحديث، ولزوم الموضع، وترك التنقلات، وحبس النفس عن مرادها، ومنعها من محابها، وجبرها على طاعة الله عز وجل.

٢٣ ـ آداب الأذان

يكون المؤذن عارفاً بوقته في الصيف وفي الشتاء، غاضاً لطرفه عند صعوده المنارة، ويلتفت في أذانه عند النداء بالصلاة والفلاح، ويرتّل الأذان. وينحدر في الإقامة.

٢٤ ـ آداب الإمام

يكون عارفاً بالصلاة وفرائضها وسننها، فقيهاً بما يحدُث له في صلاته وما يفسدها. لا يؤم قوماً وهم له كارهون، يجعل من يليه من أهل العلم، ويأمرهم بتسوية الصفوف، ويشير إليهم بلطف، لا يقرأ بطوال السور فيضجروا، ولا يطيل التسبيح فيملوا، ولا يخفف بحيث يفوت الكمال، بل يرتب الصلاة على قدر قوة ضعفهم، ويترفق في ركوعه وسجوده حتى يطمئنوا. ويسكت سكتة قبل الحمد، وبعد الحمد وإذا فرغ من السورة، وينتظر في ركوعه من أحسن به ما لم يجحف بمن وراءه. وينتظر قبل الصلاة من فقد من جيرانه ما لم يخف فوت وقته، ويفرق بين التسليمتيْن بوقفة خفيفة، وإذا فرغ نظر إلى ستر الله ومنته، وازداد شكراً لسيده، وأدام له في كل حالاته الذكر.

٢٥ ـ آداب الصلاة

خفض الجناح، ولزوم الخشوع، وإظهار التذلل وحضور القلب، ونفي الوساوس، وترك التقلب ظاهراً وباطناً، وهدو الجوارح، وإطراق الطرف، ووضع اليمين على الشمال، والتفكر في التلاوة، والتكبير بالهيبة، والركوع بالخضوع، والسجود بالخشوع، والتسبيح بالتعظيم، والتشهد بالمشاهدة، والتسليم بالإشفاق، والانصراف بالخوف، والسعي بطلب الرضاء.

٢٦ ـ آداب القراءة

مداومة الوقار والحياء، ومجانبة العبث والخناء، ولزوم التواضع والبكاء.

٢٧ ـ آداب الدعاء

خضوع القلب، وجمع الهم، وإظهار الذل، وحسن النظر، وخفض الجناح، وسؤال الفاقة، ولجأ الغريق، ومعرفته بقدر نفسه، وعظيم حرمة المسؤول، وبسط الكف عند الرغبة، واليقين بالإجابة والخوف من الخيبة، وانتظار الفرج، وترك العدوان، وصحة القصد واللجوء، ومسح الوجه بباطن الكف بعد الدعاء.

٢٨ ـ آداب الجمعة

التأهب للوقت قبل دخوله، والطهارة عند حضوره والبكور، وغسل الجسد ونظافة الثوب، وطيب الرائحة، وترك التخطي، وقلة الكلام، ودوام الذكر، والقرب من الإمام، والإنصات للخطيب، والانتشار لطلب العلم والمشي بالسكينة والوقار، وترك تشبيك الأصابع، وتقارب الخطى ودوام الإطراق، وكثرة الشكر للرازق، ودخول المسجد بالخشوع، ورد السلام، وترك الصلاة بعد جلوس الخطيب على المنبر، ورد السلام عليه بعد إشارته وترك الكلام، واعتقاد القبول للموعظة، وترك الالتفات عند إقباله، ومخاطبته، وترك القيام إلى الصلاة حتى ينزل من المنبر ويفرغ المؤذن من الإقامة.

٢٩ ـ آداب الخطيب

يأتي المسجد وعليه السكينة والوقار، ويبدأ بالتحية ويجلس وعليه الهيبة. ويمتنع عن التخاطب وينتظر الوقت، ثم يخطو إلى المنبر وعليه الوقار، كأنه يجب أن يعرض ما يقول على الجبار. ثم يصعد بالخشوع، ويقف على المرقاة بالخشوع. ويرتقي بالذكر، ويلتفت إلى مستمعه باجتماع الفكر، ثم يشير إليهم بالسلام ليستمعوا منه الكلام، ثم يجلس للأذان فزعاً من الديّان. ثم يخطب بالتواضع، ولا يشير بالأصابع، ويعتقد ما يقوله لينتفع به. ثم يشير إليهم بالدعاء، وينزل إذا أخذ المؤذن في الإقامة، ولا يكبر حتى يسكتوا، ثم يفتتح الصلاة، ويرتل ما يقرأ.

٣٠ ـ آداب العيد

إحياء ليلته، والاغتسال في صبيحة يومه، ونظافة البدن، وطيب الرائحة، وإدامة التكبير، وكثرة الذكر، واستعمال الخشوع، والتسبيح والحمد بين تضاعيف التكبير، والإنصات للخطبة بعد الصلاة، وأكل اليسير قبل الخروج إن كان فطراً، والذهاب في طريق والرجوع في أخرى، والانصراف بالإشفاق خوف الغيبة.

٣١ ـ آداب الخسوف

دوام الفزع، وإظهار الجزع، ومبادرة التوبة، وترك الملل، وسرعة القيام إلى الصلاة، وطول القيام فيها، واستشعار الحذر.

٣٢ ـ آدابُ الاستسقاء

الصيام قبله، وتقديم التوبة، ورد المظالم، وبذل الهمة، وترك المفاخرة، والاغتسال قبل الخروج، ودوام الصمت ورؤية الحال التي أوجبت المنع، والاعتراف بالذنب الذي نزلت به العقوبة، واعتقاد ترك العود، والإنصات

للخطبة، والتسبيح بين التكبير، وكثرة الاستغفار، وتحويل الإزار مع الدعاء.

٣٣ ـ آدابُ المريض

الإكثار من ذكر الموت، والاستعداد له بالتوبة، ودوام الحمد والثناء لله واستعمال التضرع والدعاء، وإظهار العجز والفاقة، والتداوي مع الاستعانة بخالق الدواء، وإظهار الشكر عند القوة، وقلة الشكوى، وإكرام الجلساء، وترك المصافحة.

٣٤ ـ آدابُ المعزّي

خفض الجناح، وإظهار الحزن، وقلة الحديث، وترك التبسم فإنه يورث الحقد.

٣٥ ـ آداب المشي في الجنازة

دوام الخشوع، وغض البصر، وترك الحديث، وملاحظة الميت بالاعتبار، والتفكر فيما يجيب به من السؤال، والعزم على المبادرة فيما يخاف به من المطالبة، وخوف حسرة الموت عند هجوم الموت.

٣٦ ـ آداب المتصدق

ينبغي له أداؤها قبل المساءلة، وإخفاء الصدقة عند العطاء، وكتمانها بعد العطاء، والرفق بالسائل ولا يبدؤه برد الجواب، ويرد عليه في الوسوسة، ويمنع نفسه البخل، ويعطيه ما سأل أو يرده رداً جميلاً، فإن عارضه العدو إبليس لعنه الله أن السائل ليس يستحق، فلا يرجع بما أنعم الله به عليه، بل هو مستحق لها.

٣٧ ـ آداب السائل

يبدي الفاقة بصدق الحقيقة، ويظهر السؤال بلطافة القول، ويأخذ ما أعطي

بمقابلة الشكر وإن قل، وحسن الدعاء، فإن رد عليه رجع بجميل قبول العذر، وترك المعاودة والإلحاح.

٣٨ ـ آداب الغني

لزوم التواضع، ونفي التكبر، ودوام الشكر، والتوصل إلى أعمال البر، والبشاشة بالفقير والإقبال عليه، ورد السلام على كل أحد وإظهار الكفاية، ولطافة الكلمة، وطيب المؤانسة، والمساعدة على الخيرات.

٣٩ ـ آداب الفقير

لزوم القناعة، وكتمان الفاقة، وترك البذالة والتضعضع، وإلقاء الطمع، وإيثار الصيانة، وإظهار الكفاية لأهل المروءة من أهل الديانة، وإجلال الأغنياء مع قلة الاستبشار لهم، وإظهار الكفاية لهم مع الإياس منهم، وترك الكبر عليهم، مع نفي التذلل، وحفظ القلب عند رؤيتهم، والتمسك بالدين عند مشاهدتهم.

٤٠ ـ آداب المهدي

رؤية الفضل للمهدى إليه، وإظهار السرور بالقبول منه لها، والشكر عند رؤية المهدى إليه، والاستغلال لها وإن كثرت.

٤١ ـ آداب المُهدَى إليه

إظهار السرور بها وإن قلت، والدعاء لصاحبها إذا غاب، والبشاشة إذا حضر، والمكافأة إذا قدر، والثناء عليه إذا أمكن، وترك الخضوع له، والتحفظ من ذهاب الدين معه ونفي الطمع معه ثانياً.

٤٢ ـ آداب اصطناع المعروف

البداءة به قبل السؤال، والمبادرة به عند الوعد، والتوفير له عند العطاء،

والستر له بعد الأخذ، وترك المنّة بعد القبول، والمداومة على اصطناعه، والحذر من انقطاعه.

٤٣ ـ آداب الصيام

طيب الغذاء، وترك المراء، ومجانبة الغيبة، ورفض الكذب، وترك الأذى، وصون الجوارح عن القبائح.

٤٤ ـ آدابُ الحجّ

أدب الطريق، طيب النفقة، والإحسان إلى المكاري، ومعاونة الرفقة والرفق بالمنقطع، وبذل الزاد وحسن الخلق، وطيب الكلمة، والمزاح من غير معصية، واختيار التعديل، والاستبشار به عند رؤيته والإصغاء عند محادثته، وقلة المماراة له عند ضجره، والتغافل عن زلته، والشكر له عند خدمته، والتوصل إلى إيثاره ومساعدته.

٤٥ ـ آداب الإحرام

غسل الجسد، ونظافة الإزارين، وطيب الرائحة، وتعاهد الجياع، والتلبية بالهيبة، ورفع الصوت بحلاوة الإجابة، والطواف بتعظيم الحرمة، والسعي بطلب الرضاء، والوقوف بمشاهد القيامة، وشهود المشعر برؤية الرحمة، والحلق برؤية العتق، والذبح برؤية الكفّارة، والرمي برؤية الطاعة، وطواف الزيارة بمشاهدة المرور وهو من غير حد، والرد بحقيقة الأسف، والانصراف بمحبة الرجوع.

٤٦ ـ آداب دخول مكة والمدينة

يدخلها بالوقار مع السكينة، والمشاهدة لما كان فيها من الشريعة، والنظر إليها بالعين الرفيعة، ثم يأتي مسجد الرسول ﷺ ومنبره كأنه مشاهد لصلاته وخطبته، ثم يأتي قبره وكأنه ناظر إلى شخصه الكريم، ومخاطبته مع خفض الصوت بحضرته، كأنه معاين لجلسته، فيبدؤه بالسلام، ثم يسلم على ضجيعيه،

ويشاهد محبتهما له، ومشيته بينهما وإقباله عليهما، ويعاين هيبتهما له وإقبالهما عليه، وإذا ودع القبر فلا يوليه الظهر.

٤٧ ـ آداب التاجر

لا يجلس في طريق المسلمين، فيضيق عليهم، ويستعمل غلاماً كيساً لا يبخس في كيله، ولا ينقص في وزنه، يأمره بالرجحان، وترك العجلة في الميزان، يكون ميزان دراهمه في حدته كالطيار، ومن اعتداله كالمعيار، طويلة خيوطه، دقيقة ذوائبه، معبرة صنجاته، معتدلة حباته، يبتدىء كل يوم بمسح ميزانه ويتعاهد نقص أرطاله وصنجاته، يأمر غلامه بالتوقف في كيلة الأدهان، وإذا وقف عليه شريف أكرمه، أو جار فضله، أو ضعيف رحمه، أو غير هؤلاء أنصفه، يبيع على قدر أسعاره، إن نقص سعره زاد زبونه، كما إنه إن زاد سعره نقص زبونه.

وتكون همته في جلوسه درس القرآن، وغض الطرف عن المحارم والغلمان، يشتري عرضه باليسير من سفيه يقف عليه، لا يرد السائل، ولا يمنع البشر من النائل.

فإن كان هو المتولي لأمره كان ما يلزم غلامه هو أولى به، ويشتري الأرطال والصنجات والمكيال من الثقات معيرات، ويترك المدح للسلعة عند البيع، والذم لها عند الشراء، ويلزم الصدق عند الإخبار، ويحذر الفحش عند المزايدة، والكذب عند المحادثة، ويقل الخوض مع أهل الأسواق، ومداعبة الأحداث ويقصر في الخصومات.

٤٨ ـ آداب الصيرفي

يعتقد الصحة، ويؤدي الأمانة، ويحذر الرياء، ويقرب النسيئة، ولا ينفق الرديئة، ويوفي الوزن، ولا يعتقد الغش والغبن، متفقداً لمعياره، خائفاً من نقصان صنجاته ومثاقيله.

٤٩ ـ آداب الصائغ

استعمال النصيحة، والاجتهاد في الجودة، وقلة المطل ووفاء الوعد، وترك التعدي في الأجرة.

٥٠ ـ آداب الأكل

غسل اليدين قبل الطعام وبعده، والتسمية، والأكل باليمين ومما يليه: ويصغر اللقمة، وإجادة المضغ، وقلة النظر إلى وجوه الحاضرين، ولا يأكل متكئاً، ولا يأكل فوق الشبع وفوق الجوع، ويعتذر إذا شبع حتى لا يخجل الضيف أو من به حاجة، ويأكل من جوانب القصعة ولا يأكل من ذروتها ويلعق الأصابع بعد الفراغ، ويحمد الله، ولا يذكر الموت عند الأكل لئلا ينغص على الحاضرين.

٥١ ـ آداب الشُرْب

ينظر في إنائه قبل شربه، ويسمي الله تعالى قبله، ويحمده بعده، ويمصه مصاً، ولا يعبه عباً، ويتنفس في شربه ثلاثاً، يتبعه بالتحميد، ويرد بالتسمية، ولا يشرب قائماً، ويناول مَن كان على يمينه إن كان معه غيره.

٥٢ ـ آداب الرجل إذا أراد النكاح

يطلب الدين، ثم بعده الجمال والمال إن أراده، ولا يشارط على ما يأتيه، ولا يضمره، ولا يخطب على خطبة أخيه، ولا يأذن في أملاكه وعرسه بما يباعده من ربه ويزريه، ولا يجلس في خلواته حيث يرى غيره حرمته، ولا يقبلها بين أهله وأهلها، ويبدؤها إذا خلا في سؤاله، ولا يكون سفيره كذاباً، ولا المخبر له نماماً بل من خاصتها، ويسأل عن دينها هو ومواظبتها على صلاتها، ومراعاتها لصيامها وعن حيائها ونظافتها، وحسن ألفاظها وقبحها، ولزوم قعر بيتها، وبرها بوالديها، ويتلطف قبل العقد في النظر إليها، وبعده بما يبلغها بالكلام الجميل.

ويبحث عن خصال والدها ودينه، وحال والدتها ودينها وأعمالها.

٥٣ ـ آداب المرأة إذا خطبها الرجل

تأمر من تأمن به من أهلها إن كان صدوقاً أن يسأل عن مذهب الخاطب ودينه واعتقاده ومروءته في نفسه، وصدقه في وعده وتنظر مَنْ أقرباؤه، ومن يغشاه في بيته، وعن مواظبته على صلواته وجماعته ونصيحتـه في تجارتـه وصنعته، ويكون رغبتها في دينه دون ماله، أو في سيرته دون شهوتـه، تعزم معـه على القناعة وتكون لأوامره مطيعة، فهو آكد للألفة، وأثبت للمودة.

٥٤ ـ آداب الجماع

طيب الرائحة، ولطافة الكلمة، وإظهار المودة، وتقبيل الشهـوة، والتزام المحبة. ثم التسمية. وترك النظر إلى الفرج، فإنه يورث العمى، والستر تحت الإزار، وترك استقبال القبلة.

٥٥ ـ آداب الرجل مع الزوجة

حسن العشـرة، ولطافـة الكلمة، وإظهـار المـودة، والبسط في الخلوة، والتغافل عن الزلة، وإقامة العثرة، وصيانة عرضها وقلة مجادلتهـا، وبذل المؤونـة بلا بخل لها وإكرام أهلها، ودوام الوعد الجميل، وشدة الغيرة عليها.

٥٦ ـ آداب المرأة مع زوجها

دوام الحياء منه، وقلة المماراة له، ولزوم الطاعة لأمره، والسكـون عند كلامه، والحفظ له في غيبته، وترك الخيانة في ماله، وطيب الرائحـة، وتعهد الفم ونظافة الثوب، وإظهار القناعة، واستعمال الشفقة، ودوام الزينة، وإكرام أهله وقرابته، ورؤية حاله بالفضل، وقبول فعله بالشكر، وإظهار الحب له عند القرب منه. وإظهار السرور عند الرؤية له.

٥٧ ـ آداب الرجل مع نفسه

لزوم الجمعة والجماعة، ونظافة الملبس، وإدامة السواك، ولا يلبس المشهور، ولا المحقور، ولا يطيل ثيابه تكبراً، ولا يقصرها تمسكناً، ولا يكثر التلفت في مشيته، ولا ينظر إلى غير حرمته. ولا يبصق في حال محادثته، ولا يكثر القعود على باب داره مع جيرانه، ولا يكثر لإخوانه الحديث عن زوجته وما في بيته.

٥٨ ـ آداب المرأة في نفسها

لازمة لمنزلها، قاعدة في قعر بيتها. لا تكثر صعودها ولا اطلاعها الكلام لجيرانها، ولا تدخل عليهم إلا في حال يوجب الدخول، تسر بعلها في نظره، وتحفظه في غيبته، ولا تخرج من بيتها وإن خرجت فمختبئة، تطلب المواضع الخالية، مصونة في حاجاتها، بل تتناكر ممن يعرفها.

همتها إصلاح نفسها، وتدبير بيتها، مقبلة على صلاتها وصومها، ناظرة في عيبها، متفكرة في دينها، دائمة في صمتها، غاضة طرفها، مراقبة لربها، كثيرة الذكر له، طائعة لبعلها، تحثه على طلبه الحلال، ولا تطلب منه الكثير من النوال، ظاهرة الحياء، قليلة الخناء، صبور شكور مؤثرة في نفسها، مواسية من حالها وقوتها.

وإذا استأذن بابها صديق لبعلها، وليس بعلها حاضراً، لم تستفهمه، ولا في الكلام تعاوده، غيرة منها على نفسها وبعلها منه.

٥٩ ـ آداب الاستئذان

المشي بجانب الجدار، ولا يقابل الباب، والتسبيح والتحميد، قبل الدق، والسلام بعده، وترك السمع إلى من في المنزل، واستئذان بعد السلام، فإن أُذِنَ له، وإلا رجع ولم يقف، ولا يقول: أنا بل يقول: فلان اذا استفهم.

٦٠ ـ آداب الجلوس على الطريق

غض البصر، ونصر المظلوم، وإغاثة الملهوف، وإعانة الضعيف وإرشاد الضال، ورد السلام، وإعطاء السائل، وترك التلفت والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالرفق واللطف، فإن أصر فبالرهبة والعنف، ولا يصغي إلى الساعي إلا ببينة، ولا يتجسس، ولا يظن بالناس إلا خيراً.

٦١ ـ آداب المعاشرة

إذا دخل مجلساً أو جماعة سلم وجلس حيث امتنع وترك التخطي، وخص بالسلام من قرب منه إذا جلس وإن بلي بمجالسة العامة ترك الخوض معهم، ولا يصغي إلى أراجيفهم، ويتغافل عما يجري من سوء ألفاظهم، ويقل اللقاء لهم إلا عند الحاجة.

ولا يستصغر أحداً من الناس فيهلك، ولا يدري لعله خير منه، وأطوع لله منه. ولا ينظر إليهم بعين التعظيم في دنياهم، لأن الدنيا صغيرة عند الله، صغير ما فيها. ولا يعظم قدر الدنيا في نفسه، فيعظم أهلها لأجلها، فيسقط من عين الله. ولا يبذل لهم دينه، لينال من دنياهم، فيصغر في أعينهم ولا يعاديهم، فتظهر له العداوة، ولا يطيق ذلك ولا يصبر عليه إلا أن تكون معاداة في الله عز وجل، فيعادي أفعالهم القبيحة، وينظر إليهم بعين الشفقة والرحمة، ولا يستكثر إليهم في مودتهم له، وإكرامهم إياه، وحسن بشاشتهم في وجهه، وثنائهم عليه فإنه من طلب حقيقة ذلك لم يجده إلا في الأقل، وإن سكن إليهم وكله الحق إليهم فهلك، ولا يطمع أن يكونوا له في الغيب كما هم له في العلانية، فإنه لا يجد ذلك أبداً، ولا يطمع فيما في أيديهم فيذل لهم، ويذهب دينه معهم، ولا يتكبر عليهم، وإذا سأل أحداً منهم حاجة فقضاها فهو أخ مستفاد، وإن لم يقضها فلا يذمه، فيكتسب عداوته، ولا يعظ أحداً إلا أن يرى فيه أثر القبول، وإلا عاداه ولم يسمع منه.

وإذا رأى منهم خيراً أو كرامة أو ثناء فليرجع بذلك إلى الله عز وجل،

ويحمده ويسأله أنه لا يكله إليهم.

وإذا رأى منهم شراً أو كلاماً قبيحاً أو غيبة أو شيئاً يكرهه، فليكل الأمر إلى الله تعالى، ويستعيذ به من شرهم، ويستعينه عليهم، ولا يعاتبهم، فإنه لا يجد عندهم للعتاب موضعاً، ويصيرون له أعداء، ولا يشفي غيظه، بل يتوب إلى الله تعالى من الذنب الذي به سلطهم عليهم ويستغفر الله منه، وليكن سميعاً لحقهم أصم عن باطلهم.

٦٢ ـ آداب الولد مع والديه

يسمع كلامهما، ويقوم لقيامهما، ويمتثل لأمرهما، ويلبي دعوتهما، ويخفض لهما جناح الذل من الرحمة ولا يبرمهما بالإلحاح، ولا يمن عليهما بالبر لهما، ولا بالقيام بأمرهما ولا ينظر إليهم شزراً، ولا يعصِ لهما أمراً.

٦٣ ـ آداب الوالد مع أولاده

يعينهم على بره، ولا يكلفهم من البر فوق طاقتهم، ولا يلح عليهم في وقت ضجرهم ولا يمنعهم من طاعة ربهم، ولا يمن عليهم بتربيتهم.

٦٤ ـ آداب الإخوان

الاستبشار بهم عند اللقاء، والابتداء بالسلام، والمؤانسة والتوسعة عند الجلوس. والتشييع عند القيام، والإنصات عند الكلام وتكره المجادلة في المقال، وحسن القول للحكايات، وترك الجواب، عند انقضاء الخطاب، والنداء بأحب الأسماء.

٦٥ ـ آداب الجار

ابتداؤه بالسلام، ولا يطيل معه الكلام، ولا يكثر عليه السؤال، ويعوده في مرضه، ويعزيه في مصيبته، ويهنيه في فرحه، ويتلطف لولده وعبده في الكلام

ويصفح عن زلته، ومعاتبته برفق عند هفوته، ويغض عن حرمته، ويعينه عند صرخته، ولا يديم النظر إلى خادمته.

٦٦ ـ آداب السيد مع عبده

لا يكلفه ما لا يطيق من خدمته، ويرفق به عند ضجره، ولا يكثر ضربه، ولا يديم سبه، فيجرأ عليه، ويصفح عن زلته، ويقبل معذرته، وإذا أصلح له طعاماً أجلسه معه على مائدته، أو أعطاه لقماً من طعامه.

٦٧ ـ آداب العبد مع سيده

يأتمر لأمره، وينصحه في غيبته، ويبذل له خدمته ويحفظه في حرمته، ويرق على ولده، ولا يخونه في ماله.

٦٨ ـ آداب السلطان مع الرعية

استعمال الرفق، وترك التعنيف، والفكر قبل الأمر، وترك التكبر على الخاصة مع منع العدوان منهم، والتودد إلى العامة مع مزج الرهبة لهم والتطلع على أمور الحاشية، واستعمال المروءة مع أهل العلم والتوسعة عليهم وعلى الأصحاب والأقارب، والرفق في الجناية ودوام الحماية.

٦٩ ـ آداب الرعية مع السلطان

قلة الغشيان لبابه، وترك الاستعانة به إلا لشيء يلزم أمره، ودوام الهيبة له وإن كان ذا رفق، وترك الاستجراء عليه وإن كان ذا لين، وقلة السؤال وإن كان مجيباً، والدعاء له إذا ظهر هو ترك الكلام فيه والإنشاد إذا غاب.

٧٠ ـ آداب القاضي

إدمان السكوت، واستعمال الوقار، وهدو الجوارح، ومنع الحاشية من الفساد والطغيان، والرفق بالأرامل، والاحتياط لليتيم، والتوقف في الجواب،

والرفق بالخصوم، ومنع الميل إلى أحد الخصمين، والموعظة للمخالف، ودوام اللجوء إلى الله في صواب القضاء

٧١ ـ آداب الشاهد

استشعار الأمانة، وترك الخيانة، والتثبت في الشهادة والتحفظ من النسيان، وقلة المجادلة للسلطان.

٧٢ ـ آداب الجهاد

صدق النية والغيرة لله تعالى، وبذل المجهود، والسخاء بالمهجة، ونفي الرجوع والقصد في أن تكون كلمة الله هي العليا، وترك الغلول، وقضاء دينه قبل الخروج، واستصحاب ذكر الله عند القتال وفي كل حال.

٧٣ ـ آداب الأسير

لا يؤمل فرجاً من غير الله تعالى، ولا يذل نفسه في معصية الله تعالى، ولا ييأس من روح الله تعالى، ويجمع همه بين يدي الله تعالى، ويعلم أنه بعين الله، ولا ينبسط في مال العدو بما لا يبيحه الله، ولا يفزع إلى غير الله تعالى.

٧٤ ـ آداب جامعة

قال بعض الحكماء:

من الأدب إلْقَ صديقَكَ وعدوكَ بوجهِ الرضاء من غير ذِلّة لهم، ولا هيبة منهم، وتوقر من غير كبر. وكُنْ من جميع أمورك في أوساطها. ولا تنظر في عطفيك، ولا تكثر الالتفات، ولا تقِفْ على الجماعات. وإذا جلست فترفع، وتحذر من تشبيك أصابعك. والعبث بخاتمك، وتخليل أسنانك، وإدخال يدك في أنفك وطرد الذباب عن وجهك، وكثرة التمطي والتثاؤب.

وليكُنْ مجلسك هادئاً، وكلامك مقسوماً، واصغ إلى الكلام الحسن ممن

يحدثك، بغير إظهار عجب منك ولا مسكنة ولا إعادة، وغض عن المضاحك والحكايات، ولا تحدث عن إعجابك بولدك ولا جاريتك. . ولا تتصنّع كما تتصّنع المرأة، ولا تتبذّل كما يتبذّل العبد. .

وكُنْ معتدلاً في جميع أمورك، تَوَقَّ كثرة الكحل، والإسراف في الدهن. . ولا تلحّ في الحكايات.

ولا تعلم أهلك وولدك فضلاً عن غيرهم عن مالك، فإنهم إن رأوه قليلاً، هنت عليهم، وإن رأوه كثيراً لم تبلغ إلى رضاهم، وأجبهم من غير عنف، ولِن لهم من غير ضعف.

وإذا خاصمت فتوقر، وتفكر في حجتك، ولا تكثر الإشارة بيدك، ولا تجث على ركبتيك، وإذا هدأ غضبك فتكلم.

وإن بليت بصحبة السلطان فكن منه على حذر، ولا تأمن من انقلابه عليك، وارفق به رفقك بالصبي، وكلمه بما يشاء، وإياك أن تدخل بينه وبين أهله وولده وحشمه ولو كان مستمعاً لذلك.

وإياك وصديق العافية، فإنه أحد الأعداء لك. ولا تجعل مالك أكرم عليك من عرضك.

وإياك وكثرة البصاق بين الناس. فإن صاحبه ينسب إلى التأنيث. ولا تظهر لصديقك كل ما يؤذيك فإنه متى رأى منك وقعة أعقبك العداوة.

ولا تمازح لبيباً فيحقد عليك، ولا سفيهاً فيجترىء عليك، لأن المزاح يخرق الهيبة، ويسقط المنزلة، ويذهب ماء الوجه ويعقب الحزن، ويزيل حلاوة الود، ويشين فقه الفقيه، ويُجرىء السفيه، ويميت القلب، ويباعد من الرب، ويعقب الذم، ويفسخ العزم، ويظلم السرائر، ويميت الخواطر، ويكثر الذنوب، ويبيّن العيوب. .

نسأل الله تعالى أن يهدينا فيمن هدى، ويعافينا فيمن عافى، ويتولانا فيمن تولى، ويبارك لنا فيما أعطى ويقينا شر ما قضى، فإنه لا رادّ لما قضى، ولا يعزّ

من عادى، ولا يُذِلّ من والى..

تبـاركَ ربنا وتعـالى. نستغفره، ونتـوب إليه، ونسـأله أن يصلي بـأفضل الصلوات كلها على عبده المصطفى، وعلى آله وأصحابه أعلام الهدى؛ وسَلَّمَ تَسليماً كثيراً.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد الأمّي... آمين.

ببليوغرافيا

تراجم ومراجع عامة في الفكر العربي الإسلامي

ـ ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٩٧٠.

ـ ابن أبي أصيبعة، **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، بيروت، تحقيق نزار رضا، دار مكتبة الحياة، ١٩٦٥.

ـ ابن جلجل، **طبقات الأطباء والحكماء**، تحقيق فؤاد السعيد، القاهرة، ١٩٦٥.

ـ ابن خلدون، **المقدمة**، بيروت، دار الكتاب اللبناني ١٩٧٩.

ـ ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، تحقيق إحسان عباس، عشرة أجزاء، بيروت.

ـ ابن قتيبة، **عيون الأخبار**، جـ ٥، القاهرة، المؤسسة المصرية ١٩٦٣.

ـ ابن رشد، **بداية المجتهد ونهاية المقتصد** جـ ١، مصر، مكتبة الكيان الأزهرية، ١٩٦٦.

ـ ابن النديم، **الفهرست**، بيروت، مكتبة خياط.

ـ أمين (أحمد. . . .)، **ضحى الإسلام**، مصر، لجنة التأليف والترجمة.

ـ أمين (أحمد. . . .)، **فجر الإسلام**، ط ١٠، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٩٦٩.

ـ البلاذري، فتوح البلدان، المطبعة المصرية ١٩٣٢.

- البستاني (بطرس. . . . .)، **أدباء العرب في الجاهلية وصدر الإسلام**، ط ٧، بيروت، دار صادر، ١٩٥٧.
- بروكلمان، **تاريخ الأدب العربي**.
- بروكلمان (كارل. . . . .)، **تاريخ الشعوب الإسلامية**، تحقيق منير بعلبكي، بيروت، دار العلم للملايين ١٩٥٦.
- البهي (محمد. . . . .) **الفكر الإسلامي والعلم المعاصر**، بيروت، دار الكتاب اللبناني ١٩٧٥.
- بدوي (عبد الرحمن. . . . .)، **الإنسان الكامل في الإسلام**، ط ٢، الكويت، وكالة المطبوعات ١٩٧٦.
- الجندي (أنور. . . . .)، **الفكر الإسلامي**، جـ ١، القاهرة، ١٩٧٩.
- الجندي (أنور. . . . .)، **الإسلام والعالم المعاصر**، دار الكتاب اللبناني، ط ٢، ١٩٨٠.
- حاجي خليفة، **كشف الظنون**.
- حاجي خليفة، **مفتاح السعادة ومصباح السيادة**، حيدر أباد، الدكن، جزءان.
- الحموي (ياقوت. . . . .)، **معجم البلدان**، بيروت، دار صادر، ١٩٥٧.
- دمشقية (عفيف. . . . .)، **إنسانية الإسلام**، مترجم، بيروت، دار الآداب، ١٩٨٠.
- الزركلي (خير الدين. . . . .)، **الاعلام**، جـ ٤، ط ٢، القاهرة، مطبعة كوستاكوماس ١٩٥٩.
- الرافعي (مصطفى. . . . .) **حضارة العرب في العصور الإسلامية الزاهرة**، بيروت، دار الكتاب اللبناني ١٩٧٨.
- الرافعي (مصطفى. . . . .)، **الإسلام ومشكلات العصر**، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ط ١، ١٩٧٢.

ـ زيعور (علي . . . . .)، **محاضرات في الفكر الاجتماعي**، بيروت، ١٩٧٧ .

ـ زيدان (جرجي . . . . .)، **تاريخ التمدن الإسلامي**.

ـ الزين (سميح عاطف . . . . .)، **الثقافة والثقافة الإسلامية**، بيروت دار الكتاب اللبناني ١٩٧٩ .

ـ السيوطي، **طبقات الحضارة**.

ـ الشهرستاني، **الملل والنحل**، جـ ١، ٣، بيروت، دار المعرفة للطباعة والنشر، ١٩٨٠ .

ـ الشيرازي (أبي اسحق . . . . .)، **طبقات الفقهاء**، تحقيق احسان عباس، بيروت دار الرائد العربي، ١٩٧٠ .

ـ شمس الدين (عبد الأمير . . . . .)، **الفكر التربوي العربي الإسلامي**، أطروحة دكتوراه، ١٩٨٠ .

ـ صليبا (جميل . . . . .)، **تاريخ الفلسفة العربية**، ط ٢، ١٩٧٣ .

ـ ضيف (شوقي . . . . .)، **تاريخ الأدب العربي**، جـ ١، جـ ٤، القاهرة دار المعارف، ١٩٧٩ .

ـ العقاد (عباس محمود . . . . .)، **الإنسان في القرآن**، بيروت دار الكتاب العربي، ١٩٦٩ .

ـ غالب (مصطفى . . . . .)، **في رحاب اخوان الصفا وخلان الوفا**، بيروت منشورات حمد، ١٩٦٩ .

ـ الغزالي (أبوحامد . . . . .)، **إحياء علوم الدين**، ٤ أجزاء بيروت، دار المعرفة .

ـ الفيرزوبادي **القاموس المحيط**، مصر، ١٩٥٤ .

ـ لواساني (أحمد . . . . .)، **نظرات جديدة في تاريخ الأدب**، بيروت، ١٩٧١ .

ـ كرد علي (محمد . . . . .)، رسائل البلغاء، ط ٤، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة، ١٩٥٤ .

ـ كرد علي (محمد. . . . .)، أمراء البيان، ط ٣، بيروت دار الكتب، ١٩٦٩!.

ـ المسعودي (علي بن الحسين. . . .)، مروج الذهب، القاهرة، ١٩٣١.

ـ محمود (عبد الحليم. . . . .)، التفكير الفلسفي في الإسلام، دار الكتاب اللبناني، ط ١، ١٩٧٤.

ـ النشار (علي سامي. . . . .)، مقدمة في مناهج البحث عند مفكري الإسلام.

ـ مراجع خاصة بالتربية العربية الإسلامية (رسائل محققة):

ـ ابن الجزار القيرواني (القرن الرابع الهجري) سياسة الصبيان وتدبيرهم، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، الدار التونسية للنشر.

ـ ابن جماعة، تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، بيروت، دار الكتب العلمية د. ت (تصوير لطبعة حيدر أباد الدكن، ١٣٥٣). أعاد التحقيق د. عبد الأمير شمس الدين ـ بيروت دار اقرأ ١٩٨٣ م.

ـ ابن سحنون (محمد. . . .) آداب المعلمين نشرة الأهواني، في التربية في الإسلام ص ٣٥٣ ـ ٣٦٨ نشرة حسن حسني عبد الوهاب، تونس ١٣٤٨/ ١٩٣١.

ـ ابن سينا (أبو علي الحسين. . . . .) رسالة في السياسة، طبعة الأب لويس شيخو بيروت ١٩١١، وطبعات أخرى منها تحقيق المؤلف، الفلسفة العلمية عند ابن سينا بيروت، دار الكتاب اللبناني، ١٩٨١ م.

ـ ابن طفيل، حي بن يقظان، نشرة سعد، بيروت، دار الآفاق، ١٩٧٤.

ـ ابن عبد البر النمري القرطبي، جامع بيان العلم وفضله ما ينبغي من روايته وحمله، المدينة المنورة د. ت جزءان. دار الكتب العلمية بيروت.

ـ ابن عرجون (أحمد. . . .) مقنع المحتاج في آداب الزواج. في مجلة العربي (الكويت، آب ١٩٧٩ م.) ص. ١٠٨ ـ ١١٢.

ـ العاملي (زين الدين بن أحمد. . . .) منية المريد وآداب المفيد والمستفيد ـ

تحقيق الدكتور عبد الأمير شمس الدين بيروت دار الكتاب اللبناني ١٩٨٢ م.

ـ ابن المقفع، **الأدب الصغير والأدب الكبير رسالة الصحابة**، تحقيق يوسف أبو حلقة بيروت مكتبة البيان، ط ٢، ١٩٦٠ م.

ـ **الأدب الوجيز للولد الصغير**، تحقيق وتغريب محمد غفراني الخراساني، القاهرة، عالم الكتب، ١٣٤١ هـ. ش.

ـ ابن يحيى (عبد الحميد.....) في: **محمد كرد علي، رسائل البلغاء**، القاهرة مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ٣٧، ١٩٤٦ م.

ـ **اخوان الصفاء رسائل اخوان الصفاء**، ٤ ج، تحقيق خير الدين الزركلي، القاهرة ١٩٢٧ م.

ـ الجاحظ، **البيان والتبيين**، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة، مطبعة الخانجي ط ٣ ط ٢، ١٩٦٠. أيضاً بيروت دار الفكر للمجتمع ١٩٦٨ م.

ـ الزرنوجي، **تعليم المتعلم طريق التعلم**، استانبول ١٢٩٢/ ١٨٧٥ ـ القاهرة، دار احياء الكتب العربية أعاد التحقيق د. عبد الأمير شمس الدين بيروت دار اقرأ ١٩٨٣ م.

ـ السبكي (عبد الوهاب.....) **معيد النعم ومبيد النقم**، تحقيق محمد علي النجار وأبو زيد الشلبي ومحمد أبو العيون، القاهرة، دار الكتاب العربي، ط ١، ١٩٤٨ م.

ـ السمعاني، (عبد الكريم.....) **أدب الإملاء والاستملاء** تحقيق ماكس ليدن، إبريل ١٩٥٢ م. دار الكتب العلمية ـ بيروت د.ت.

ـ الطوسي (نصير الدين.....) **كتاب آداب المعلمين**، تحقيق يحيى الخشاب في: مجلة معهد المخطوطات العربية. القاهرة ج ٣، ج ٢ (١٩٥٧) ص ٢٦٧ ـ ٢٨٤ أعاد التحقيق الدكتور عبد الأمير شمس الدين دار اقرأ ١٩٨٣ م.

ـ العلموي (عبد الباسط بن موسى بن محمد العلموي) **أدب المفيد والمستفيد**، نشرة أحمد عبيد دمشق، المكتبة العربية ١٣٤٩/ ١٩٣٠ م.

ـ الغزالي (أبو حامد. . . . .) أيها الولد، بيروت اللجنة الدولية لترجمة الروائع الإنسانية ١٩٥١ م. ميزان العمل تحقيق سليمان دنيا ـ القاهرة دار المعارف ١٩٦٤ م.

ـ الفارابي، كتاب آراء أهل المدينة الفاضلة، تحقيق البير نادر، بيروت المطبعة الكاثوليكية ١٩٥٩ م.

ـ رسالة في السياسة، نشرة الأب لويس شيخو، في: مجلة المشرق، السنة الرابعة ١٩٠١.

ـ القابسي (أبو الحسن علي بن محمد بن خلف المعروف بالقابسي) الرسالة المفصلة لأحوال المعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين. نشرة: أحمد فؤاد الأهواني في: التربية في الإسلام ص. ٢٦٨ ـ ٣٤٩. القاهرة، دار المعارف ١٩٦٨ م.

ـ الكندي (يعقوب بن اسحاق. . . . .)، رسائل الكندي الفلسفية، تحقيق محمد عبد الهادي أبو ريدة جزءان القاهرة ١٩٥٠ م.

ـ مسكويه (أحمد بن محمد بن يعقوب. . . . .) تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، مقدمة حسن تميم، بيروت، دار مكتبة الحياة ط ٢، ١٣٩٨/ ١٩٧٨.

مراجع حديثة درست التربية الإسلامية:

ـ الإبراشي (محمد عطية. . . . .) التربية الإسلامية وفلاسفتها، القاهرة دار عيسى البابي الحلبي، ط ٢، ١٩٦٩ م.

ـ أبيض (ملكة. . . . .) التربية والثقافة الدينية الإسلامية خلال القرون الثلاثة الأولى في بلاد الشام والجزيرة العربية، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٨١ م.

ـ الأديب (على محمد الحسين. . . . .) منهج التربية عند الإمام، النجف، المطبعة الحيدرية، ١٩٦٧ م.

- أحمد (سعد مرسي.....) وزميله، **تاريخ التربية والتعليم**، القاهرة، عالم الكتب، ١٩٧٤ م.

- أمين (مصطفى.....) **تاريخ التربية**، القاهرة، مطبعة المعارف، ١٩٢٥ م.

- أيوب (حسن.....) **السلوك الاجتماعي في الإسلام**، الكويت دار البحوث، ١٩٧٩ م.

- الأهواني (أحمد فؤاد.....) **التربية في الإسلام**، القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٨ م.

- سلطان (محمود السيد.....) **مفاهيم تربوية في الإسلام**، الكويت، مؤسسة الوحدة، ١٩٦٧ م.

- سليمان (فتحية حسن.....) **مذاهب في التربية - بحث في المذهب التربوي عند الغزالي**. القاهرة، مكتبة نهضة مصر ط ٢، ١٩٦٤ م.

- شمس الدين (عبد الأمير.....) **موسوعته عن الفكر التربوي العربي الإسلامي**، صدر منها، ابن خلدون، زين الدين العاملي، ابن جماعة، ابن طفيل، التربية عند الأدابيين، التربية عند الفقهاء قبل الغزالي بيروت - دار اقرأ.

- شلبي (أحمد.....) **تاريخ التربية الإسلامية**، بيروت دار الكشاف، ١٩٤٥ م.

- الشيباني (عمر محمد التومي.....)، **من أسس التربية الإسلامية**، ليبيا، منشورات المنشأة الشعبية للنشر والتوزيع والإعلان. ط ١، ١٩٧٩ م.

- شهلا (محمد.....)، **منهج التربية الإسلامية**، دمشق، دار دمشق ط ٢، د. ت.

- طوطح (خليل.....) **التربية عند العرب**، القدس، المطبعة التجارية، د. ت..

- طلس (أسعد.....) **التربية والتعليم في الإسلام**، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٥٧ م.
- طيباوي (عبد اللطيف.....) **محاضرات في تاريخ العرب والإسلام**، بيروت، ط ٢، دار الأندلس، ١٩٧٩ م.
- عاقل (فاخر.....) **التربية قديمها وحديثها**، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٧٤ م.
- علي (سعيد اسماعيل.......) **قضايا التعليم في عهد الاحتلال**، القاهرة عالم الكتب، ١٩٧٤ م.
- موسى (أحمد سعيد.....) **تطور الفكر التربوي**، عالم الكتب، ط ٣، ١٩٧٥ م.
- أيضاً **تاريخ التربية والتغليم**، القاهرة عالم الكتب ١٩٧٤ م.
- عبد الدايم (عبد الله.....) **التربية عبر التاريخ من العصور القديمة حتى أوائل القرن العشرين**، بيروت دار العلم للملايين ١٩٧٣ م.
- عبد الدايم (عبد الله.....) **الثورة التكنولوجية في التربية والتعليم**، بيروت دار العلم للملايين، ١٩٧٨ م.
- عبود (عبد الغني.....) **في التربية الإسلامية**، ط ١، دار الفكر العربي، ١٩٧٧ م.
- العنان (محمد.....) **التربية في البلاد العربية**، على ضوء مؤتمر مراكش (١٩٧٠) بيروت المركز الإقليمي لتخطيط التربية، ١٩٧١ م.
- فرحان (اسحق أحمد.....) **التربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة**، عمان دار الفرقان ١٩٨٢ م.
- فياض (عبد الله.....) **تاريخ التربية عند الامامية وأسلافهم في الشيعة بين عهدي الصادق والطوسي**، بغداد مطبعة أسعد ١٩٧٣ م.
- قنديل (أمين مرسي.....) **أصول التربية وفن التدريس**، القاهرة ١٩٣٧ م.

ـ ناصر (محمد. . . . .) **قراءات في الفكر التربوي**، ج ٣، الكويت، وكالة المطبوعات ط ٢ ، ١٩٧٧ م.

ـ سليمان (فتحية حسن. . . . .) **مذاهب في التربية ـ بحث في المذهب** التربوي عند ابن خلدون، القاهرة، مكتبة النهضة ١٩٥٧ م.

ـ مذاهب في التربية ـ **بحث في المذهب التربوي عند الغزالي**، القاهرة، مكتبة النهضة.

ـ الندوى (أبو الحسن علي الحسن. . . . .) **نحو التربية الإسلامية الحرة في الحكومات والبلاد الإسلامية**، بيروت دار الإرشاد، ١٩٦٩ م.

ـ ناصر (محمد. . . . .) **في الفكر التربوي العربي الإسلامي**، القاهرة، وكالة المطبوعات ١٩٧٧ م.

مراجع في التربية العامة: كتب عربية ومترجمة.

ـ اشفيسر (البرت. . . . .) **فلسفة الحضارة**، ترجمه عن الألمانية الدكتور عبد الرحمن بدوي، بيروت، دار الأندلس، ١٩٨٠ م.

ـ أوبير (رونيه. . . . .) **الجامع في التربية العامة**، ترجمة عبد الله عبد الدائم، دمشق، مطبعة الجامعة السورية، ١٩٦١ م.

ـ بالماد (غي. . . . .) **مناهج التربية**، ترجمة جوزف عبود كبة، بيروت منشورات عويدات، ١٩٧٠ م.

ـ بارنس (ن. . . . . .) **ديمقراطية التعلم وسيكولوجية التربية**، ترجمة زهير السعداوي، بيروت دار ابن خلدون، ١٩٨٢ م.

ـ الجندي (أنور. . . . .) **التربية وبناء الأجيال**، بيروت دار الكتاب اللبناني ١٩٧٥ م.

ـ الخوري (أنطوان م. . . . .) **اعلام التربية**، حياتهم وآثارهم، بيروت دار الكتاب اللبناني والكتاب المصري، ١٩٦٤ م.

ـ الدمرداش (نوري. . . . . .) **المناهج المعاصرة**، ط ٢ الكويت، مكتبة الفلاح، ١٩٧٩ م.

ـ ديوي (جون. . . . .) **المدرسة والمجتمع**، ترجمة أحمد حسن عبد الرحيم، بيروت دار مكتبة الحياة، ط ٢ ، ١٩٧٨ م.

ـ رسل (برتراند. . . . .) **التربية والنظام الاجتماعي**، ترجمة سمير عبده، بيروت، دار الحياة ط ٢ ، ١٩٧٨ م.

ـ أيضاً، **في التربية**، ترجمة سمير عبده، دار مكتبة الحياة، ١٩٦٤ م.

ـ ريبول (أوليفيه. . . . .) **فلسفة التربية**، ترجمة جهاد نعمان، بيروت منشورات عويدات، ط ٢ ، ١٩٧٨ م.

ـ الشوبكي (علي. . . . .) **المدرسة والتربية وادارة الصفوف**، بيروت دار مكتبة الحياة، ١٩٧٧ م.

ـ صليبا (جميل. . . . .) **مستقبل التربية في العالم العربي**، بيروت، منشورات عويدات، ط ٢ ، ١٩٦٧ م.

ـ عبد الدايم (عبد الله. . . . .) **التربية القومية**، بيروت دار الأدب، ١٩٦٠ م.

ـ أيضاً، **التخطيط التربوي**، بيروت، دار العلم للملايين، ط ٢ ، ١٩٧٢ م.

ـ أيضاً، **المدخل إلى التربية التجريبية**، دمشق، مطبعة الجامعة السورية. ط ٢ ، ١٩٥٧ م.

ـ حسين (عبد الله. . . . .) **التعليم العربي والجامعي**، القاهرة مطبعة التوفيق ١٩٤٥ م.

ـ عبد المجيد (عبد العزيز. . . . . .) **في طرق التدريس، القصة في التربية** . . . . . . القاهرة دار المعارف ط ٢ ، ١٩٧٣ م.

ـ عبد العزيز (صالح. . . . . .) **التربية وطرق التدريس**، ٣ أجزاء، القاهرة، دار المعارف طبعة ١٢ ، ١٩٧٦ م.

- عطية (نعيم.......) **التقييم التربوي الهادف** بيروت، دار الكتاب اللبناني ط ١، ١٩٧٠ م.

- غالب (حنا.....) **مواد وطرائق التعليم في التربية والمتجددة**، بيروت دار الكتاب اللبناني، ط ٢، ١٩٧٠ م.

- الغريب (رمزية.....) **التعلّم**، ط ٤، القاهرة مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧١ م.

- فايد (عبد الحميد.....) **رائد التربية العامة**، بيروت دار الكتاب اللبناني، ط ٢، ١٩٧٠.

- النفيس (أحمد علي.....) وزيدان (محمد مصطفى.....) **التوجيه الفني التربوي ليبيا**، منشورات الشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلانات، ١٩٧٩ م.

- مديسي (أنجيلا.....) **التربية الحديثة**، ترجمة علي شاهين، بيروت منشورات عويدات، ط ٢، ١٩٧٧ م.

- ميالاريه (غاستون.....) **مدخل إلى التربية**، ترجمة نسيم نصر، منشورات عويدات، ١٩٧٤ م.

- النجيحي (محمد لبيب.....) **في الفكر التربوي**، القاهرة مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٠ م.

- ياسين (محمد حسين آل......) **المبادىء الأساسية في طرق التدريس العامة**، منشورات مكتبة النهضة في بغداد، وبيروت ودار القلم، ١٩٧٤ م.

ـ مراجع في علم النفس وعلم النفس التربوي:

- رزوق (أسعد.....) **موسوعة علم النفس**، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٧ م.

- روكلن (موريس.....) **تاريخ علم النفس**، ترجمة علي زيعور، بيروت دار

الأندلس، ط ٣، ١٩٧٨ م. (فصلا علم النفس التربوي وعلم نفس الولد).

ـ زيعـور (علي. . . . .) **مذاهب علم النفس**، بيـروت دار الأنـدلس، ط ٢، ١٩٧٧ م.

ـ الشيخ (سليمان الخضري. . . . .) **الفروق الفردية في الذكاء**، القاهرة، دار الثقافة، ١٩٧٩ م.

ـ صالح (أحمد زكي. . . . .) **علم النفس**، القاهرة، مكتبة النهضة، ط ١٠، ١٩٧٢ م.

ـ عاقل (فاخر. . . . .) **مدارس علم النفس**، بيروت، دار العلم للمـلايين، ط ٣، ١٩٧٧ م.

ـ عبد الموجود (محمد عزت) وزملاؤه، **أساسيات المنهج وتنظيماته**، القاهرة، دار الثقافة للطباعة والنشر، ١٩٧٩ م.

ـ الغريب (رمزية. . . . .) **التعلّم**، ط ٢، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصـرية، ١٩٧١ م.

ـ القـوصي (عبد العـزيز. . . . .) **أسس الصحـة النفسيـة**، القـاهـرة، مكتبة النهضة، ط ٣، ١٩٥٢ م.

سادساً: مجلات ودوريات:

ـ **الأبحاث التربوية**، إصدار كلية التربية في الجامعة اللبنانية، ١٩٧٥ م. وما بعد.

ـ **التربية الجديدة**، مكتب اليونسكو للتربية في البلاد العربية، توزيع المكتبة الشرقية بيروت ك الأول ١٩٧٥ م. وما بعد.

ـ **صحيفة التخطيط التربوي في البلاد العربية**، أعداد متفرقة.

ـ **المجلة التربوية**، إصدار المركز التربوي للبحوث والإنماء بيروت ١٩٧٥ م. وما بعد (١١).

اطروحات ومحاضرات جامعية:

- بيطار (صبحي.....) **التربية والتعليم عند ابن سينا**، كلية التربية بالجامعة اللبنانية ١٩٧٧ م.
- رعد (ماجد.....) **الرياضة والفكر العربي عند العرب**، كلية الآداب، بالجامعة اللبنانية، ١٩٧٨ م.
- زيعور (علي.....) **محاضرات في الفكر الاجتماعي عند ابن سينا** (قطاع التربية) كلية الآداب بالجامعة اللبنانية، ١٩٧٤، ١٩٧٧ م
- شمس الدين (عبد الأمير.....) **السياسة العملية عند ابن سينا**، اطروحة ماجستير كلية الآداب بالجامعة اللبنانية، ١٩٧٤ م.

المراجع الأجنبية

- Connor (D.J..) **An Introduction to the Philosophy of Education,**Routledgo, 1967.
- Durkheim(emile.)**Education et Sociologie,** Paris.P.U F. 1977
- LFIF(jean...), **Psychologie et éducation,** tome 4. textes de ps. de L enfant. paris, Fernand Nathan, 1976.
- Gal(Roger...), **Histoire de L'éducation,** Paris, P.U.F.1976.
- Foulquie (Paul.)**Dictionnaire de la langue pedagogique,** Paris. P.U.F 1971.
- Jabere (Farid.)**la notion de la «Ma'rifa» chez Ghasali,** Beyrouth. Edition des lettres orientales, 1958.
- KAYE(Barrington...)**Pédagogie de groupe, science de L'éducation** 4, Paris, 1975 Dunod.
- Lafont (Robert.) **Vocabulaire de psychopedagogie et de psychiatrie de L'enfant,**Paris, P.U.F.
- Medici (Angela) **L'Education nouvelle,**Paris P U F 1972
- Mollo,**L'Ecole dans la societé, Paris, Dunod, 1970.**
- Montessori(Maria),**L'enfant, traduit, par Georgette Bernard,**Paris. 1933
- Reboul, **La philosophie de L'Education,** P.U.F.1970.
- Thomas (Raymond), **L'Education physique,**Paris. P.U.F 1977
- Van Quang (Jean-Pierre.).**Sciences et techniques de L'éducation,**Paris: Casterma 1974.
- SALAMA (Ibrahim,..),**bibliogrophie analytique et critique touchant** la question de l enseignement en Egypte depuis les perriodes de Mamelukes jasqu'à nos jours, Le Caire, 1937
- La petite enfance,**colloque du C. E. R. M.**No 125 paris. 1975.
- Ecole de demain,**Actualité pédagogiques et Psychologiques** Suisse, Dé louchaux, 1977.
- ZAZZO(René...)**traité de lPsychologie de L'enfant,** Paris P.U.D.F. 1970.

الفهرست

الموضوع


الشركة العالمية للكتاب
الدار الافريقية العربية
دار الكتاب العالمي
مكتبة المدرسة

تاب العالمي الشركة العالمية للكتاب
الدار الافريقية العربية مد
الشركة العالمية للكتاب دار الكتاب الع
مكتبة المدرسة الدار الافريقية العربية
تاب العالمي الشركة العالمية للكتاب
الدار الافريقية العربية مد
الشركة العالمية للكتاب دار الكتاب الع
مكتبة المدرسة الدار الافريقية العربية
تاب العالمي الشركة العالمية للكتاب
الدار الافريقية العربية مد
الشركة العالمية للكتاب دار الكتاب الع
مكتبة المدرسة الدار الافريقية العربية
تاب العالمي الشركة العالمية للكتاب
الدار الافريقية العربية مد
الشركة العالمية للكتاب دار الكتاب الع
مكتبة المدرسة الدار الافريقية العربية
تاب العالمي الشركة العالمية للكتاب
الدار الافريقية العربية مد
الشركة العالمية للكتاب دار الكتاب الع
مكتبة المدرسة الدار الافريقية العربية
تاب العالمي الشركة العالمية للكتاب
الدار الافريقية العربية مد
الشركة العالمية للكتاب دار الكتاب الع
مكتبة المدرسة الدار الافريقية العربية
تاب العالمي الشركة العالمية للكتاب
الدار الافريقية العربية مد

